سارق الموتى واللعنات السبع

رواية

تأليف

مجدي يونس

طبعة ٢٠٢٠

يونس، مجدي

سارق الموتى واللعنات السبع: رواية /تأليف مجدي يونس؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

٣٣٢ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٧٨٧٨ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

سارق الموتى واللعنات السبع

رواية

تأليف

مجدي يونس

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى
عضو مجلس الإدارة المنتدب
نوران المصرى

رقم الإيداع
٢٠١٩/١٥٧٩٩
الترقيم الدولى
٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٨٧-٨
الطبعة الاولى
طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : سارق الموتى واللعنات السبع

المؤلف : مجدي يونس

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلى روح أبي

إلى أرواح الطاهرين المرحومين في كل مكان وزمان

فلولا اللّه ثم هم لابتعدنا عن الخير

إلى أرواح الملعونين المبعدين في كل مكانٍ وزمانٍ

فلولا اللّه ثم هُم لانجرفنا في لجج الشر

(١)

ساروا بعد العصر يشيعون جنازة «أبو العزائم» التاجر، والسكون يربض على الوجوه، دخلوا المقابر في صمت، وأخذوا ينظرون إليه وهو يلحد في قبره...

من هؤلاء «كاشف أمين»

فقد أخذ يرشقه ببصره حتى هِيل التراب فوق رأس أبي العزائم...

ثم خرجوا من المقابر جميعهم إلا كاشف أمين، فقد خرج معهم بجسمه فقط وترك تفكيره وشوقه وكامل عقله في قبر أبي العزائم بعد أن أُرْتِج عليه....

خرج معهم بجسده فقط، وكان عليه أن يسترد بقيته، فتسلل ليلًا إلى المقابر، وبيده حقيبته السوداء الضخمة...

كان ليل المقابر أسود دجوجيًّا، ترتجس له الأبدان، وترتعش له الأفئدة وتسدر له العيون، ولكن بدن كاشف لم يرتجس وفؤاده لم يرتعش، وعينه لم تسدر...

تسلل والصمت من حوله يهث القلوب من الخوف، ورغم ذلك لم يكن خائفًا وسار بخطى ثابتة نحو قبر أبي العزائم...

ألقى الحقيبة على الأرضِ، وأخرج منها فأسه المدببة من الجانبين، ورتم جدار القبر الأمامي بها، ثم جثا على ركبتيه وأدخل رأسه في القبر، وأخذ ينبش لحد أبي العزائم بفأسه الصغيرة.

شعر بسخونة في القبر، ورغم ذلك لم يأبه بها، فقد كان عقله تحت التراب كاد يختنق من هذه الحرارة التي تطوق «أبو العزائم» وقبره، هاله الأمر

ـ ربما من حرارة الجو، لكننا في شهر «ديسمبر» حيث البرودة الشديدة والأمطار الغزيرة، لكن ما هذه الحرارة التي تسيح القبر وتهيضه؟

ظل يحدث نفسه وهو يحاول أن يدخل ولا يستطيع كأن شيئًا يجذبه على قفاه، حاول أكثر من مرة أن يدخله لكن الصهد كان يصوحه كل مرة وقف ينظر إلى القبر وسط الظلام متسائلًا:

ـ أين مصدر الحرارة؟ لا توجد نار في القبر، ولا دخان؟ وأين مصدر هذا الصهد والسعير؟ هل أخرج وأتركه؟ لكن كيف أترك هذا الجسد وأرحل؟! لكني لا أستطيع الدخول، فإذا اقتربت احترقت، ما هذا القبر؟ كأنه حفرة من جهنم، فماذا أفعل؟

إنهم ينتظرونني الآن من بعيد أن آتي لهم بهذا الجسد الحديدي، فكيف أدخل؟ فالقبر يصدني بحرارته وسعيره.

وانتبه كاشف لفكرة في خياله أشعرته بالانتصار، وهي أن يهدم هذا القبر يدك ذلك البنيان يسويه بالأرض، ويأخذ بغيته ويرحل، ولكن هذه الفكرة آبت إلى الفشل بعدما يئس من هدمه، وكأن الحرارة تحميه من الهد، فقد كانت ترجع إليه الفأس خائبة خاسئة دون أثر في جدران القبر، ولو حتى بخدش حتى كلّت يداه، وهوت عزيمته وطاشت قوته فلم يعد يستطيع حمل الفأس والانصباب بها على القبر، فأيقن أنه لا سبيل له إلى هذا الجسد المحمي.

أطلقها نظرات على تلك القبور الساكنة من حيث الظاهر، وهو مدثر بالدهشة والاستغراب:

- هذه أول مرة يحدث لي فيها هذا الأمر!!

انتبه على صاعقة قد ترجعه مرة أخرى إلى جحيم نفسه، وصراع ذراته وهو مازال في بداية الطريق إلى ما يصبو إليه، صاعقة زلزلت تفكيره فهل ستكون هذه أول وآخر مرة يفشل في عمله الذي بدأه منذ أشهر معدودة أم أن هذا الفشل سيظل صنوه ورفيقه الملازم له؟

ـ لا، في هذا موتي، أريد أن أصل إلى ما أصبو إليه، لقد ظللت منتظرًا هذه الفرصة كثيرًا، وعندما تأتيني بعد صبر طويل أصاب بفشل وبخيبة أمل؟! لا ... لا .... لابد أن أستمر على نجاحي السابق حتى أحقق مبتغاي وأصل إلى كبيرهم رأس الحية ثم بعد ذلك أتفرغ إلى ذنبها

لكن لماذا فشلت هذه المرة في سرقة هذا الجسد البالي في بلدتي؟ منذ آخر سرقة لي في «كفر مجر» وهي بلدة بعيدة عني ولا أعرف عنها شيئًا إلا قليلًا ممن ساعدني من هذه البلدة، لن أنسى أبدًا ذلك الجسد الربراب لتلك المرأة المشمسة مرمرية الجسد ممشوقة القد، غليظة الشفتين اللتين ساحت فيهما شفتاي عندما شافهتهما وغاصت فيهما قبل وضعها في التابوت...

ولكن حدث شيءٌ أقض الثوابت في قلبي، وأرعشني وسكن وجهي كأنه صفحة من حديدٍ، رأى صالح في وجهي هول المطلع، اقترب مني لما رأى حالتي بعدما تركت شفتيها وجسدها وفزعت للخلف وقال:

ـ ما بك يا كاشف؟ ما الأمر؟ لقد كنت مستمتعًا بها فماذا حدث؟

تلجم لساني، وأسكت صوتي، ولكني استجمعت ما بقي من أشلاء قوتي وقلت بصوتٍ مبحوحٍ:

ـ هذه المرأة مازالت حية لقد أحسست بصوت أنفاسها، وبنبضات قلبها

هدأ روعه قليلًا، وانفطرت شفتاه عن ابتسامة واهنة مشوبة بالحذر والمكر، وقال:

ـ كيف ذلك؟! إنها ميتة.

ـ ليست ميتة، لقد تعاملت مع الموتى قبل ذلك، ومع الأحياءِ وهي مازالت من الأحياءِ.

رعدت عينا صالح، وبرق شعاعهما، ووضع يده على كتفه وقال:

ـ يجب أن تلتزم بقواعد عملنا يا كاشف، إذا كانت حية أو لم تكن، فهذا أمر لا يهمك، ما يهمك ويهمنا هو إنجاز عملك بنجاح، والحصول على المقابل، وما سوى ذلك لا تشغل بالك به ؛ لأنه لن يفيدك، وقد يكون وبالًا عليك، بل قد يكون فيه هلاكك وهلاك كل من تحب، وأنت مازلت في مرحلة الاختبارِ، ولم تتمها بعد، مازال أمامك ست جثث فركز تفكيرك في هذا الأمر، ولا تلتفت لشيء آخر، ولا تعمل تفكيرك في شيءٍ قد يضرك، واستعد للعودة

مرة أخرى لاستكمال عملك، وإحضار باقي الجثث والأجساد أحياءً أو أمواتًا، فقد طالت غيبتك عن بلدتك، وظهرت جديتك واجتهادك، وما بقي عليك سوى إكمال مهمتك هناك، أظن أنك لما ابتعدت ارتحت، وعدت إلى طبيعتك السلسة، ومزاجك المرح، وهذا ليس من رأيي، بل هذه أوامر أمرت أن أبلغك إياها بعد الانتهاء من هذه المهمة.

بلع ريقه بصعوبة وشهق شهقة روع، وتسمرت قدماه في الأرض كأنه تمثال الجبن، صورة الخوف في عينه، ومقر الرعب في جسده، أصبح يفهم حقيقة عملهم، فتارة يأخذون الجثث الطازجة التي لم يمر على موتها إلا ساعات قليلة، أو ربما دقائق بعد الدفن، وتارة يأخذون العظام البالية والجماجم الهشة التي مر على تحلل ما كانت تسكنه دهور طويلة ربما لأجيال في الزمن الغابر، مرت وطويت صفحاتها، وتارة يسرقون جثث ضحايا الحوادث، وتارة يسرقون أو يشترون الأحياء من الصغار والكبار سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، باختصار هم يتاجرون في الجسد البشري سواء حيّا أو ميتًا....

وهذا الجديد الذي ظهر له هذه الليلة قاتمة السواد، قد حلك إهابها وكأن الليل قد تسربل جلبابًا من القار، ظهر له في هذه الليلة أمر ما كان يخطر له على بال، ورغم أن صالحًا لم

يصارحه لكن نبرة كلامه تدل على ما دار في باله وقتها، وهو أنهم في بعض الأحيان يأخذون الجثث أحياء في صورة أمواتٍ بهذا الدواء اللعين الذي عرف أمره فيما بعد، والذي اخترعه هذا الدكتور الملعون الذي يبحث عنه، وكأنه شيطان في ثياب إنسان.

لم يشأ أن يبحث عن أسباب تجارتهم بالجسد البشري بالذات، وبهذه الصور والأشكال، فهذا شيء لا يعنيه، وإن كان شك في بعض الأمور التي قد يعرفها الكثير عندما يقرع آذانه لأول وهلة سرقة الجثث والموتى بل إن كثيرًا من عامة الناس قد يذكر لك أسبابًا لذلك، بعضها صحيح وبعضها مبالغ فيه، ولكن هناك ما لا يعرفه الكثير إلا من يعمل في هذه المهنة، وخاصة هؤلاء المنتمين لمنظمات منحرفة، ودول مهيمنة مغتصبة، وعصابات مافيا، وأمور أخرى عرفها، ومازال يعرف وهو منساق كإنسان بلا قلب أو عقل أو إحساس كأنه شيطانٌ في بدن إنسانٍ يرتكب دواهي وجرائم قد لا يصدقها عقل

لذلك لم يشغل باله، ولم يكثر من الأسئلة والكلام معه وقد غشيته بعض الطمأنينة، وقد أحس صالح بذلك فقال له:

ـ استمتع باللحظة يا كاشف، ولا تفكر في أي شيءٍ إلا في إنجاح وإنجاز عملك على أكمل وجه كي تظفر بالملذات في كل

شـيءٍ، وأنـت الآن أمامـك لـذة كنـت تغـوص فيهـا وقطعتهـا، فارجـع إليهـا واحمـل هـذا الجسـم المرمـري الفتـان، احملـه لنضعـه في الصنـدوق، واسـتمتع باللمـس والقبـلات

طفـرت منـه نصـف ابتسـامة فقـال وقـد أيقـن بنسـبة كبيـرة أنهـا مازالـت حيـة:

ـ لكنـي أريد أن.....

وقطـع كلامـه بسـرعة بديهتـه واسـتيعابه، وأشـار إليـه محـذرًا بأصبعـه السـبابة اليمنـى:

- إيـاك أن تفكـر في ذلـك، فهـي لـم تعـد لنـا الآن، فهـذا سـيكون حظـك منهـا مثلـي.

- مثلك !

- كثر الكلام يا كاشف والجروي ينتظرنا.

- هذا المهيب أنا أكرهه.

- دعك من هذا واحملها

وحملهـا محتضنًـا لهـا وقـد تضايـق مـن وجـود صالـح معـه في هـذا الوقـت بالـذات وهـو يعبـث بهـذا الجسـد الفتـاك، ولـولا صالـح السمسـار كان معـه لـكان ضجيعهـا وقتهـا مفترشًـا جسـدها

ملتهما ثدييها اللذين ما حصل منهما إلا على قضمة بطرف لسانه وهو يحملها على كتفه...

ورغم ضيقه بوجوده وقتها إلا أنه بعد خواطر من التفكير، وبعد مرور أيام أحس من داخله بفرحة باهتة ؛ لأنه لم يفعل ذلك ؛ لأنها كانت ستكون نقطة سوداء في سرداب حياته المظلم بالدواهي وصفحة دجوجية عظيمة في كتاب حياته المفعم بالسواد المترع بالظلام وبالخطايا والذنوب العظيمة.

ومما أدهشه في هذا الموضوع، وسحل تفكيره، وأقض مهاد جوارحه هو كيف بصالح السمسار يفعل ما فعل بـ «هند» زوجة أخيه «مندور» وهو على علاقة جيدة، وصلة وطيدة بأخيه وبزوجته؟! وعندما سأله نفث دخان سيجارته في وجهه قبل أن يركب سيارة الموتى هو ومن معه من تجار اللحوم وسماسرة العظام ونخاسي هذا الزمن، نظر إليه وقال:

- أظنك نسيت أهم قواعد عملنا وقوانينه

- لم أنس شيئًا

- إذًا لماذا تسأل؟

- خاطرة مرت في بالي وراودتني لما أعلمتني أنها زوجة أخيك

نظـر إليـه «الجـروي» ذلـك العابـس دائمًـا، والـذي لـم يـره يتكلـم، ولـو بحـرفٍ واحـد منـذ أن عمـل معهـم مـن أشـهر، سـرت قشـعريرة في جسـده، وتمايلـت أناملـه وارتعشـت أجـزاؤه وطـاش فـؤاده مـن هـول مطلـع نظرتـه الحـادة، نظـر إليـه السمسـار هـو الآخـر، وحـاول أن يقـوي قلبـه، ويهـدئ مـن روعـه ويديـل مـا أصابـه مـن فـزع فقـال منبسـة شـفتاه عـن شـطائر ابتسـامة مقـززة:

ـ يـا كاشـف إنهـم يحبونـك، وهـم سـعداء بنشـاطك وبجهـودك العظيمـة الجليـة أنـا مثلـك أنفـذ الأوامـر دون أن أسـأل، نأتـي إليهـم بالضحايـا التـي نشـير عليهـم بهـا، أو ربمـا هـم الذيـن يشـيرون علينـا بضحاياهـم، هـم يأمـرون ونحـن ننفـذ دون أسـئلة أو استفسـارات، هـذا إذا كنـت تريـد السـلامة والمـال، وإذا كنـت تريـد تحقيـق طموحـك اعمـل بصمـت كأنـك أبكـم...

وانطلقـت السـيارة بالجـروي يقودهـا صالـح السمسـار معبئـة الجـو بالدخـان المقـرح الـذي غـاب فيـه كاشـف وهـو يسـعل منـه، انطلقـت دون أن يـدري لمـاذا فعـل صالـح هكـذا بزوجـة أخيـه الحسـناء ذات الخـدود الغنـاء مـع مـا يربطـه بأخيـه مـن روابـط الـدم وصلـة الرحـم والعلاقـة المتينـة بينهمـا كشـقيقين متحابـين

نظـر كاشـف مودعًـا القبـور بقلـب مشـتاق، ورحـل عـن هـذا المكان وهـو لا يـدري أن «صالـح» فعـل ذلـك بزوجـة أخيـه انتقامًـا

منـه إذ إنـه كان يحبهـا قبـل أخيـه حتـى بلـغ عشـقها الشـغاف والحشاشـة..

ولكنهـا صدتـه ولفظتـه وآثـرت عليـه أخـاه «منـدور» ذا القلـب الوديـع والخلـق الرفيـع.

جـن جنونـه، وأجـن بداخلـه نيـران الانتقـام، ووارى وراء ابتسـامته الكاذبـة لهائـب السـعير، وظـل يتحـين الفرصـة المناسـبة للثـأر وشـفاء غليلـه، حـاول أكثـر مـن مـرة مراودتهـا عـن نفسـها، ولكنهـا دعتـه وصفعتـه علـى وجهـه، فانقـض عليهـا كالثـور خانقًـا إياهـا بيديـه، وكادت أن تلفـظ أنفاسـها تحـت يديـه لـولا أنـه سـمع صـوت زوجهـا يقتـرب مـن البيـت، وهـو يحـدث أحـد جيرانـه فسـحب يديـه عـن رقبتهـا ببطء، ورمقهـا بنظـرات المقـت والشـنآن

أخـذت تتحسـس رقبتهـا، وهـي تسـعل وترغـي مـن فمهـا ثـم قامـت تعـدل مـن نفسـها، ومـن هيئتهـا قبـل دخـول منـدور الـذي وجـد أخـاه في وجهـه علـى عتبـة البيـت وهـو يفتـح البـاب مبتسـمًا لـه قائلًا:

ـ لقـد أحضـرت لـك الفلـوس التـي طلبتهـا كـي تسـدد ديونـك التـي عليـك لـ «حمـدان» وظللـت أنتظـرك حتـى مللـت فجئـت أنصـرف فوجدتـك

وأدخل يده في جيبه، وأخرج كيسًا ملفوفًا على بعضه ومد يده به لأخيه

نظر إليه مندور في ابتسامة لطيفة تترقرق على شفتيه وقال:

ـ شكرًا جزيلًا لك يا أخي، ربنا لا يحرمني منك أبدًا، وأعتذر عن التأخير

ونظر إلى زوجته وقال:

ـ أعدي الطعام لي ولأخي صالح

ـ لقد تأخرت يا مندور، أنت تعرف أعمالي الكثيرة وسفرياتي المتعددة

ونظر إلى ساعته وقال:

ـ بعد ساعة سأرحل إلى الإسكندرية

ـ كان الله في عونك يا أخي الطيب

ورحل صالح، وهو متيقن أن زوجة أخيه لن تخبر أخاه عما حدث، وقد كان، فلم تتبس شفتا «هند» بحرف واحد لمندور عما حدث رغم استرابته في الأمر، ومحاولاته العديدة طوال الليل استكشاف سبب تغير زوجته وعبوس وجهها المصاحب لرحيل أخيه عن البيت...

لـم تكـن هـذه المـرة الأولـى والأخيـرة لصالـح السمسـار فقـد تكـررت أكثـر مـن مـرة، حتـى حـاول مـرة أن يغتصبهـا أثنـاء مـرض أخيـه الطـارئ والـذي نُقـل علـى أثـره إلـى مستشـفى دسـوق العـام، وظـل هنـاك محتجـزًا ثلاثـة أيـام بلياليهـن في غيبوبـة، ولا أحـد حولـه، فقـد كانـت زوجتـه تسـتعد للذهـاب للمستشـفى ففوجئـت بزيـارة صالـح الـذي بمجـرد دخولـه انقـض عليهـا انقضـاض الذئـب علـى الشـاة، يحتضنهـا ويقبلهـا، وهـي تدافعـه بمـا اسـتجمعت مـن قوتهـا إلا أنـه أحاطهـا بذراعيـه، وألصـق شـفتيه بشـفتيها فمنعهـا مـن الصـراخ، وسـاعده في ذلـك قوتـه وبنيانـه المتين، فقـد كان يـزن أكثـر مـن تسـعين كيلـو، وطولـه يقـرب مـن « ١٨٠ سـم» فتمكـن منهـا، وشـد عنهـا ثيابهـا فتقطعـت عباءتُهـا مـن عنـد الكتـف فبـرز نهدهـا الأيمـن يترجـرج أمـام عينيـه فنظـر كالمجنـون والتقمـه، وهـو يضـع يـده علـى فرجهـا النـدي، وهـي تدافـع دون جـدوى ومـع ذلـك لـم تستسـلم، ولـم تـرض بالأمـر فعضتـه في أذنـه أثنـاء رضاعتـه مـن ثديهـا حتـى نفـر الـدم مـن أذنـه فأمسـك أذنـه ووجـد الـدم علـى يـده، فتشـيط غضبًـا وأرعـب بعينيـه وأزغـب بفمـه يحـز علـى شـفتيه، فلطمهـا علـى وجههـا حاولـت أن تقـوم مـن تحتـه وتهـرب فلـم تسـتطع، ولمعـت عيناهـا عندمـا رأتـه يخـرج خنجـرًا مـن جيبـه فأيقنـت بالمـوت وكادت تصـرخ فضغـط علـى فمهـا بقـوة، وجـاء ليغـرز خنجـره في بطنهـا إذا بقـرع علـى البـاب، وصـوت متهـدج ينـادي:

ـ هند، افتحي أنا أمك، لقد تأخرنا على مندور

أحست هند بالسعادة من داخلها، وكأنها ولدت من جديد، ودموعها تلمع في خديها، وفشل صالح هذه المرة أيضًا من اقتناص فريسته سواء بهتك العرض أو بالقتل، فقام عنها، وهو يشير بالخنجر إلى فمه ألا تتكلم ودلف نحو باب البيت الآخر يهرب منه..

بات هم صالح هو افتراس هند والتلذذ بها، ثم الخلاص منها إذ إنها أصبحت بلا قيمة لديه بعد ما كانت هي كل حياته وحبه العميق، فواراه التفكير في سراديب السهر والفرفشة مع أخس الناس وأخبثهم «حامد المالكي» الذي قد أرضع بلبان اللؤم، وربي في حجر الشر والخبث أحد أذرع تجار البشر ونخاسي اللحوم والأعضاء....

عندما رآها حامد تتمايل وتترجرج مع أمها طاش لُبه:

ـ هذه عز الطلب وبغية المشتاق، نريدها كاملة تامة بدون رمش ناقص

هكذا قال لصالح الذي ألجمه الاستغراب والاندهاش، ولكنه لا يرفض لهم طلبًا، ولا يعصي لهم أمرًا، فلبى على الفور، ولكن بطلب صغير أن يستمتع بها قبل أخذها، وشرق بالإلحاح على حامد:

ـ أريدها ولو ثانية، ألج في فرجها وفي دبرها المربرب هذا ثم أعطيكم إياها

ـ أنت خنزير يا صالح

يضحك صالح باستفزاز ثم يقول:

ـ أنا خنزير؟! وأنتم ماذا؟

ـ احفظ لسانك يا صالح لا يوردك المهالك

– لن تأخذها حتى أستمتع بها هي كانت ومازالت بغيتي ومرامي

يخرج حامد من جيبه علبة من الورق السميك لامعة في حجم الكف مغلقة يناولها «صالح» ويقول:

ـ خذ هذا الدواء يا صالح، وأحضر لنا جسدها كالعادة، أمامك يومان فقط وإلا أخذنا .....

يهز رأسه مبتسمًا في خبث:

ـ أنت تعلم ماذا سنأخذ؟

ـ لكنها لن تقبل مني شيئًا بعد كل محاولاتي معها

هـز حامـد رأسـه وهـو ينفث دخـان سـيجارته ناشـرًا إيـاه في الهـواء:

- تعـرف مـا هـو أفضـل حيـوان يـا صالـح؟ الثعلـب هـو أفضـل الحيوانـات علـى الأقـل في رأيـي ؛ لأنـه يتحايـل حتـى يصـل إلـى مـراده، ولا يـكل ولا يمـل حتـى ينالـه، بعكـس الذئـب الـذي يظـل متربصًـا بفريسـته متصبـرًا عليهـا حتـى تحـين الفرصـة ويقتنصهـا، وقـد يطـول الأمـر، لكـن الثعلـب لا، يظـل يتحايـل ويعقـد الخطـط والمؤمـرات حتـى يحـوز فريسـته، كـن ثعلبًـا يـا صالـح، أعطـه زوجتـك، وهـي سـتقوم بمـا نريـد، وسـيكون معـك كالمعتـاد الجـروي وكاشـف.

سكت برهة ثم قال :

- قل لي ما انطباعك عن كاشف هذا ؟

- بالنسبة إلي هذا الشخص أنا لا أحبه ، ولا أطمئن إليه

- هـذا الشـخص سـيكون أعظـم نبـاش، وأشـجع لـص قبـور وأفضـل سـارقي موتـى علـى مـر العصـور، وسـوف تـرى ذلـك.

- ولماذا أنت متيقن هكذا مما تقوله كأنه حدث بالفعل؟

- سيحدث يا صالح وسوف ترى؛ لأن «كاشف» هذا قلبه ميت من أمد بعيد وتستطيع أن تقول أن في قلبه حجرًا صوانًا صلدًا، أو بمعنى آخر كاشف لا قلب له، لقد ساعدتنا الأحداث والظروف التي كانت سببًا في تغيير كاشف وتصييره لمثل هذه الحالة التي هو عليها، ولتعلم أن هذا أيضًا هو رأيُّ الدكتور.

- ولكن الدكتور لم يره بعد حتى يحكم عليه بهذا الحكم!

يضحك حامد هازا رأسه يمينًا ويسارًا في تعجب:

– وكأني بك لا تعلم من هو الدكتور يا صالح؟! هذا العمل الخطير الذي يعتبر أعظم تجارة في العالم، والذي تديره دول ومنظمات وعصابات دولية خطيرة في مختلف أنحاء العالم شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا في مناطق ربما لم تسمع عنها من قبل أو ربما لا تعلم أنها موجودة أصلًا لابد أن يكون أعضاؤه وخاصة المسئولين منهم على فهم واسع، ودراية عالية وعلم بكل ما يحدث وتوقع لأمور قد تحدث، الدكتور يعلم كثيرًا يا صالح وأرجو ألا يؤثر هذا الكلام على علاقتك بكاشف، وألا يكون سببًا في زيادة كرهك له وحقدك عليه، فعملنا هذا عمل جماعي لا حظَّ فيه للأضغان والمصالح الشخصية وتصفيات الحسابات وغير ذلك، أمفهوم كلامي يا صالح ؟

- مفهوم ياحامد باشا، وبلغ تحياتي وسلامي للدكتور

وكانت هذه العملية العاشرة لكاشف منذ عمله مع هؤلاء، اكتشف فيها الكثير وغاب عنه الأكثر، ولكن كل هذا لا يعنيه، كل ما يعنيه هو أن يستحوذ على مراده حتى ولو فنيت البشرية كلها، ربما ليس المال وحده هو الدافع الرئيسي للعمل مع هؤلاء ربما أنه يبحث عن شيء عندهم، إنه شخص غامض على كل الأحوال....

تسع عمليات من العشرة نجح فيها كاشف سواء كان بمفرده أو مع مجموعة، لكن هذه أول عملية يرى فشله بعينيه، لما فشل في انتشال جسد أبي العزائم التاجر الثري وسلبه، لم يستطع التغلب على القبر الذي صار حصنًا حصينًا وفرنًا حاميًا وقبوا ملتهبًا على أبي العزائم يصطلي فيه بجحيمه..

لم يرد أن يترك الجبانات ويخرج منها خاويًا، لم يشأ أن يقال عنه فاشل فيفشل في الوصول إلى الدكتور والتعرف عليه ومجالسته والتقرب منه ولكن ماذا يفعل في هذا الأمر؟ إن هذا خارج عن قدرة البشر، أخذ يتلفت يمينًا ويسارًا يقدم رجلًا ويؤخر أخرى لا يريد الخروج من مساكن الموتى ومأوى الرمم والجيف، فجلس على حافة قبر قريب من قبر أبي العزائم ينظر إليه تارة وإلى القبور الصامتة حوله تارة أخرى، وأخذ في مساءلة نفسه:

ـ أيكون هذا الذي فيه أبو العزائم هو عذاب القبر؟ ولكن لماذا أنا بالذات الذي يعاين ذلك ويشعر به؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات؟ أيكون ذلك إشارة وتنبيهًا لي؟ ولكن لماذا في هذه المرة بالذات التي يحدث لي فيها هذا دون المرات السابقة؟ هناك شيءٌ غامضٌ، ما الأمر؟ ولماذا منعت من جسد أبي العزائم بالذات؟

ماذا كان يفعل أبو العزائم لا نعلمه؟ فالمعروف عنه صلاحه وطهره وعفته ومساعدته اليتامى والأرامل والمحتاجين، إنه كان مداومًا على الصلاة ومسارعًا في الخيرات، والجميع يشهد له بهذا، لقد كان رفيق الجود وخليله، غوثه موقوف على اللهيف، وعونه مبذول للضعفاء، بابه غير مرتج كان مفتوحًا دائمًا أمام الناس جميعهم القريب والبعيد المجهول والغريب والمعروف هذا في جانب البشر، أمَّا فيما يتعلق بحق الخالق فقد كنا نراه يصلي تقيًّا ورعًا، يتبع أرشد الخلق، إذا سخط لم يتجاوز جانب الحق، عف الإزار، يرجع إلى نفس أمارة بالخير بعيدة عن الشر، فمع كل هذه الصفات الحسنة والأخلاق العالية، والمطالب الرفيعة يعذب في قبره؟! أكيد فيه أشياء غائبة عنا لا نعرفها عنه ربما لم يكن نظيف القلب أو أن خباياه أوزار وآثام لا نعلمها عنه، فربما كان ظاهره يسر الناظرين وباطنه يسوء

الخابـر، يدعـي الفضـل وهـو فيـه دعـي، ربمـا أكتشـف حقيقتـه هـذه في يـوم مـا وأكشـفها للنـاس، ولكـن الآن لابـد أن أرجـع إلـى القبـر مـرة أخـرى، وأرى مـاذا حـدث؟ ربمـا أن كل شـيء انتهـى أو أنـي كنـت أحلـم وصحـوت مـن غفوتـي فأسـتطيع أن أسـرق جسـده، إنهـم الآن ينتظرونـي، مـاذا أفعـل؟ قـد هـجم الليـل علينـا في هـذا المكان الموحش الكئيـب فمـاذا أفعـل؟

وغـاب في طـرق مـن التفكيـر أفـاق علـى رنـة هاتفـه المحمـول، إنهـا مـن صالـح الـذي اسـتغيبه فقـد ملّ مـن الانتظـار هـو والجروي العباس

- لماذا كل هذا التأخير ؟ لقد قلقنا عليك .
- حـدث شـيءٌ لـم أكـن أتوقعـه، القبـر كأنـه حفـرة مـن جهنـم، حـرارة متقـدة وصهـد شـديد لـو دخلـت لانصهـر جسـدي، وإذا كنـت لا تصدقنـي تعـال انظـر
- والعمل الآن؟
- سـأنتظر حتـى يتشـح الكـون بالسـواد وتغبـش العيـون وأرى مـا الأمـر؟
- ولكننـا لـن ننتظـرك كل هـذا، نحـن في خرابـة الآن منتنـة الرائحـة مكفهـرة الجـو، ولا تنـس أن الدكتـور ينتظـر

نتيجة عملنا الآن وقد قلق من تأخرنا، وأنت لا تريد أن تظهر أمامه أنك فشلت في أمر.

- لا داعي لهذا الكلام الآن يا صالح، هذا أمر غير معتاد، أنا الآن مازلت في المقابر، إن كنت لا تصدقني فأتني أريك الأمر

- سننتظرك ساعة أخرى يا كاشف إن لم تأت خلال الساعة سنرحل وسيعلم الدكتور بكل ما حدث وكل ما قلته

هزه كلام صالح وأثر فيه، فكيف يرحل هو الآخر ويبدو فاشلًا في مهمته التي انتظرها شهورًا كي يرى الدكتور ويتقرب منه ويعرفه معرفة شخصية، فأطلق رجليه للأرض، وهبط يحث الخطى وفأسه على كتفه وكله عزيمة وإصرار أن يدخل القبر حتى ولو كلفه ذلك حياته..

القبر مازال بابه مفتوحًا منذ تركه ولكن ما هذا الذي يخرج من القبر؟ اندهش كاشف وأصابته رعدة في ركبتيه وفي أنامله وبرقت عيناه، استجمع ما تبقى من قوته، واقترب من فوهة القبر ملقيًا الفأس على بابه، مدّ يده رويدًا رويدًا ببطء يتحسس الحرارة والصهد، فلم تشعر يده بشيء ما هذا؟ هل

خبت الحرارة وزالت أم ماذا؟ وما هذا الدخان؟ وما سببه سأكتشف ذلك الآن.

ومد ذراعيه ونصف جسده العلوي داخل القبر ينبش عن الجثة ويخرجها خارج هذا القبر الضيق، وكانت الصاخة والطامة الكبرى عندما وجد الجسد مفحمًا حالك السواد يتفشى منه الدخان وينتشر من كل جسده، باختصار صار فحمة منتنة الرائحة كفرخ مشوي تآكل لحمه وتناثر وامتحشت عظامه واختفت أعضاؤه وجوارحه، وبات هيكلًا مشويّا هاله ما رأى من منظر هذه الجثة البالية، منظر تستك له الجوارح وترتج له الضلوع وتسقط منه الحبالى، ويصحو له السكارى، لم تعد تلتقي شفتاه بالحديث عنه، ولا يثبت باله بخطره، منظر يشيب الوليد، ويذيب الصخر.

فأخرج جسده من القبر وانتصب مفزوعًا، والعرق يصوحه ويغرق وجنتيه ويبلل سرواله، نسي أن يرص الطوب سادًا فتحة القبر، وسار يحدث نفسه:

- ما هذا الذي أرى؟ أظن أن المقصود من هذا هو أنا وليس أبا العزائم، أنا المطلوب، لكن لماذا؟ لا أريد أن أفيق الآن، أريد أن أظل في هذه الطريق حتى أظفر بمطلوبي، لذلك يجب أن يجمد قلبي أكثر وأكثر ويشتد قسوة وغلظة ويزيل أي

خوف أو فزع من داخله، ربما أتعود على هذه المناظر والمشاهد والأحداث بعد ذلك، لابد أن أتعود عليها.

وينظر خلفه ثم يقول:

ـ ولكن هذا الجسد ماذا أفعل به هل آتي به لهم ليروه أم ماذا؟ فماذا يفعل به بعد الآن؟ إنه لم يعد يساوي جنيها واحدًا، ولكن كيف يصدقونني؟ لن يصدقوا كلامي لذلك...

وينظر إلى القبر في حدة ثم يدلف نحوه بخطى ثابتة واثقة من هدفها...

●●●

(٢)

كان كاشف في الخمسين من عمره لما حدثت له تلك الحادثة التي غيرت حياته وقلبتها رأسًا على عقب وأبدلته شخصًا غير طويته الطيبة شخصًا أرعب الجميع حتى أقرب الناس إليه، قليل هُم الذين يعرفون ما حدث له، وإن كانت هناك إشاعات كثيرة وأقاويل منتشرة حول ما حدث له ولأسرته بعضها قد يشوبه شيءٌ من الصواب والكثير منها مبالغات وافتراءات لا أصل لها ....

حتى وسائل الإعلام المرئية منها والمسموعة والمقروءة صخبت بالكلام الكثير والأقاويل المشبوهة والتعليقات العديدة والتكهنات منها ومن المتابعين لها .

كلها احتمالات فرضتها تلك الحادثة الغامضة التي لا يعرف حقيقتها إلا كاشف نفسه، وقد يكون السبب الرئيسي في ذلك هو أن كاشفًا قد أصيب إثرها بسكتة لسانية أبكمته تسعة أشهر، فقد الصوت وحرم التركيز طيلة هذه المدة، ظل فيها ذاهلًا مدهوشًا حائر النظر والفكر، فقد الجلد والاصطبار على ما لا يستطيع ذكره...

ظل طيلة هذه الفترة في المستشفى تحت حراسة مشددة عائشًا دهش القلب بنيانه مرتعش، مستوحش مما حوله، حتى بعد مرور تسعة أشهر، وعندما بدأ يرجع إليه شيء من صوته كان يتكلم كطفل صغير يحبو في كلام متقطع نصفه غير مفهوم، ولم تستطع النيابة معرفة أي شيء منه بعدما أفاق من ذهوله، ونهض من سكرته، وإن كان مازال يعيش فيها ولكن بصورة أخرى بقلب غير القلبِ وجوارح غير الجوارح وإنسان آخر غير ما كان يعهده في نفسه، حتى هو لم يعرف نفسه..

حاولت جهات التحقيق معرفة أي شيء عن هذا الحادث المروع الشنيع الذي حدث لأسرته كاملة ولكن دون فائدة، لم يكن كاشف بينهم عندما كانوا يتحدثون إليه، إنسان آخر في عالم آخر...

وانتهت جهات التحقيق بعد أسابيع من التحقيق معه إلى إيداعه مصحة نفسية إلى حين التأكد من سلامة قواه العقلية إن كان موجودًا منها شيء أو إلى حين عودة شيءٍ من هذه القوى إليه مرة أخرى، وأقفلت القضية إلى حين إشعار آخر أو ظهور أدلة أخرى يعاد على إثرها فتح التحقيق في تلك القضية الشنيعة التي هزت الرأي العام ليس المصري فحسب، وإنما العربي والعالمي أيضًا....

أصيب الجميع بذهول، القريب والبعيد من هول ما سمع أو قرأ عندما اتهم في بداية الحادثة طبيب هو من أشهر الجراحين في مستشفى القصر العيني بل إن هذا الطبيب وصل إلى العالمية بإجرائه عشرات العمليات الجراحية في أربع دول عظمى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وألمانيا ..

ولكن أثبتت جهات التحقيق براءته بعد أسبوع واحد فقط على الحادثة، وذلك لأنه ثبت لديهم بما لا يدع مجالا للشك أن الطبيب «كاشف أمين الضحى» بريءٌ من دماء أسرته زوجته وابنيه وابنته الذين طمست أنوار نجومهم في مذبحة شنيعة مهولة هزت جنبات حياة كاشف برؤية زوجته وذريته تجتث هكذا بسهولة بسبب أنه رفض عصيان ربه، وطاعة شياطين الإنس قبل شياطين الجن.

فكيف يخون الله ؟ وكيف يخون هذا القسم قسم المهنة الذي أقسمه يوم تخرجه : بسم الله الرحمن الرحيم. أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال، باذلا وسعي في استنقاذها من الموت والمرض والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم وأستر عوراتهم، وأكتم سرّهم وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلا رعايتي الطبية للقريب والبعيد،

الصالـح والطالـح، والصديق والعـدو، وأن أثابـر علـى طلـب العلـم أسـخِّره لنفـع الإنسـان لا لأذاه، وأن أوقـر مـن علمنـي، وأعلّـم مـن يصغرنـي وأكـون أخًـا لـكل زميـل في المهنـة الطبيـة في نطـاق البـر والتقـوى، وأن تكـون حياتـي مصـداق إيمانـي في سـري وعلانيتـي، نقيـا ممـا يشـينني أمـام اللّه ورسـوله والمؤمنـين، واللّه علـى مـا أقـول شـهيد»

كيـف يخـون نفسـه ويخـون أخلاقـه التـي تربـى عليهـا في بيـت صـلاح وتقـى وشـرف فيمـا يظهـر لـه وللآخريـن، بيـت الشـيخ أمـين الضحـى بـن الحسـن بـن الضحـى بـن صالـح بـن زيـن الديـن بـن فضـل بـن خالـد الصيـرفي.

شـجرة باسـقة فروعهـا في آفـاق السـماء، أصلهـا ثابـت في الأرض شـرقًا وغربًـا، ولكـن بـات هـذا الفـرع فـرع الشـيخ أمـين الضحـى مهددًا بالاندثـار والتلاشـي بعـد فقـدان ابنـه لذريتـه كلهـا في ليلـة واحـدة...

عندمـا كان يجـري عمليـة جراحيـة خطيـرة في القصـر العينـي مـع ثلاثـة مـن كبـار الجراحـين في مصـر كانـت هنـاك عمليـة جراحيـة أخـرى تجـرى في شـقته في ميـدان جهينـة في مدينـة السـادس مـن أكتوبـر.

●●●

(٣)

أقبل الليل يقيد ألحاظ العيون ويعمشها، كانت ليلة كأنها في ثياب الثكالى قد طمست نجومها، وغار ضياؤها، وتسلل النعاس يخيط أجفان الناس إلا ما كان من بعض السهارى على المقاهي وفي المولات والمحلات وما يدب في بعض الطرقات من بعض العاشقين أو المهمومين، لم يكن في تلك العمارة رقم (٧) غير أربع شقق، الدور الأرضي ثلاثة جراجات لأصحاب الشقق الثلاث، الشقة الأولى في الدور الأول علوي هي لرجل هرم قد أخذ من عقله كما أخذ من عمره، قيده الكبر فرسف رسفان المقيد فكان لا يتحرك إلا قليلًا، وكانت زوجته «عواطف عاشور» هي التي كانت تقوم بكل ما يحتاجه ويعوزه، فلم تكن هرمة مجتثة الجثة مثله، فقد كانت في الخامسة والأربعين من عمرها، أرملة لعامل بسيط في مصنع أدوية في السادس من أكتوبر مات إثر حادث مفجع لقى حتفه وتخطفته المنون في أقل من ساعة بسبب آلة من آلات المصنع أثناء عمله، هلك ولم تحظ زوجته بأي استحقاقات أو معاشات رغم محاولاتها البائسة ومساعي بعض أهل الخير والصلاح ولكن دون جدوى، يوم وراء يوم وشهر يسابق شهرا وسنة تلاحق سنة حتى يئست منهم، واشتكتهم إلى الله تعالى وفوضت أمرها إلى الله فيهم محسبلة عليهم...

كانت في عنفوان شبيبة تخاف سقطاتها وهفواتها ولا تؤمن جمحاتها ونزواتها خاصة مع ضعف ذات اليد وقلة الحيلة، فما كان من أولاد الحلال والشرفاء وما أقلهم إلا أن سعوا في زواجها من الأستاذ «نبيه صبري» بعد أن تخلى عنه أولاده كلهم: محمود المقيم في دبي منذ عشرين سنة هو وزوجته وولداه حسام ومنة، ووائل المهاجر إلى كندا منذ عشر سنوات بعد أن أنهى تعليمه في كلية الهندسة، وتزوج هناك من فتاة لبنانية، ونسي مصر وأهلها وقرضب كل صلة له بها، فما أجحده! والصغرى هيام التي سافرت لزوجها أمريكا منذ سبع سنوات، ومنذ ذلك الحين والأستاذ نبيه صبري وزوجته فايقة لم تعد علاقتهما بأولادهما إلا عبارة عن رسائل أو مكالمات صوتية كل حين حتى أحس الرجل وزوجته أنهما منبوذان من أولادهما بعد أن أنفقا عمرهما من أجل تربيتهما

لم تحتمل الأستاذة فايقة واقعة هجران أولادهما لهما، فارتفع ضغطها أكثر من المعتاد ودخلت في غيبوبة، ظلت فيها ثلاثة أيام حتى ماتت، وبقي الأستاذ نبيه وحيدًا يعاقر الهم ويسامر المرض ويؤانس الوحدة حتى اصطلم بعواطف عن طريق بعض المقيمين في الحي، لقد وجدا بعضهما فقد كان معاشه من عمله بوزارة التموين يكفي معيشتهما على الكفاف،

وقد رضيت هانم بذلك فقد كانت محتاجة إلى المال أكثر من حاجتها إلى طراوة الشباب وعنفوانه، وبالرغم من أنها في فورة الأنوثة بين نزقات الشباب ونزغات الشيطان إلا أنها سلمت أمرها لله ورضيت بالأمر، وأخذت تقاوم نفسها وتجمحها حتى لا تقع في الفحشاء مع كثرة محاولات بعض السفهاء والأنذال من انتهاز الفرص وتحين الظروف سواء بعد وفاة زوجها أو بعد زواجها من الأستاذ نبيه الذي قد نسي الجماع حتى قبل أن تموت زوجته، ولم يعد يؤثر فيه أقوى الأدوية وأعتى حبات الفياجرا لم تنجع معه أو تفيد، ومع ذلك يعيش الزوجان سعيدين بحياتهما رغم وجود بعض العقبات والمشكلات، ولكن الله يفرج الكروب...

أما الطابق الثالث فليس فيه أحد؛ لأن الشقة تغلق أكثر ما تفتح، فهي لأسرة مقيمة بالكويت منذ سنين ولا يتجمع شملهم في هذه الشقة إلا كل سنتين مرة، فالزوج طبيب أسنان والزوجة طبيبة عيون سافرا منذ عشر سنوات إلى الكويت ليكونا نفسيهما ويوفرا لأبنائهما الأربعة حياة كريمة بعد مماتهما، مرت السنون وتوالى الليل والنهار حتى رتعت أموالهم في البنوك وفاضت، هذا غير العقارات في الساحل ومدينتي والرحاب وبكل هذا لم يشبعا ومازالا يغترفان من الدنانير.

فالعمارة تعد كأنها فارغة وخاوية على بنيانها إلا ما كان من أمر شقة الدكتور «كاشف أمين الضحى» حيث زوجته الأستاذة فاطمة محي مدرسة الكيمياء في مدرسة الأهرام للغات، وأولادهما «خالد طالب في الصف السادس الابتدائي، وعمر في الصف الثالث، وفريدة في الصف الأول» كانت الأم منشغلة في إعداد طعام العشاء، بينما خالد وعمر منشغلان بلعبة «سرقة السيارات الكبرى ٤ على بلايستيشن٣» وكانت فريدة تلعب بعرائسها وألعابها، في هذه الأثناء وقفت سيارة ميكروباص تويوتا (١٤) راكب أمام بوابة العمارة ملتصقة بها، هبط منها أحد عشر شخصًا ثمانية رجال وثلاث فتيات يحملون خمسة من الصناديق الحديدية بين كل اثنين صندوق، يحملانه وبقي الآخر يحرس العقار ويراقب الطريق من داخل بوابة العمارة ويترصد للذاهب والآتي..

حوصرت العمارة من الخارج والداخل، توقف ثلاثة رجلان وامرأة أمام باب شقة الأستاذ نبيه، بينما صعد السبعة الآخرون لشقة الطبيب كاشف أمين حيث زوجته وأطفاله الذين باتوا فريسة سهلة ووليمة لباقري البطون ومخرجي الأحشاء والأضلاع، لم تكن هناك مقاومة فبمجرد فتح الطفل عمر الباب على أمل أن يكون والده، فوجئ بسيل ينقض عليه

مكممًا فمه بيد أحدهم، بينما انتشر الباقون في الشقة يقيدون باقي الضحايا والذبائح خرجت الأم من المطبخ لتجد أولادها مغللين بالقيود والأصفاد وملقين على الأرض، وأفواههم مكممة، اخترمها الهلع، فهرعت إليهم فأحاطوا بها وقيدت مثلهم لتبدأ المذبحة الرباعية في نفس توقيت المذبحة الثنائية في شقة الأستاذ نبيه.

كانت أول مرة يتأخر فيها الدكتور كاشف حتى هذا الوقت المتأخر، لقد طلب من إدارة المستشفى أن تجرى العملية في وقت باكر قبل هذا، ولكنهم رفضوا وصمموا على هذا التوقيت، دون إبداء أسباب مقنعة ترقى لدرجة القبول، ولكنه لم يكن ليتأخر على مريض مهما كانت ظروفه أو أشغاله وفي أي وقت، وهذا ما عهده منه الجميع، فلم يتأخر في إجراء هذه العملية في هذا الوقت المتأخر من الليل بعد انتصافه، خرج منها وهو مشتاق لزوجته وأطفاله يجلس معهم قليلا قبل أن يناموا ويحكي لهم ما حدث في يومه كعادته دائمًا، فلبس ثيابه مسرعًا، ولكنه فوجئ بالدكتور « شهيد النوري» الذي يبغضه ولا يطمئن إليه وزاد ذلك بعد ما عرف حقيقته وبعد أن حاول دفعه في طريقه لولا أن الله أنقذه برحمة منه

وجده يدخل عليه غرفته بعد العملية متبسمًا له مبديًا عن أسنانه الصفراء فاردا ذراعيه مهنئًا له على نجاح تلك العملية الخطيرة، التي لا يصلح لها سواه ولم يكن لأحد يفعل مثل فعله، احتضنه رغمًا عنه مكرها، فلا يمقت أحدًا على وجه الأرض مثله بعدما كشف عن وجهه القبيح وحسر عن بواطن شره عندما مد يده ليجرفه معه في مهاوي العدوان والطغيان ولكن اللّه سلم، وعصم كاشفًا بما أودعه فيه من مراقبة له عز وجل، وخوف منه، وفؤاد متقد على وجل وخشية دائمًا منه سبحانه وتعالى، وذلك بأن هيأ له بيئة حسدوا عليها، نشأ فيها بين أب هو إمام وخطيب جامع القرية وسيرة أم صالحة قدوة لنساء القرية كلها، لم يرها ولكنه سمع عنها كثيرًا من زوجة عمه ومن عمه، لم يسمع من والده عنها شيئًا بل إنه يتذكر في المرات القليلة التي كان يرى فيها والده لم يسمعه يتلفظ باسمها قط، لا يدري ما السبب؟ ولكنه عاش رغم افتقاده لأمه دائمًا وافتقاده لأبيه غالب وقته عاش عيشة هنيئة صالحة مع أخويه وبين أبناء عمه تحوطهم عناية عمه وزوجته، وتلك الخادمة التي لم ينسها قط.

فكيف لكاشف أمين بعد أن نهل من الخير والرحمة والإحسان في هذا البيت أن ينجرف مع نزغاتهم ونزقات

شياطينهم لما نصبوا له شباكهم ومدوا أذرعهم الكثيرة نحوه، عن طريق الدكتور «شهيد النوري» الذي خرج كغيره من هذه الأذرع من سراي النيابة على ذمة القضية الخطيرة التي فجرها الدكتور كاشف أمين منذ ثلاثة أسابيع، وكشفها أمام الرأي العام المصري والعربي والغربي فيما عرف باسم قضية «نخاسي البشر» انحسر النقاب فيها عن شخصيات وأسماء بارزة بعضهم ذوو مناصب رفيعة ومكانات مرموقة ووجاهات اجتماعية من صفوة المجتمع كما يدعون وكما يعرف عنهم أمام قاطني هذا الوطن العظيم الذي يلفظ دائمًا ويمجّ كل خبيث وضال.

ولكن في حالة هؤلاء انتكس الأمر فلم يلفظوا ولم يمجوا بل خرجوا بعد أيام قليلة لعدم كفاية الأدلة ولعدم اقتناع النيابة بها، وإن شئت قل لتدخل بعض ذوي السلطة الواصلة مباشرة لسلطات عليا في الدولة، وبقي بعض الذيول كالدكتور «شهيد النوري» على ذمة القضية لحين انتهاء التحقيقات في هذا الموضوع إمّا بإقفالها وتبرئة الجميع وإمّا بالتضيحة ببعض هذه الذيول والأذناب مثل هذا الطاغوت شهيد النوري الذي دخل على كاشف غرفته مفرجًا أساريره يحتضنه ويقبله بأيدي تخفي الشرور والغدر، وفم ينطق عسلًا وخلف ريقه سم

ناقع كأفعى تتلوى داخل فمه بملمسها الناعم، احتضنه كاشف وهو غير راضٍ من داخله فهو يعلم مدى الشر الذي يضمره له لما فعل به وكشف ستره وسترهم معه باستثناء الدكتور كبيرهم الذي لا يعلم عنه أحد شيئًا، ولم ينزلق اسمه في التحقيقات ولو من بعيد؛ لأن من رآه قليلون يعدون على الأصابع، فهو لا يكشف نفسه بسهولة لأي أحد، فلا يسفر أو يبدي نفسه إلا للمقربين والمصطفين الذين وصلوا لهذه المرتبة بعد عناء شديد وجهد جهيد في منظمتهم وبعد اختبارات شاقة كمثل الذي دخلها كاشف بعد الذي حدث لأسرته زوجته وأولاده من رجال الدكتور بتحريض وتخطيط منه.

وكان من تخطيطهم أن يعطل كاشف أطول وقت حتى ينتهوا من فعلتهم الشنيعة وخطيئتهم السوداء وذنبهم الدميم، فأسند إليه أمر هذه العملية في هذا الوقت المتأخر على غير المعتاد، وعندما خرج عطله شهيد أكثر بأن يجلس يحدثه في بعض الأمور، ويعتذر له ويعترف بخطئه وأنه نادم على ما فعله ويريد أن يتوب، ولكن لا يعرف كيف التوبة وقد أنزف دماء كثيرة وسحق أنفسًا وسلب محتوياتهم وأعضاءهم وقربها قرابين لكبيرهم المختفي وراء الظلال.

وكأن جمرًا أسفل كاشف كان يريد الفرار من أمامه والرجوع لأهله في أقرب وقت، فظل ينظر في ساعته بين الفينة والأخرى لعله يفهم، ولكن الآخر كان مكلفًا بأمر عليه فعله وهو تأخيره ساعة بعد خروجه من العملية فظل يماطله الحديث ويلقي على أسماعه بعض الكلمات الغريبة، وأنه كي يكفر عن ذنوبه وآثامه سيعترف أمام النيابة بكل شيء عندما يستجوب مرة أخرى أو ربما يعلن الحقائق كلها أمام القاضي في قاعة المحكمة ويزج في تلك القضية بأسماء جميع المدانين والمذنبين والمتورطين في تلك الجرائم وعلى رأسهم الدكتور الذي يدعي أنه رآه ولم يره، ولكنه رأى الذي رآه ويعد أحد رجاله وهو «الدكتور زكي زكي نبيل» صاحب أكبر مستشفى استثماري في الشرق الأوسط كله بفروعه المختلفة في مصر وبالتحديد في مدينة السادس من أكتوبر، وفي الرياض ولبنان والمغرب والسودان وغيرها من الدول.

وكان كاشف قد قام ببعض العمليات الجراحية في هذا المستشفى بتزكية من الدكتور شهيد النوري كخطوة في طريق انجراف كاشف في جرائمهم وغيهم.

وكان الدكتور زكي قد أعجب بكاشف وباجتهاده وذكائه وعبقريته الفذة فبعد مرور أكثر من شهرين على علاقتهم،

دعاه لعملهم في اجتماع ثلاثي مغلق بينه وبين كاشف والدكتور شهيد النوري، وكان رد كاشف على هذا الأمر عمليا وليس قولًا باللسان.

طلب إليهم أن يفكر في الموضوع خداعًا لهم، وظل أسبوعًا يبحث عن أدلة ضدهم أو مستندات تقوي قوله واتهاماته التي ستودي بالكثير، ولما رأى أن بين يديه بعض الأوراق جاءته في طرد غامض مغلف بغلاف أسود ألقي أمام باب شقته، عندما فتحه بعد تردد كبير منه ومن زوجته وجد فيه بعض الأوراق وفيها بعض الأسماء البارزة في الدولة تدينهم بشكل ما في بعض العمليات المشبوهة فيما يخص تجارة الأعضاء، وإن كانت هذه الأوراق لا تقطع بذلك، ولكنه وجدها، شيء أفضل من لا شيء، وذهب من فوره وبلغ عنهم السلطات المعنية في الدولة، فقامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن.

وظلوا يتربصون به ويخططون للانتقام العنيف منه، ليس بقتله، وإنما بقتل أسرته شر قتلة والتمثيل بهم، وأخذ محتوياتهم الداخلية بنفس أسلوبهم المعتاد في الانتقام والعمل، فيستفيدون ممن ينتقمون منه، لا يقتلونه ويريحونه وينتهي الأمر، كانوا يعتبرون البشر سواء من لهم به علاقة أو لا، سواء من سيقتصون منه وينتقمون أم لا كانوا يعتبرونه سلعة مدرة

أمـوالا طائلـة، لا يتخلـص منهـا بسـهولة، مبدأهـم أن يسـتفيدوا منـه علـى قـدر اسـتطاعتهم.

وهـذا مـا حصـل مـع كاشـف وأسـرته لـم يقتلـوه مباشـرة وينتهـي أمـره، بـل أرادوا أن يظـل حيّـا يعانـي ويـلات الفـراق، ويقاسـي أوجـاع نحرهـم وبقـر بطونهـم كلمـا تتـراءى أمامه مناظرهـم البشـعة والفظيعة وقـد بقـرت بطونهـم وفتحـت وسـلب كل مـا بداخلهـا «المعـدة والطحـال والكبـد والكليتـان والقلـب وغيـر ذلـك» بـل تعـدوا إلـى الـرأس وسـطوا علـى عيونهـم وألسـنتهم وأسـنانهم بـل ذهبـوا لمـا هـو أبعـد مـن ذلـك شـقوا رؤوسـهم نصفـين وانتهبـوا أمخاخهـم وتركوهـم أشـلاءً ممزقـةً مهـراةً مفتوحـةً بطونهـم مشـقوقة رؤوسـهم قـد انتـزع مـا فيهـا كمـا انتزعـت الرحمـة مـن قلـوب هـؤلاء.

لـم يشـفع لهـم بـكاء الصغـار ودموعهـم المحرقـة أو توسـلات أم مكلومـة بدموعهـا تناديهـم بتلـك الدمـوع بعدمـا كتمـوا صوتهـا بتلـك اللواصـق اللعينـة التـي ألحموهـا أفواههـم، لـم ينطقـوا حرفًـا، ولـم تأخذهـم رأفـة أو رحمـة لبكائهـا أو بـكاء الصغـار أو مـن أجـل شـيبة شـيخ كبيـر، أو دمـوع أرملـة بائسـة كأن قلوبهـم صخـور صمـاء أو كأنهـم بـلا قلـوب وألسـن أو أنهـم شـياطين في ثيـاب إنـس، فهـل يفعـل البشـر في بعضهـم مثـل هـذا الفعـل الشـنيع المنكـر الـذي تأبـاه الفطـر السـليمة وتمجـه القلـوب الرحيمـة وتجرمـه جميـع

الشرائع السماوية؟! حتى الأديان والقوانين الوضعية، والعقائد الوثنية، والمجوسية لا تقبل ذلك.

لم يدر في خلد كاشف أو يبدُ في باله أن انتقامهم سيكون بهذه البشاعة والفظاعة والنكارة، يفقد نسله وأسرته في لحظة واحدة بهذا القبح وبهذه الدمامة والشناعة.

عندما يفتح باب الشقة في صمت والبسمة تشع في وجهه ليجد بركة من الدماء في الصالة وأشلاء جثث أسرته متفرقة فوق تلك الدماء الحمراء من جراء تلك المذبحة المروعة.

تفهقت عيناه من الفزع، وازداد وجيب قلبه وزفير نفسه وشهيقه، وهو يجول بعينيه يمينًا ويسارًا قد اقتمه الهلع وسحفه الذعر وصحرته الفجيعة وصوحه ما رأى، قد نعته السماء صائحة، والأرض وهي تنوح، أتى الناعي بانهداد الطود المنيع وزوال الجبل الراسخ، محشته الرزية، دارت به الأرض وزلزلت من تحت قدميه، ومارت السماء مورًا وسارت الجبال سيرًا، حتى شوهدت الكواكب وكأنها تهافتت وترًا وشفعًا، ارتاع فؤاده، أجسادهم المفتتة قد فتت الأعضاد وفتتت الأكباد، قد تبين صدع قلبه ورشحت عيناه بالدم، فضت أعضاؤه وفاضت دماؤه، وامتلأ صدره ارتياعا، وترك بعقل مطحون ودمع مسفوح قد انهدت قواه فخر على الأرض مطلقًا صرخات الثكالي، ونواح النائحات على كليب:

- لاااااااااااااااا

جثا على ركبتيه ويداه ترتعشان، تغوصان في الدم يخرجهما وقد طليا وغلفا بدماء قانية، ينظر إلى يديه في احتراق ولوعات متتابعة يراهما قد احمرتا ثم يهوي بهما على خديه لاطمًا صافعًا خامشًا خديه مثل النوائح الخامشات خدودهن لهول مصابهن.

ثم يزحف على أربعة أعضاء يديه ورجليه نحو الأشلاء الممزقة والبطون المبقورة التي يراها فارغة قد نزف ما بداخلها وسحف ما فيها صارت كالطبلة خاوية، والرؤوس المشقوقة منزوعة العيون منخلعة الأمخاخ منتشلة الأسنان والألسن، نظر إليها بأجفان شرقة بالدموع ونيران مستعرة بين الأحشاء والأضلاع، تلمسهم بيديه ونفسه في شدة الانخزال والكمد وفقد الاصطبار والتحمل على ما لا يستطاع ذكره فكيف بمن رآه وتحمل ثقله القلب منذهل ودهش، وكل ما في جسده يرتجف، رفع نظره ويديه المحمرة بالدم إلى السماء وصاح بأعلى صوته:

- يارب

ثم خر فوق أشلائهم مصعقًا غائبًا عما حوله، لم يفق إلا بعد ثلاث ليال ولم يدر بالزلزال الذي أحدثته هذه الحادثة

في مصر كلها بل في العالم أجمع، قد أثارت الرعب والفزع والهلع في نفوس الآمنين وغير الآمنين انقلبت مصر رأسًا على عقب، وقامت الدنيا ولم تقعد، وتحركت جميع الأجهزة الأمنية للكشف عن ملابسات هذه الحادثة الشنيعة التي راح فيها ست من الضحايا امرأة وأولادها الثلاثة ورجل على المعاش وزوجته باستئصال أحشائهم وجز أعضائهم وانتزاعها من مقرها، فأصيب الناس بالهلع من هذا الأمر الغريب على المجتمع وخاضت أقلام وأصوات في ذلك، مرت أيام عديدة على الحادثة دون جدوى ودون تقدم في الوصول إلى الجناة العريقين في الإجرام، وجهت أصابع الاتهام إلى أناس كثيرين منهم كاشف أمين نفسه، ولكن بدا للنيابة أن ما حدث بعيد عن كاشف حيث كان موجودًا وقتها في المستشفى لإجراء عملية جراحية خطيرة، وقد أكد ذلك شهود عيان من العاملين في المستشفى.

قد أعاد هذا الأمر إلى الأذهان ما حدث منذ أسابيع في القضية المشهورة التي أثارها كاشف أمين بالتبليغ عن عدد من المتورطين في أمور مثل هذه ممن دعوه للانخراط معهم في سلكهم والسير على دربهم، ولكنه أبى، ووشى بهم وذكر من يعرفهم بأسمائهم وعلى رأسهم الدكتور زكي نبيل والدكتور شهيد النوري وغيرهما، وتم التحقيق فعلًا معهم باستثناء بعضٍ

منهم كالدكتور زكي الذي منعته وحصَّنته جنسيته الأمريكية من المثول أمام النيابة والتحقيق معه، وفي نهاية الأمر تم الإفراج عمن قبض عليه وتبرئتهم نهائيّا وظل بعضهم على ذمة القضية ومنهم شهيد النوري.

فبدا واضحًا أمام النيابة أن ما حدث لأسرة الدكتور كاشف إنما هو انتقام منه للوشاية بهم والتبليغ عنهم، وإن لم يكن لديهم دليل على ذلك، ولكنه أكد الشكوك بأن هذه القضية ليست وَهْمًا أو هواجس من نفس مريضة وإنما هي حقيقة ملموسة ومتفشية في جنبات المجتمع المصري منذ فترة كانت تعمل في الخفاء حتى أظهرها كاشف وأبانها أمام العالم كله، وقد ردوا على ذلك أشد الرد بجريمة شنعاء عوراء دميمة تقذفها العقول وتمجها الفطر وتقشعر لها الأبدان وتلين لها الأحجار بانتزاع قلبه قبل قلوبهم وأحشائه قبل أحشائهم، وقتل كل جميل فيه وتحويله من إنسان طبيعي خير إلى مسخ أو شيطان لا يعرف رحمة أو لينا أو طراوة.

ظل كاشف صامتًا ذاهلًا عما حوله غائبًا عن العالم تائهًا في متاهات الضلال سائخًا في غياهب الوجوم الذي استمر معه طيلة السنة التي قضاها في مصحة نفسية لحين رجوع عقله إليه مرة أخرى وعودته إلى طبيعته ومعاودة استجوابه

من جديد لمعرفة ملابسات تلك الجريمة الفظيعة أو إدلائه بما يعرفه وما يخفيه، ولكن كاشف لم يكن عنده شيء ليقوله حتى بعد أن أفاق وعادت إليه نفسه ليعيش جسدًا بلا روح أو قلب، فلم تفارقه حالات الذهول والوجوم التي كان يرفل فيها في المصحة النفسية بل ظلت ترافقه وتلازمه بعد ذلك، قل كلامه وطما صمته، وتسنمه الوله وتفهقه الهم وصهدته الهواجس والوساوس ومحشته الرغبة في الثأر ورمته بعيدًا في طرقاتهم بحثًا عمن أوصله إلى هذا الطريق وفعل بأسرته ما فعل.

●●●

(٤)

خرج من المصحة بعد انتهاء التحقيقات معه، وتبرئته مما نسب إليه وإرتاج باب القضية لفشل السلطات في الوصول إلى الجناة وفشلهم أيضًا الذريع في إثبات شيء على المتهمين القدامى، خرج إنسانا آخر زاهدًا في كل شيء صامتًا لا يتكلم إلا قليلًا، واجمًا غالب أحيانه، ذاهلًا عما حوله استقبله بعض أفراد أسرته المحبين له في مقدمتهم أخواه الأكبر منه «سيف ومختار»

وكان من ضمن المستقبلين له أيضا اثنان من أولاد عمه سليم، وابن عم والده وعمه من الرضاع «أبو العزائم» من أثرياء البلد وكبار تجارها، وبعض من أبناء أخواله وخالاته وآخرون، عدد كبير كان في استقباله يشدون من أزره ويهونون عنه ما ألم به، ويخففون عنه وطأة تلك الرزية والمصيبة التي هدت أركانه ونحلت جسمه وأكسفت باله، وكدحت آماله وأحالت حياته جحيمًا وسجيرًا.

حاولوا أخذه معهم إلى القرية ليكون وسطهم وبينهم يراعونه ويهتمون بشؤونه ويكونون بجواره كالجسد الواحد، ولكنه أبى إلا أن يبقى في شقته مع ذكرياته ليرى صورهم أمامه، حاولوا أن يثنوه بكل أساليب إقناعهم لينحرف عن هذا الأمر، ولكنه أبى إلا ذلك، ولما ألحوا عليه صرخ فيهم جميعا

وزرت عيناه وتوقدتا من الغضب فتركوه ورغبته بعد أن طلب منهم أخوه سيف أن لا يلحوا عليه ويدعوه واختياره الذي اختاره ثم هم بين الوقت والآخر سيأتون للاطمئنان عليه، ولكنه زعق فيهم وهب في وجوههم طاردًا إياهم جميعًا من شقته صارخًا وقد اسمدرت عيناه:

- اخرجوا، اخرجوا كلكم، لا أريدكم هنا ولا أريد أحدا منكم أن يطمئن علي، لا أريد أن أرى وجوهكم بعد اليوم.

هم يعلمون جيدًا مقدار الألم الذي يعانيه وثقل المصيبة التي ابتلي بها لذلك لم يلوموه ولم يعاتبوه، وقاموا يرقلون للخارج الواحد تلو الآخر حتى كان آخرهم أخوه سيف الذي تقشعت الرقة في جوانب بدنه وهز رأسه حسرة عليه، وخرج مرتجًا الباب خلفه، تاركًا إياه مسندًا وجهه إلى الجدار ويداه تضغطان بقوة على جانبي رأسه، وكأن صداعًا يفلقه ويفته ثم التفت ناظرًا مباشرة إلى موقع أشلائهم ودمائهم من الشقة وكأنه يرى الجثث مازالت على وضعها والدماء تتصبب منها وتلطخ أرضية الشقة بلونها الأحمر القانئ، فهرع نحوها وجثا على ركبتيه وفرد ذراعيه ومدهما يمسك تلك الأشلاء الممزقة، ثم يرفعها أمام عينيه مرشقًا بصره بها، والدماء تتقاطر من بين أصابعه، ودموعه تنفجر من مآقيه، ثم يهز رأسه ويغمض

عينيه في حسرة وألم وهو يضغط على شفتيه ثم يفتحهما وينظر إلى يديه فلا يرى شيئًا، لا أشلاء ولا دماء ولا أي شيء، فيقف مفزوعًا يتلفت حوله كالمأفون المهبول، ثم يطلق صرخة الصعق التي اعتاد على إطلاقها كثيرًا منذ تلك الحادثة، وقد صارت شعارًا له وأمارة عليه عرف بها في المصحة فكان أكثر شخص يصرخ ثم يصعق ويغيب عن الوعي بعدها مباشرة، ثم يفيق لوحده بعد مضي فترة.

كانوا في البداية يهرولون محاولين إفاقته خشية عليه، ولكنه لم يفق أبدًا في جميع تلك المرات إلا بمفرده عندما ينتهي صعقه وغشيه يقوم وكأن شيئًا لم يحدث، يتلفت حوله، حتى اعتادوا على ذلك، فكانوا يتركونه بعدما يصرخ ليواجه غشية الصعق ليفيق بعدها بساعة أو ساعتين، وربما أكثر أو أقل، وهو مذهول متفهقة عيناه عن فزع عظيم يتلفت حوله فلا يجد شيئًا في الشقة فتعاوده الآلام وتستعمره الذكريات وتتراءى أمامه مشاهد أسرته الممزقة مرة أخرى، فهب من فوره، وانسلت يطفر من فوق الدرج ليقابل من سيكون طريقه للوصول إلى بغيته ومعرفة الآمرين والمخططين لتلك الجريمة وعلى رأسهم الدكتور، ولم يكن أمامه سوى طريق واحد وهو الدكتور زكي نبيل الذي راوده قبل ذلك عن العمل معهم.

عندما رآه الدكتور زكي يدخل عليه بهذه الهيئة وهذا المنظر تصور أنه جاء ليقتله ويفتك به، فصرخ بحراسه الذين هبوا من كل حدب وصوب يلجمونه ويقيدونه بأيديهم، فقال وهو ينظر إليه:

ـ أنا لا أريد شرّا ، أنا أريدك في شيء مهم، صدقني، لا أريد شرّا

نظر إليه وإليهم ثم قال لهم:

ـ اتركوه، وابقوا في الخارج، قد أحتاج إليكم

وعندما خرجوا وأوصدوا الباب خلفهم، نظر إليه زكي بتمعن يتفحصه ثم قال:

ـ ماذا تريد يا كاشف؟

ابتسم كاشف على غير عادته وقال:

ـ نجلس أولًا ونشرب قهوة أو شايًا ثم نتحدث

وبعد احتساء كوب الشاي، رفع نظره إليه وجده يدقق النظر إليه ثم قال:

ـ ماذا تريد يادكتور كاشف؟

قال بدون تردد أو مقدمات:

ـ أريد أن أعمل معكم

لوحته الدهشة وقال:

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت أريد أن أعمل معكم، قبل ذلك طلبتم مني العمل معكم وقد رفضت والآن أريد أن أعمل معكم

ـ لكن ليس لدينا عمل لك، هذا كان قديمًا، أمّا الآن فليس لدينا أي عمل لك.

ـ أنت خائف مني؟

ضحك وقال مستهزئًا:

ـ أنا أخاف منك !! وما الذي يجعلني أخافك أو أخشاك؟!

ـ إذن لماذا لا تجعلني أعمل معكم؟

ـ مسألة العمل هذه ليست بيدي، من بيده ذلك هو الدكتور، لو بيدي ما كنت أجعلك لتعمل معنا طرفة عين ولو برهة واحدة، ولكننا كلنا هنا مأمورون ليس بأيدينا شيء.

ـ إذن أخبر الدكتور أني أريد العمل معكم من جديد، ولننس الماضي، مع أني لن أنسى أبدًا ما حدث لأسرتي، وهذا الذي

حدا بي إلى أن آتي للعمل معكم، أريد أن أنساهم للأبد وعملي معكم سينسيني ذلك، وهو الأنسب لي الآن، لأنه لم يعد لي قلب وأنتم تحتاجون لرجل مثلي في ذكائه وخبرته وأيضًا صار بلا قلب أو إحساس أو شعور، وهذا هو الأنسب لكم

نفض زكي وجهه بعينيه ثم حدق فيه ثم قال:

ـ كما قلت لك الأمر ليس في يدي، سأعرض طلبك هذا عليهم، وهم يقررون إذا كانوا يريدونك في العمل معهم أم لا؟

ـ شكرًا جزيلًا يا دكتور زكي، أرجوك قف بجواري، أنا أريد أن أخرج مما أنا فيه، وهذا العمل سينسيني كل شيء وينزعني من همي وحزني لقد فقدت زوجتي وأولادي، وقد كانوا كل حياتي.

وأعول بالبكاء وهمعت عيناه بالدمع الغزير، حتى رق له زكي ولم تكن من عادته الرقة أو اللين ولكنه رق لحاله لما يعلم من مقدار رزئه وعظم مصيبته وثقل بليته، فدنقس عينيه ثم رفعهما وقال:

ـ هون عليك يا دكتور كاشف سأخبرهم بطلبك، وهم يقررون حسب رؤيتهم، وأنا من جهتي سأوضح لهم حالك لعلهم يلطفون بك

انشطرت شفتا كاشف عن ابتسامة مبحوحة ومن داخله يتميز حنقًا وبغضًا ويتقطع مقتًا لهم أجمعين.

كان يعلم أنهم سيقبلون رغم قلقهم منه ومن رد فعله، ولكن هناك أسباب في ظنه جعلته يتوقع قبولهم واتفاقهم عليه، ومنها أن يكون تحت ناظرهم لا يغيب عنهم حتى يأمنوا شره وغائلته، وأيضًا لما يعرفونه من ذكائه الحاد وعبقريته الجراحية الفذة التي شهد لها الجميع، وما زاد على ذلك من قسوة قلبه وغلظته التي طبعت في قلبه وختمت على عقله ورشمت حياته كلها بطابع أسود دجوجي لا يعرف الرحمة ولا اللين ولا الرقة ولا العطف مع أي إنسان.

وكان كما توقع، فقد جاء الرد بعد ثلاثة أيام بالقبول المشروط على لسان الدكتور زكي بعدما أخذ الإذن بإعلامه بقبول طلبه ولكن بشرط بدا له أنه رفض مقنع أو تعجيز له لشكهم أنه قد يرفض هذا الشرط ولا يقبله

ولكن جاء رده مخيبًا لآمالهم مرجفا لقلوبهم ومحيرًا لعقولهم فلم يخطر في بالهم كلهم وبالذات الدكتور زكي أنه سيقبل بهذا الشرط الشنيع الذي اشترطه كبيرهم في مصر، وهو يعلم أنه سيقبل بهذا الشرط ولذلك اشترطه، فكان عنده شك يقترب من اليقين أن كاشفًا سيقبل بالأمر كله دون تردد، ربما من أجل أنه يريد الانتقام منهم جميعًا والوصول إلى

كبيرهم كما شك في ذلك الدكتور، وخال أن اقترابه منهم من أجل ذلك، ولكنه لم يكن يهتم بهذا الشك حتى لو كان حقيقيّا لأنه يعلم أنه لن يصل إليه ولن يستطيع أن يفعل شيئًا لما عنده من التحصينات والاستعدادات اللازمة لأي ظرف طارئ، ولأنه سيوضع تحت اختبار شديد منهم ثم القضاء عليه في الوقت المحدد سلفًا من قبله، فيكون كما شك كاشف تحت أعينهم لا يزيغ ولا يغيب عنهم طرفة عين، والاستفادة منه ومن خبراته وذكائه واجتهاده وقسوته أكبر قدر ممكن من الوقت، ومن ثم إذا أثبت جدارته وتفوقه وعدم فشله في أي عملية تسند إليه أو يقوم بها حتى لو لم يكن له ذنب في فشلها ولكن يكفي اشتراكه فيها، إذا نجح فيما يوكل إليه ولم يفشل في شيء ربما يصعد ويعلو وترتفع مكانته وربما يموت ويقضى عليه، كل هذا مرهون برأي الدكتور إما أن يقربه ويدنيه إذا أثبت حسن نيته وإخلاصه واجتهاده، وإمّا أن يأمر بأن يفعل به كما فعل بزوجته وأولاده.

فوضع في سلسلة عظيمة وعديدة من الاختبارات الدميمة والشنيعة والتي بدأت بشرط فظيع لقبوله في منظمتهم تحت التدريب والتمرين والاختبار شرط تقشعر له الأبدان، وتسقط له الحبالى وتتهادى الجبال حجرًا حجرًا وهو أن يأتي لهم بسبع جثث من عائلته، إما أن يأتي بجثثهم كاملة وإما أن يأتي

بأعضائهم، الأمر مخول إليه، المهم أن يأتي لهم بسبع جثث من عائلته، وسوف يكون معه ناس يراقبونه ويساعدونه في ذلك حتى يتأكدوا من أن ما أحضره إنما هو من عائلته وليس أي شخص، فلا يظن أنهم سيتركونه هملًا، قد أوقفه الدكتور زكي على كل شيء حتى يتأكد أنه تحت عيونهم ليل نهار ولا يغيب عنهم حتى لا تسول له نفسه بشيء وهذا من إرهابهم له ظانين أنه ممن يرهب أو يخاف، ولكن بعد ما حدث لأسرته قد طلق الخوف ونزعه من قلبه وصار بدون قلب أو عقل صار وحشًا لا يتورع عن فعل أي شيء حتى يصل إلى مبتغاه، فقبل شرطهم وأخذ يهيئ نفسه ويعد عدته لهذا الأمر.

●●●

(٥)

أصبح الآن كاشف أمين على الطريق الذي اصطفاه لنفسه يدرج فيه، وينساب كما تنساب الحية نحو فريستها، رجع إلى الموطن ومقر الأجداد في تلك القرية الكئيبة الراقدة في حضن تل صغير من أكوام الزبالات والقمامات التي تجمع فترص هناك حتى صارت مأوى للكلاب والضوال والذئاب والزواحف والحشرات التي تجمعت عليها تلتهم ما تبقى منها وتشتم تلك الروائح الكريهة التي اختلطت بأرواح الموتى، فلم تعد تفرق بين روائح القمامة وروائح الموتى.

لقد تعود قاطنوها على تلك الروائح حتى صارت في دمائهم، فلم يعد يشغلوا أنفسهم بمحاربة تلك الروائح التي ملوا وسئموا من كثرة الشكايات والاعتراضات إلى الدولة ولكن دون جدوى أو فائدة، فظل الحال على ما هو عليه حتى اعتادوا على هذا الأمر، ونسوه تمامًا ولم يعد يشغلوا بالهم أو يفكروا في هذا الأمر بالمرة.

ولم يكن ذلك التل وحده هو الذي يحيط بالمقابر فقط، فكان هناك ترعة عتيقة متروكة ذات مياه ضحلة شبه خضراء من آثار القاذورات والحشائش النابتة فيها، تمر من الجهة الجنوبية للمقابر القابعة في مؤخرة القرية حيث تكثر أشجار

الجميز والتوت والكافور والصفصاف البلدي بأوراقه الخضراء الكثيفة ذات الشكل الرمحي، وكأنها غابة صغيرة من النباتات والأشجار في تلك المنطقة المجهولة من العالم، وفي قرية لا يعلم عنها أحد الكثير، بل ربما يسمع اسمها لأول مرة لدى الكثيرين، ومن سمع عنها كان يخشاها بل ترتجف أضلاعه ويرتج قلبه وتستك مسامعه عندما يسمع اسمها لما عرف عنها من حكايات وأساطير فيما يخص الجن والعفاريت والسحرة والمشعوذين، ومن أشهرهم كان «الغربي الساحر» الذي لفظته الأرض لما دفن فيها، ولم تقبل بقعة جسده الأسود، فما كان منهم إلا أن أحرقوه وذروا رفاته ورماده في ترعة المقابر العتيقة، ومن يومها لم ينتفعوا بمائها ولا بأسماكها، وصارت جيفة نتنة ذات مياه تأج نتانة وملوحة، وأصبحت مأوى للديدان والثعابين والعقارب والحشرات الضارة والقوارض، حتى أعتى المجرمين وأبناء الليل والقتلة والفارين من القانون لا يجرؤون على الاقتراب من هذا المكان فضلًا عن سكناه والقبوع فيه.

استقبلوه في قريته استقبالًا حارًّا مفعمًا بالبهجة والسعادة، لم يصدقوا عيونهم وهم يرونه بينهم يطلب منهم أن يعيش ما تبقى من حياته معهم، فرحوا وهم لا يعلمون خباياه وما يخفيه عنهم مما عزم على فعله من الانقضاض على جثثهم، وهتك حرماتهم واستئصال شأفتهم.

ظل يدور على وجوههم يستكشفها متصفحًا إياها وهم يصافحونه ويحتضنونه، وهو صامت واجم ذاهل عنهم، يفكر في ضحاياه وهم بين ذراعيه، لا يدرون ولا يدري بمن سيبدأ؟

كانوا أكثر من عشرة رجال وخمس نسوة بينهن فتاتان عشرينيتان، إحداهما مخطوبة لابن عمها، والثانية لم تنزل بصرها عن كاشف، ظلت محدقة فيه معلقة بصرها عليه ودقات قلبها في ازدياد مستمر، عندما علمت أن ابن عمها من الرضاع سيأتي بعد يوم لم تنم ليلتها ظلت تفكر فيه وتحلم بالقرب منه، فرغم فارق السن بينهما الذي يربو على عشرين سنة إلا أنها أحبته منذ أن درجت عيناها على معرفتها به وما نسج حوله من حكايات وبطولات من قبل أهله الذين يفتخرون به دائما، فيثنون عليه كثيرًا ولا يكاد تفتر ألسنتهم عن اللهج باسمه، فابنهم البار بهم دكتور مشهور، أجرى عمليات جراحية خطيرة لأناس ذوي وجاهة ومكانات مرموقة فعرف بينهم وأصبح واحدًا منهم، وكرم من داخل مصر وخارجها، وصار حديث العامة والخاصة في مصر وداخلها، واستعمرت صوره مواضع كثيرة من الصحف والمجلات والبرامج العربية والأجنبية ردحًا من الزمن قبل أن يصاب بمصابه، وكان لا يذكر اسمه إلا مقرونًا بلقب « الجراح العالمي كاشف أمين»

فصار مفخرة العرب عامة ومصر خاصة وأهله وذويه خاصة الخاصة تعلقت به قلوب الكثير وأعينهم لما يتسم به من حسن خلق ورقة مشاعر وعقل كبير راق، وصدر رحيب وسع الجميع، وأيد سخية سعت كثيرًا في طرق الخير، ولم ينس بلده وأهله من خيره، فأغدق عليهم أموالًا كثيرة وجعل للفقراء منهم والمحتاجين رواتب شهرية، فصار معشوقهم ومحبوبهم، سكن خالصة قلوبهم، وأرتجوا عليه جفونهم ورموشهم وصار فارس أحلام الكثيرات من أهل بلدته ومن مصر كلها.

فقد كان فوق ما يمتاز به من حسن خلق، كان وسيمًا جسيمًا، طويلًا ذا وجه زاهر وأنف محدب مستو، وشعر أسود لامع، وشارب خفيف، من يراه لا يمنحه أكثر من عشرين سنة، فقد كان يرفل في السعادة مع أسرته الصغيرة إلى أن صرعتهم الحتوف، وقتلوا أبشع قتلة وأشنعها، وتركوه يقاسي الآلام وذكريات السنين، كثيرًا ما تمنى لو كان معهم يلاقي نفس مصيرهم، لكنه يعلم أنهم يريدونه حيّا يعذب لا ميتًا، ولو كانوا يريدون موته لمات منذ زمن منذ أن رفض عرضهم وبعد أن وشى بهم بمساعدة مجهولة لا يعلم مصدرها ألقيت أمام باب شقته في وقت غامض، فكان يعض أنامله من الندم لأنه أمسك بهذه الأوراق وسار في طريقه الذي جر عليه ويلات كاللعنات تلاحقه أينما حل أو ارتحل.

صار أليف وحشة يعاني الصواعق والذكريات لما تتراءى له صورهم وهم أشلاء يمرغون في دمائهم حتى وهو بينهم تراءت صورهم في ظل هذا الاستقبال الحافل.

وعندما أنهوا استقبالهم البهيج، وكان آخر من صافحه «فتنة» تلك الفتاة التي شغفت به وتعلق به قلبها منذ أن بلغت وتحركت مشاعرها ونبض قلبها بالحب، أشاح بوجهه عنها، ولم يبادلها إلا نظرات عابرة، فهم ما في قلب هذه الفتاة تجاهه، فأغمض عينيه وهي تصافحه، فتحهما لما سمع قرع نعالهم يدلف نحو باب البيت، ومع أنه أغمضهما كي لا يراها ولكنه لما فتحهما كانت هي آخر من خرج، التفتت إليه وهي مبتسمة وأشارت إليه بيدها ملوحة له تودعه، ثم أغلقت الباب وهي متثرة بصرها إياه

تنفس نفسًا عميقًا شعر بزفراته الحارة تلفح وجهه، ثم أدار بعينيه في جنبات بيت والده العتيق الذي لم يدخله منذ أكثر من عشر سنوات خلت، منذ زواجه، فقد أقام زفافه نزولًا على رغبة عمه بين أهله وأقربائه وأصحابه في قريته قبل أن ينشغل عنهم بحياته وأسرته وسفراته خارج البلاد لإجراء عمليات جراحية أو حضور مؤتمرات أو إلقاء محاضرات أو نزهات مع أسرته، كانت حياته غاصة بالعمل الذي يحبه مفعمة بالاهتمام

والحب من أجل أسرته التي يعشقها، وإن كان في خضم ذلك لم ينس بلده وأهله فقد كانوا جزءًا منه، لم يتأخر ولم يتوان في مساعدتهم، كان عونًا لهم، لم يتباطأ في طلب لأحد، أجرى لمن يحتاج منهم عمليات دون أي تكلفة منهم، وأوصى كثيرًا من الأطباء ممن يعرفهم على كثير منهم ممن يحتاجون المساعدة أو العون، وعاد هذه المرة ليس من أجل أن يقدم لهم خدماته أو يستقر معهم بقية حياته كما أوهمهم وإنما جاء ليغتالهم وينتهب جثثهم ويجز أعضاءهم، ويخوخ بنيانهم، ويتركهم ذكرى لذويهم كما صارت زوجته وأطفاله ذكرى له.

نفض الدار بعينيه في عجالة حتى علق بصره بمقام والده الأخضر وهو يتوسط صحن الدار الواسع وحوله تلك السياج الحديدية، كثيرًا ما كان يفكر في غموض هذا المقام والأسرار التي يحتويها وشعوره العارم بأن هذا المقام تكتنفه دفائن وحكاوي لم يسمعها بعد ولاسيما فيما يخص آخر عمر والده الذي لا يعرف عنه شيئًا إلا بعض الروايات التي يشك في صحتها، لم يطل النظر إليه كما لم يطل التفكير في خباياه، فطفق يمسح الدار الواسعة بعينيه، وأخذت ذكريات الطفولة تتراءى أمام عينيه في كل ركن من أركانها وفي كل زاوية من زواياها، هنا جرى ولعب مع أخويه ومن فوق درج هذا السلم

انطرح أرضًا فوقع فانكسرت رجله وهو ابن سبع سنوات عندما دفعه أخوه الأكبر منه، وفي هذه الغرفة التي جمعت بينه وبين أقرب أخويه إلى قلبه أخيه سيف، كانا كثيرًا ما يتسامران ويسران أسرارهما لبعضهما .

أسف النظر إلى مكتبه الذي كان يكتب واجباته عليه وهو في الابتدائية والإعدادية، ورأى كتبه وكراريسه وأقلامه أمامه، دار بعينيه في سقفها يتصفح محتوياتها في عجالة ثم وقف بعينيه على شباكها المطل على جنينة الدار الواسعة، رقل نحوه، وفتح النافذة وأطل منها على أشجارها الناشفة وأوراقها الذابلة وأغصانها المدلاة في تكسر، وقد صارت خرابًا موحشة، ينفر منها من يراها قد سكنتها الغربان والحدآن والسحالي والفئران والثعابين والكلاب الضالة وبعض المجذوبين والدراويش ومعدومي المأوى رأى أحدهم يفترش الأرض نائمًا تحت شجرة زيتون ذابلة وبجواره كلب رأسه حذاء رأسه وهما يغطان في نومهما .

لم يتعجب أو يندهش، وحجل نحو سريره المحفوف بالأغبرة والأتربة وجثم على طرف مؤخرته واضعًا رأسه بين يديه ضاغطًا بشدة عليه مطلقًا صرخة مدوية أيقظت النائم والكلب الرابض تحت الشجرة فتلفت حوله فلم ير شيئًا فعاد إلى نومه من جديد .

لـم يفـق كاشـف بعـد ممـا هـو فيـه، ولـم ينـس أو يشـف، فصورهـم مازالـت تتقاذفـه وترمـي بـه بعيـدًا حيـث الصرخـات المدويـة التـي تنبعـث منـه بـين اللحظـة والأخـرى، والحسـرات والأحـزان التـي تشـق بدنـه وتبلـي تفكيـره وعقلـه وتزيـد مـوات قلبـه.

جثم في بيت والـده الشيخ أمـين الضحـى لـم يخـرج منـه منـذ أن وصـل ينتظـر أولـى الجثـث، وهـو يقـول لنفسـه:

ـ يا ترى من ستكون أولى تلك الجثث؟

●●●

(٦)

جلس كاشف ينتظر أول موتاهم ممن ينتسب إلى آل الضحى سواء من الأصول أو الفروع أو الحواشي وقد طال الانتظار في نظره مر أسبوعان ولم يمت أحد من عائلته، كان هناك ميتان ليسا من أهله وإنما غريبان عنه ولكنهما من أهل البلدة، وقد كانت فرصة سانحة له ليأتي بجثتيهما ولكن الأوامر جاءت إليه بالرفض، فالجثث المطلوبة هي لأهله ولأقربائه، فأخذ يبحث عمن هو مريض من عائلته ويسأل عنهم بغية أن يزورهم، فعرف أن هناك من هو مريض منهم فطلب أن يزورهم ليطمئن عليهم.

كان هناك على مشارف الموت عمه الأكبر «سليم» الذي قد بلغ التسعين وصار حليف سرير تغص فيه الأمراض وتنهشه الأوجاع، أنشأ يرمقه بنظرات الحسرة وهو يفكر في هذا الجسد البالي كيف سينتفعون به وقد ضمر جسده وشحب وجهه، وطفرت عروقه من أنحاء متفرقة من جسده البالي، وأي أعضاء في هذا ستكون سليمة؟ هذا الجسد وهذه الملامح لا تنم عن أعضاء سليمة غير هذا اللسان الذي لا ينفك عن ذكر الله وحمده

ـ ربما هم يختبرون إخلاصي وطاعتي لهم، وإلا كيف سيستفيدون من هذا؟ كما أنهم تركوا الخيار لي إما أن آتي لهم بجثث أو بأعضاء حية فكيف سينتفعون بجثث أرمت ولاسيما تلك الأجساد البالية؟

لم ينفك عن حديث نفسه الغائر حتى قده ووشر تفكيره دخول ابنة عمه «ناهد» وفي يدها صنية شاي، يتبعها ابنها الوحيد ذو السبع سنوات، وقف لها محييا ومصافحًا يدها الطرية بالرغم من تجاوزها الخمسين بقليل، لم يحس بعرق بارز ولا بتجاعيد أو التواءات، بل رأى نضارة وصفاء وبهاء يغلفها من كل جانب كأنها لم تناهز العشرين، ذهل من جمالها وتاه في بريقه، وكأن يده تغوص في طراوة كفها ولينها، انشقت شفتاه عن ابتسامة ردّا على ابتسامتها وهي تقول:

ـ كيف حالك يا دكتور كاشف؟ لم نرك منذ دهر طويل؟

تفهقت ابتسامته محاولًا التذكر وهو يقول:

ـ الحمد للّه، أنت.........

ـ كما توقعت، سأكون في طابور المنسيين، أنا ابنة عمك ناهد

تربعت ابتسامته على عرش وجهه وبات كالطائر يتحفز للطيران ثم قال كأنه تذكرها :

ـ ناهد !! أنا آسف جدًا لأني لم أتذكرك مباشرة

ـ لا يهمك يا دكتور، فنحن نقدر عملك وشغلك، ونشعر بما تشعر به من جراء ما حدث لزو....

انتبهت لكلامها فوضعت يدها على فمها قد ابتلت ملابسها من الخجل ثم قالت:

ـ متأسفة جدا، أعتذر بشدة

اعتدل رأسه من انخفاضة مباغتة من كلامها ثم قال:

ـ لا تعتذري يا ناهد، لم يحدث شيء

ثم نظر للطفل الصغير وابتسم وقال:

ـ أكيد هذا حفيدك.

نظرت إلى طفلها الجاثم على حافة السرير عند قدمي والدها يلعب بسيارة حمراء صغيرة، ثم نظرت لأبيها المنغرق في سعاله ثم عادت إليه مرة أخرى بعد جولة من النظرات، وقالت بلسان مبتهج أسفله وجع شديد وخوف، قالت:

ـ هذا ابني «فاروق»

- ابنك؟!

- نعم، هذا ابني الوحيد

- كيف هذا؟ أنا أعلم أنك تزوجت من فترة طويلة، وقد حضرت عرسك وأنا صغير.

- هذه حقيقة، تزوجت وعمري سبع عشرة سنة، ولو كنت أنجبت من وقتها بنتًا أو حتى صبيًّا لكان هذا من أحفادي، ولكن اللّه لم يأذن بإنجابي إلا بعد فترة طويلة من زواجي، وبعدما أنهكنا من الذهاب إلى الأطباء وإجراء العمليات وإنفاق أموال طائلة، حتى أذن اللّه، وجاء فاروق إلى الوجود يملأ حياتي وحياة أبيه الذي تمسك بي لأقصى درجة

- الحمد للّه على كل شيء، وأين زوجك الآن؟

- نادر في الكويت، لذلك أنا هنا أعيش مع أبي، أراعيه وأعتني به فأنت ترى ما وصل إليه من تعب ومرض أجهده واشتف ما فيه حتى صار عظاما مخوخة كما ترى، وأيضًا نادر أصر على وجودي بجواره كي يطمئن علي وعلى فاروق، فهو يخشى علينا أن نكون بمفردنا، لكن هنا سأكون بجوار والدي وبين إخوتي.

- نادر، أظنني أتذكره، والده كان العمدة صحيح؟

- كان، انتهت العمدية من البلد بعدما رفض نادر أن يترك سفره ويحل محل والده على كرسي العمدية

- أكيد أنه يكسب جيدًا من سفره لذلك رفض العمدية

- هو ليس بحاجة للسفر وكم من مرة قلت له أن يترك السفر ويمكث معنا فما عنده ليس قليلًا حتى قبل السفر، فوالده ترك له ولأخيه خمسة عشر فدانا، ولكنه يأبى إلا أن يكون مغتربًا بحجة أن يؤمن لي ولفاروق مستقبلًا جيدا، مع أنه تجاوز الخامسة والخمسين، ولم يعد في فتوته وشبابه، فلا أدري ماذا أفعل معه؟

- كل شيء مقدر ومكتوب يا ناهد، لكن... ذكرتني بأخيه، أظن اسمه..... اسمه....

وأخذ يتذكره ولكنه فشل فعاونته في العثور على اسمه وقالت مبتسمة:

- ناجي

- ناجـي !! كان زميلـي في مدرسـة الشـهيد «محمـود سـمير» الابتدائيـة وظل معي حتـى تجاوزنـا الثانويـة مـن بعدهـا لـم أره، دخلـت أنـا كليـة الطـب، وأظنـه دخـل كليـة.... كليـة الشـرطة؟

- ناجي دخل كلية الحربية وهو الآن عقيد في الجيش

- أشتاق لرؤيته جداً

- هـو أكيـد سـيأتي لرؤيـة أخيـه في إجازتـه السـنوية بعـد شـهر تقريبـا

- إذن لي لقاء معه

- هل ستظل هنا فترة طويلة؟

- لا أدري، لكنـي لـم أعـد أريـد الحيـاة في القاهـرة، أريـد أن أكـون بينكـم هنـا

- سنزداد شرفًا ورفعة بوجودك معنا يا ابن عمي

ابتسم لها والتفت لفاروق ونادى عليه:

- تعال يا فاروق

قالت ناهد:

- اسـمع كلام خالـك الدكتـور كاشـف يـا فـاروق، يـارب أراك مثلـه طبيبًـا كبيـرًا

تقدم فاروق ممسكًا بسيارته الحمراء، ينظر إلى يد كاشف الممتدة له، تقول أمه:

ـ صافح خالك يا فاروق

يمد يده اليسرى لانشغال اليمنى، فيقول له:

ـ المصافحة تكون باليمنى يا فاروق

ثم يحتضنه ويقبله ويخرج من جيب بنطاله ورقة فئة مائة جنيه، ويقول:

ـ خذ اشتر لك حلوى أو ما تريد

قالت ناهد:

ـ ليس له لزوم يا دكتور

ـ اطلبي منه أن يأخذها، أظنه مترددًا أو خائفًا منك

ـ خذ من خالك يا فاروق

يمد فاروق يده ويأخذ المئة جنيه وهو ينظر لوجه كاشف، فيجده يسف النظر إليه وهو مبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة منغمسة في الغدر، فلم تكن نظراته له عادية، كان يتصفحه من رأسه لأخمص قدميه، كأنه سيفترسه بعينيه، لم يكن إنسانًا

وقتها، كان وحشًا بمخالب وأنياب بلا قلب أو مشاعر، قد يفترس ابنه أو أخيه أو أي أحد من عشيرته وقبيلته

كان لقاء خاطفًا بينهما، لم يتجاوز خمس عشرة دقيقة خرج منه برغبة غير الرغبة، قد يطول عمر عمه أكثر من ذلك، وحتى لو مات الآن لن يفيده شيئًا فربما يرفضون أجزاءه ويمجونها فيشعر بخيبة وفشل ذريع ويتحتم عليه أن يحضر غيره، بل ربما لا يجد فيه شيئًا سليمًا، رجل جاوز التسعين تتناوبه أمراض شتى حتى صار شورى بين سبعة منها لا تفارقه

ولن يستطيع خطفه أو سرقته فهو لا يفارق فراشه ومهاده، فكيف يخرج بهذا الجسد المتهتك، فلربما تكسر منه لو حاول ذلك، وبأي حجة يخرج من هناك به؟

ربما الأيسر له ما تهادى إلى عقله المنحرف وتفكيره الفاسد وما تراءى في مخيلته كظلال شيطان مريد يؤزه أزا، قد يكون قد تجرد من صفاته البشرية وتحول لشيطان لعين رجيم، حتى هو لا يدري؟ لم يعد يشعر بنفسه الحقيقية هل مازال إنسيّا ذا مشاعر وأحاسيس وعواطف أم أنه قد مسخ إلى كائن لا يعرف كنهه ولا يعرف ما يسكنه؟

كان قبل الحادثة إنسانًا خيرًا طيبًا ذا قلب رحيم وفؤاد رقيق وروح صافية هذا ما يتيقنه ويعلمه علم اليقين، لكن بعدها لا يدري ماذا حدث له؟ لما أفاق من غيبوبته وصمته الطويل وذهوله عما حوله وجد نفسه إنسانًا آخر يحرك ولا يتحرك من ذاته كأنه دمية أو إنسان آلي كأنه شيطان أو جان في جسد إنسان، هل من الممكن أن يتحول الجسد البشري إلى شيطان مريد بل قد يكون أشرس وأفتك منه حتى يصير الشيطان من جنده؟ بل ربما يعجز عما يفعله الإنسي؟ وهل ما حدث لزوجته وأولاده كفيل وداع لأن يتحول لمسخ بلا رأفة أو رحمة أو أي ملمح من ملامح الإنسانية؟

أسئلة دارت في خلده كثيرًا ماجت في عقله وامتطته حتى خرجت به إلى حيزهم حتى صار منهم في كثير من أحواله برز ذلك من أفعاله الشنيعة وأعماله الدميمة التي طفحت في جو القرية الهادئة، في أركانها وبين جنباتها باختفاء الطفل الصغير «فاروق» حيلة أبيه وأمه، لا يمتلكان غيره بعد تعب وعناء ومشقة وأوجاع سنين طويلة وتضرعات بالليل والنهار ودعوات كانت تشق عنان السماء، وأموال طائلة أنفقت في عمليات سبقتها زيارات كثيرة لدجالين وسواحر ونفاثات ومشعوذين من كل جانب وفي كل ناحية حتى استنزفت أموالهم وضاعت سنوات ثقيلة على قلوبهم هباء وراء شرور وآثام.

اتبعوا كل طريق إلى ذلك، الحسن والسيء الخير والشر النافع والضار حتى أتى فرج الله سبحانه وتعالى وشملتهم عنايته ولطفه ومنّ عليهم بهذا الطفل النضر الذي غصت حياتهم به فرحة وطمت أملًا وزخرت صدورهم انشراحًا بعدما ضاقت من اليأس والقنوط.

لم يخطر في أوهامهم فضلًا عن بالهم وأحلامهم أنه سيأتي يوم ويفجعون فيه، تعمهم سحائب رعب وغمائم جزع تعمقهم باختفاء فاروق المفاجئ عندما كان يلعب أمام منزل جده في الهاجرة دون أن يراه أحد من الخلائق أو يشعر به.

جاءهم خبر عز على مسامعهم، وأثر في قلوبهم، واستكت آذانهم، وارتجفت قلوبهم، تكاد الحبالى أن تسقط من سماعه، والسكارى تصحو له انهدت الرواسي، وانفلقت الأحجار القاسية، وارتجت الأرض وزلزلت من تحت أقدامهم، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم وطاحت نفوسهم وغابت في شناعته، لم تلتق شفاههم بذكره، ولم تثبت خواطرهم، وتقوست ظهورهم، واصطكت ركبهم ولم تعد أقدامهم قادرة على حمل تلك الأجساد المتحللة، فهوت ناهد على الأرض كحجر حطه السيل من عل، خرت صارخة على فقد ولدها وحيدها حلمها الذي جاء متأخرًا، دخلت في غيبوبة كزوجها الذي هرع على

الخبـر المصطلـم يحـث ركابـه عائـدًا مـن غربتـه ليلاقـي الفجيعـة والمصيبـة الشـنيعة، نفـض البيـت بعينيـه فلـم يجـد سـوى سـواد تتشـح بـه نسـاء البلـدة وهـن منتشـرات متفرقـات متراصـات في الحديقـة وفي الصالـة، لـم يتمالـك نفسـه، كان الخبـر حقيقيًّـا، طيلـة الطريـق كان يزايلـه شـيء مـن الشـك أو الوهـم كأنـه كابـوس يدفعـه عـن عاتقـه ويزيحـه عـن كاهلـه بهزهـزات مـن رأسـه يمينًـا ويسـارًا، رافضًـا الفكـرة مـن الأسـاس، يريـد أن يصـرخ لافظًـا تلـك الوسـاوس والأوهـام والهواجـس والخواطـر التـي يمليهـا عليـه شـيطانه وتسـولها لـه نفسـه، كتـم آلامـه وأشـجانه وانتظـر بجمـر يغلـي في صـدره حتـى وصـل إليهـم فوجـد الأمـر حقيقـة، ارتجـس قلبـه وانخلـع فـؤاده بمجـرد دخولـه وسـماعه صـراخ النسـاء كأنهـن ثكالـى بمجـرد رؤيتـه يهـل عليهـم بشـنطة صغيـرة في يـده.

تسقط الشنطة من يده مع أولى خطواته داخل الحديقة متجهًا نحو سلم البيت الواسع، تتعالى أصوات هؤلاء النساء نائحات نادبات، فـاروق الـذي جـاء بعـد عنـاء طويـل وبحـث شـاق وسـعي وجـري علـى الأطبـاء هنـا وهنـاك وأمـوال كثيـرة أهـدرت في سـبيل ذلـك.

كان حلمًا خيالًا طيفًا لاح في أفق حياتهم في وقت كان الموت أقـرب إليهـم مـن دمائهـم، لـم يجـل في خلـد والـده ووالدتـه وباقـي أسـرته مـن الجانبـين أنـه سـيأتي مـا تتهـد لـه الأصـلاب وتطيـر

الألباب من النازلة الهائلة والفجيعة الفظيعة، مصيبة هضت وهاضت وأطالت الارتفاع والانخفاض، فضت أعضاءهم ورجَّت دماءهم، وملأت صدروهم ارتياعًا ونكأت قلوبهم وجرحتها وأحرت أكبادهم، لم يتمالك نفسه وهو يدور ببصره هنا وهناك لاحت له أيدي النائحات والنادبات بمناديلهن وطرحهن يمزقنها ويشققن جيوبهن، فخرَّ مصعوقًا على الأرض مثل زوجته التي لم تتحمل خمس دقائق إثر سماعها الخبر الشنيع، انقطع صوتها، وتصلبت حدقتا عينيها واصطلمت بالأرض كجدار انقض من طول السنين جاءت ساعته، انغرقت في غيبوبة من وقتها حتى قدم زوجها هو الآخر واصطلم بالواقع وانغرق هو الآخر في غيبوبة مجاورًا لها على سرير في مستشفى المركز الصغير.

مرت ثلاثة أيام على حالهما هذا، والبلدة كلها رجالًا ونساء صبيانًا وصبايا ينخرون الأرض نخرًا بحثًا عن فاروق انتشروا وتفرقوا كالجراد المبثوث مع قوات الأمن في كل شبر من البلدة وما يجاورها من بلدان ومناطق، دون جدوى، كأن الأرض انشقت وابتلعته، لا أثر له ولا لمن اختطفه.

كانت هناك بعض الآثار والعلامات لوح بها بعض الصبيان في عمر العشر سنوات الذين كانوا يقفزون من فوق الكوبري

غاطسين في الترعة برؤية سيارة سوداء حتى زجاجها بلونها تتجه نحو المقابر قبيل المغرب ثم اختفت مع العتمة وخلو الطرق من الأرجل والأقدام.

ربما هي لا أحد يعلم ، من سلمه لهم ؟ لا أحد يعلم، كان بينهم يبحث معهم عنه يذرف سيولًا من الدموع كالحمل الوديع وبداخله تمساح دميم شيطان رجيم، لم يشك أحد فيه طرفة عين، فهم يعلمون تاريخه وسيرته الحسنة كما أنهم يشفقون عليه ويرأفون بحالته بعد فقده الأليم، فكان أبعدهم من تسرب نذر يسير من الشك فيه، ولكنه لم يهرب من التحقيق معه كباقي أفراد القرية، حيث أحيطوا بسيول من الأسئلة من جهات التحقيق التي أصابها التعب والنصب دون فائدة، لا أحد منهم يعلم كيف اختفى ومتى ومن اختطفه؟

شهر والحال هو الحال، ومازالت أمه تتناوبها الغيبوبة تصحو تنجرف في صراخ وصياح وعويل طويل، فتحقن بالمهدئات فتدخل مرة أخرى في غيبوبتها التي لازمتها منذ هذه البلية، استفاق زوجها بعد أيام، وليته ظل في غيبوبته، انسلخ رجلًا آخر شاحب اللون مصفر الوجه، ذاهل العينين يجول بخطوات ثقيلة بقلب دهش، وبنان مرتجز، وجزع يتضاعف ولا يضعف، شارد البال مبلبل الفكر، لا يعي ما حوله، ولا يأبه بمن

يحيطونـه بكنفهـم ورعايتهـم مـن أهلـه وأهـل زوجتـه، يتصفحهـم بعينيـه ﮲في صمت طويل ووجـوم ثابت، يحـدج فيـه كاشـف يستشـفه ويستكشـف عينيـه لعلـه يـرى فيهمـا لومًـا أو عتابًـا أو تجريمًـا، لـم تتـزل دمعـة مـن عينيهمـا، لا مـن عينـي نـادر الغائـب عمـن حولـه، ولا مـن عينـي كاشـف المشـارك ﮲في أحزانهـم بملامـح وجهـه الحزينـة، وبسـعيه معهـم إلـى كبـار رجـال الدولـة ممـن كان يعـرف بعضهـم، وبتحريـك أمـر ابنـه ﮲في الصحـف والجرائـد والمجـلات بحثًـا عنـه أو الإدلاء بمعلومـات عمـن يعـرف عنـه شـيئًا باذلًا مكافـأة كبيـرة مقدارهـا مائـة ألـف جنيـه لمـن يدلـي بمعلومـات أو يخبـر عـن مكانـه.

تحـرك معهـم يمنـة ويسـرة مبديـا انشـغاله بأمـر ابـن بنـت عمـه سليم الغـارق ﮲في غيبوبتـه التـي تعتـوره بـين حـين وآخـر، يـأكل ويشـرب مـن أيديهـم ويظهـر أثـره ﮲في حفاضتـه مـن بـول وبـراز تشـمئز منـه الأنـوف وتتعكـر بـه الأمزجـة الرطبـة، كانـت ناهـد مـن تقـوم علـى أمـوره، الآن زوجتـا ابنيـه اللذيـن يعيشـان معـه دون بقيـة أبنائـه ﮲في البيـت الفسـيح الشـامخ همـا مـن تقومـان بذلـك متأففتـين متقززتـين، لا تشـعران بمـا ألـم بناهـد، تتمنيـان أن تعـود مـرة أخـرى سـليمة لتتولـى مهـام والدهـا وقذارتـه، هكـذا كانتـا تحكيـان مـع بعضهمـا ﮲في خلواتهمـا كل لا يهمـه إلا حالـه، لا تدريـان

أن «ناهد» ربما تموت حزنًا وحسرة على فقد وحيدها، وإذا لم تمت ستكون كالأموات بلا روح، ستكون جسدا غريبا لا يعرف عنه أحد شيئًا.

أحس بذلك كاشف لما ذهب لعيادتها والاطمئنان على صحتها وآخر تطورات حالتها المزرية، جلس على مقربة من رأسها يحدق فيها ويحملق في رأسها الغاص بغيبوبته وبتواريه عن العالمين، يتفحصها مرات ومرات، وهو سارح بفكره شارد به بعيدا تتراءى أمام عينيه مشاهدات ومناظر أولاده وزوجته مبقوري البطون منزوعي الأعضاء جلود على عظام، ودماء كبحار تسيل زاحفة على بلاط الشقة، كأنه الأمس أو اليوم أو منذ لحظات، مناظر تتراءى وتتهادى ليل نهار لا تفارقه حتى في غطيطه يهب مفزوعًا صارخًا من نومه لاهثًا بأنفاسه المتتابعة في تلاحق مستمر كخروج الروح، زفير شهيق صياح ينادي عليهم:

- خالد

- عمر

- فريدة

- فاطمة

كان هـذا دأب منامـه في غالـب لياليـه منـذ أن أفـاق مـن سـكرته بعـد الحادثـة ظـل علـى هـذا المنـوال حتـى أيـام مضـت، لـم يعـد ينطـق إلا باسـم واحـد عندمـا يهـب مذعـورًا مـن نومـه مرتعشـا بصـوتٍ مخنـوقٍ:

- فاروق

- فاروق

- فا .....

يريـد أن ينـادي علـى زوجتـه، ولكـن لسـانه يتصلـب ويتبـدل الاسـم لا إراديّـا إلـى:

- فاروق

يحاول أن ينطق باسم أحد من أبنائه:

- ف....

سـيأتي اسـم فريـدة أو فاطمـة، لا لـم يـأت، نطـق اسـمه بصـوت مجـروح:

- فاروق! لا، لا

وضع يديه كلتيهما على حنجرته يضغط على أحباله الصوتية يكتم صوته كان أول حلم له يمتك ما بداخله ويرج فؤاده، وكأنه الأمس عندما أقدم على فعلته الشنعاء في قيظ الظهيرة، رأى ما حدث وكأنه يحدث الآن، لما علم اطمئنان الجميع له وانزحار أي شك تجاهه بل لا يوجد شك بتاتا في شخص مصاب مثله يعرفون عنه الكثير من الخصال الحميدة والأفعال الجليلة، ولكن نفسه الخبيثة وروحه الدميمة قاداه إلى حيث الهاوية، قد أعد العدة، واتصل بأقرانه ومعاونيه الذين جاءوا في سيارة من نوع فولكس واجن سوداء اللون، يترقبون فريستهم البريئة، طفل صغير يلهو في حديقة البيت، أغراه صائده بقطعة حلوى مشيرًا إليه بيده من خارج البوابة الخشبية، رافعًا قطعة حلوى، انفرجت أسارير فاروق وهرع إليه مهرولًا، فهو يعرفه وقد جلس معه أكثر من مرة، وأنس به، وقد أخذ منه قبل ذلك خمسمائة جنيه على مرات متفرقة، وألعابا كثيرة منها سيارة وحصان وبندقية، فلم يقابله مرة إلا وينال منه شيئًا حتى كان ينتظر زيارته بفارغ الصبر، ولكن هذه المرة كانت الزيارة الأخيرة واللقاء الأخير بينهما، فجرى نحوه وفي يده كرته البيضاء، وقد انبجست شفتاه عن ابتسامة متلألئة، تنير وجهه، خرج إليه، يقول:

ـ لقد تأخرت اليوم في المجيء، لقد انتظرتك منذ الصباح

ـ خذ هذه الحلوى أولًا، ثم تعال معي

ـ إلى أين؟

ـ سأوريك شيئًا جميلًا، هدية كبيرة، لا أريد أن يراها أحد غيرك

ـ أين هي؟

ـ خلف بيت جدك

ـ ما هذا الشيء الجميل؟

ـ تعال معي وستعرف

ـ ولكن أمي بالداخل لم أخبرها

ـ سنرجع إليها على الفور، لن يستغرق الأمر أكثر من دقائق

التفت الطفل إلى بيت جده يلقي عليه النظرات الأخيرة، ثم مد يده ووضعها في يد كاشف الممتدة نحوه، وسار معه بضع خطوات، حتى وقفا أمام سيارة سوداء، يحتويها الصمت وتكسوها الرهبة، نظر إليها ثم رفع بصره نحوه وقال:

ـ هذه هي الهدية

ـ نعم، هذه سيارة جديدة لك

ـ إنها جميلة

ـ هيا افتحها

اقترب منها ليفتحها فيفاجأ ببابها يفتح فيجد رجلًا جالسًا على كرسي يبتسم له ويقول له:

ـ تقدم يا فاروق، شاهد سيارتك

تردد الطفل وتراجع للخلف خطوة وقد اعتلاه الخوف وتعمقه، فالتفت له فاصطدم بيده على فمه كاتمة صوته بعنف، ثم يدفعه إلى داخل السيارة يحتضنه الرجل ويغلق الباب، ثم لم يسمع صوت، وتنطلق السيارة من أمام عيني كاشف، ينظر حوله فلا يجد أحدًا، وكأن الأرض خلت من أهلها وكأن الطرق لفظت سالكيها ومجتهم، فلا يكاد يرى أثرًا لدبيب أي شيء حوله في هذا القيظ، ظل يتبع السيارة بصره حتى غابت عن عينيه متجهة نحو المقابر.

تلفت حوله مرة أخرى ثم هز رأسه والتفت يمينًا ناحية بيته فيجده أمامه عاريا، ثائر الشعر، مادا كلتا يديه نحوه،

وفمه يرغو كالإبل، وعيناه تمطرانه بشرر كالقصر، فحشرجت نفسه وبلغ قلبه حنجرته، فتجرع ريقه كأنه غصة وقال مرعوبًا:

ـ أنت، أنت، هل عدت؟

ـ جئت إليك لأقتلع قلبك

وامتدت يده مع صغرها كأنها المطاط واخترقت صدره نازعة قلبه من صدره، نظر إليه وهو يرى الدم يتقاطر منه، فهب مفزوعًا وجبينه يتودق عرقا، وعيناه محمرتان يتندر منهما الدمع وهو يصرخ ويصيح:

ـ لا،لا، لا

لم يكن حلمًا عابرًا، ليلة وتمضي، أو حتى يسلك طريق المؤمنين ويقوم يتوضأ ويصلي ويتلو ما تيسر من القرآن، ولكن قلبه الآثم المختوم عليه بطابع الطغيان رقل في مسالك الشيطان، فاعتلى سلم عرشه، فخرج إلى صحن بيتهم، ورفع رأسه إلى السماء متضجرًا ساخطًا على قضاء الله وقدره صارخًا بصوت لعين تشمئز منه النفوس قائلًا:

ـ لماذا؟ لماذا أنا بالذات من دون هذا العالم الذي يبتلى بهذا الابتلاء؟ لماذا زوجتي وأطفالي الصغار؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

وشق ملابسه وجثا على ركبته قد انشقت عيناه بفوهات من الدمع الغزير المصحوبة بخنات وأنات ونشيج مقيت ورنات كالنوائح، ثم اهتز رأسه في هزات متتالية يمينًا ويسارًا في ظل نشيجه المشين، ثم أنشأ يلطم خديه بكلتا يديه في قوة وهو ينعر:

ـ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

ثم توقف فجأة عن الصراخ والعويل وأطرق برأسه ناحية اليمين، يزنهر بعينيه ماقتًا حانقًا تنتثر منهما شرارات البغض والعداوة، تتطاير منهما ذرات الانتقام المتوهجة بنيران الحقد والحنق، ثم يقول بصوت مصعوق:

– سأعاقبهم بمثل ما عوقب به أطفالي الصغار وزوجتي البريئة، سأعاقب العالمين بمثل عقابهم، لن أترك أحدًا، سوف يفنى هذا العالم على يدي لن أبقي صغيرًا ولا كبيرًا لا رجلًا ولا امرأة لا طفلًا ولا هرمًا، الجميع سواء، فليمت فاروق مثلما مات أولادي

يهز رأسه ناحية اليسار في ارتعاش ثم يقول:

ـ ولكن ما ذنبه؟ إنه طفلٌ بريءٌ، بريءٌ، وحيد أمه وأبيه، لا يملكان غيره، جاءهم بعد عناء طويل ولف مرير وابتهالات متتالية، واصطبار عظيم، ما ذنبهم؟ ما ذنبهم؟

وأخذ يتلوى بهذه الكلمات برأسه المنخفض في الأرض، مستندًا بيديه في وضع السجود دون أن يلامس رأسه الأرض، وهو يدور به بصوت باك:

ـ ماذا فعلوا جميعًا؟ ماذا فعل فاروق البريء وأمه ابنة عمي وزوجها المسكين؟ ما ذنبهم؟ ما.....

وقاطعه صوت من أمامه:

ـ وما ذنب فاطمة؟ وماذا فعل صغارك خالد وعمر وفريدة لينالوا هذا المصير الشنيع والعقاب الأليم؟

رنت الكلمات في أذنيه، ليس غيره في البيت، لمن هذا الصوت؟ إنه يأتي من أمامه، لم يرفع رأسه بعد يظن أنه يحلم، ولكن هذا الصوت يعرفه جيدًا، إنه لا ينساه أبدًا، كأنه الأمس، إنه من أفضل الأصوات إلى قلبه، وأحنها عليه، لقد افتقده، مر زمن ولم يسمعه ولم يأته طيفه حتى في منامه، اشتاق إليه كثيرًا، تحرق شوقًا إلى نبراته ورناته ودفئه العجيب، ولكنه هجره، فلم يصدق أنه يسمعه في مكانه المفضل وكأنه بعث إلى الحياة، فرفع رأسه في حذر وخوف من أنه لا يكون من خطر في باله، طفق رأسه يتدرج في العلو وهو مغمض البصر حسيره، ظل على تغميضه عينيه، لا يريد فتحهما حتى لا يفاجأ بغير

ما جال في سرداب عقله، وظل على هذه الحالة ثواني ثم فتحهما مذعورًا من صوت ضحكاته المستفزة، فوجده من كان يتمنى أن يسمع صوته أو يرى طيفه يواسيه في محنته، رأى والده الشيخ أمين الضحى بلحيته البيضاء المدلاة على صدره، ومسبحته بخرزها المتفرق بين الأصفر والأخضر، جالسًا على كرسيه الخشبي المزركش بدوائر ومثلثات متداخلة في شكل هندسي بطابع فرعوني، مطبوعًا على عموديه الجانبيين المنتصبين كوتدين بعض الصور والرموز والأشكال الغريبة غير المفهومة المتفرقة على مسند الكرسي وقوائمه النحاسية، اندهش من منظره، وتعجب من هيئة هذا الكرسي العجيب إنه ليس كرسي والده المعتاد، ربما لا يكون والده أيضًا؟ ولكن كيف وهاتان العينان عينا والده، اللحية هي هي، الشامة السوداء المشعرة أسفل رقبته، وأثر السجود في جبهته ونظراته هي هي، لكن ضحكاته ليست هي، أسجد ببصره نحوه يتفحصه حتى استفزته ضحكاته فطفق يستشفه ويستكشفه حتى انقطعت تلك الضحكات بنظرات غائرة نحوه، فخف خوفه وهدأ روعه، وقال بصوت وثير:

ـ أبي، والدي، لقد اشتقت إليك كثيرًا، لم أرك أو أسمع صوتك من وقت طويل، أين كنت؟ وكيف أنت؟

قطع صمته وقضم نظراته الثابتة وقال:

ـ أنت تعرف أين أنا، لكن لا تعرف كيف؟ ولا يجب أن تعرف، كيف حالك أنت يا كاشف؟

غير كاشف من هيئته، وجلس بإليتيه على قدميه وقال:

– حالي !! حالي وما أدراك ما حالي، ألا تدري بما حدث لزوجتي وأطفالي أحفادك، يا شيخ أمين؟

– ماذا حدث لهم؟

– ألا تعلم؟ ألم يأتك علم أو خبر؟ أنا أعلم أن الأموات يصلهم خبر الأحياء من أهليهم وأقربائهم، يستبشرون بفرحهم، ويحزنون لآلامهم

– ومن أدراك أني مت؟

– ماذا تقول؟

– أنت أبي، مت من زمن طويل وأرمت

– ومن أدراك أني أبوك؟

– ماذا تقول؟ أنت أبي، أنا أعرفك وأعرف هيئتك جيداً، لم يتغير منك شيء، لم يتغير سوى هذا الكرسي العجيب، إنه ليس كرسيك العتيق

- إنه ليس كرسيّ، ولكن دعنا مني الآن، ماذا حدث لأولادك، ولزوجتك؟

- تذكرت شيئًا، كيف لا تعرف ما حدث لهم وتسألني الآن عن شأنهم وأنت أول كلامك منذ قليل هو وما ذنب فاطمة؟ وماذا فعل صغارك خالد وعمر وفريدة؟ إذن أنت تعرف ماذا حدث لهم؟

- أنا أعرف فعلًا، ولكني كنت أريد أن أسمع منك كل شيء، اشتقت لسماع صوتك

- من أنت؟

- أنا أبوك الشيخ أمين الضحى، ألا تعرفني يا كاشف؟

- لقد حيرتني، وشككتني فيك

- أتشك في والدك يا كاشف، والدك الذي فجع مثلك كما فجعت في أولادك بل أكثر منك، لقد انقطع نسلي نهائيّا

- أنا لا أشك فيك يا أبي، اعذرني، أرجوك سامحني، أنا.... أنا مصدوم مما حدث لي وما يحدث، أنا،.... أنا اختطفت طفلًا صغيرًا ابن ناهد بنت عمي، أخيك يا أبي، وحيد أمه وأبيه، اختطفته وسلمته لهم، سلمته

لقتلة أولادي وزوجتي، بدل أن أقتلهم وأمزق أجسادهم كما مزقوا أجسادهم أساعدهم في قبائحهم وشنائعهم وأشاركهم الأمر

- الجميع يجب أن يقتل ويمزق يا كاشف، القتلة وغيرهم

- القتلة نعم لابد أن يأخذوا جزاءهم ينالوا نفس المصير، ولكن ما ذنب فاروق وغيره؟ ماذا فعلوا؟

- وما ذنب أولادك خالد وعمر وفريدة؟ ماذا فعلوا هم أيضًا لينالوا نفس المصير؟ وما ذنب زوجتك؟ هذا سبيلك للوصول إلى أعدائك فيجب أن تسلكه حتى تصل إلى ما تريد

- أنت، أنت الذي تقول ذلك يا أبي!!

- نعم، أنا الذي أقول ذلك، وهذا طريقك وجب عليك أن تسلكه للنهاية، هذا مصيرك ولا أحد يفلت من مصيره

- لا، لا، لا يا أبي، هذه ليست أخلاقي وليست مبادئي، أنا يجب أن أستسلم لأمر الله وقضائه وأرجع عن هذا الطريق الذي سرت فيه

هـب واقفـا مـن فـوق كرسـيه وعينـاه تطلقـان النيـران عليـه وصـاح بـه:

- مـاذا تقـول؟ ترجـع؟! هـذا ليـس وقتـا للرجـوع؟ عليـك أن تثـأر لقتلـة أولادك ممزقـي أحفـادي ونازعـي أعضائهـم، هـذا هـو القصـاص، مـن قتـل يقتـل، ومـن مثـل يمثـل بـه، ألا تعـرف قصـة العرانيـين ومـاذا فعلـوا؟ ومـاذا فعـل بهـم نبيـك؟

- لا، لا أدري عنها شيئًا

- سـأقصها عليـك، جـاء نفـر مـن عـكل، ثمانيـة أشـخاص، قدمـوا علـى نبيـك فبايعـوه علـى الإسـلام، فاسـتوخموا الأرض وسـقمتْ أجسـامهم ومرضـت، فشـكوا ذلـك إلـى رسـولك، فأمرهـم أن يخرجـوا إلـى راعيـه في إبلـه فيشـربوا من أبوالهـا وألبانهـا، فخرجـوا فشـربوا من أبوالها وألبانهـا، فصحـوا ثـم قتلـوا الراعـي وطـردوا الإبـل، فبلـغ مـا حـدث رسـولك، فبعـث في آثارِهـم فجـيء بهـم، فأمـر بهـم فقُطعـت أيديهـم وأرجلُهـم وسـمَّر أعينَهـم، ثـم نبـذوا في الشـمسِ حتـى ماتـوا .فعـل بهـم مثلمـا فعلـوا

- لقـد قلتهـا فعـل بمـن فعـل؟ فمـا ذنـب فـاروق الطفـل البـريء، وغيـره؟

- فاروق وغيره وسيلة يجب أن تتمسك بها طالما أن هذا هو الطريق الوحيد للوصول لرؤوس القتلة والآمرين بذلك، انظر إلى مصير أطفالك ابنك خالد ربما لو عاش لصار طبيبًا مشهورًا مثلك، وعمر ربما يكون ذا شأن كبير في المجتمع، وطفلتك فريدة ربما تكون وزيرة أو طبيبة مثلك، أحلامهم قتلت في مهدها، ما ذنبهم؟ وما جريرتهم؟ ذبح مستقبلهم بوحشية، فلتعاقب العالم كله بما عوقبوا به، فلتصب حمائم غضبك على الجميع، لا ترحم أحدًا، ولا تترك أحدًا، لماذا أطفالهم يعيشون ينعمون وأبناؤك تنتزع أعضاؤهم بوحشية بدون رحمة أو شفقة؟! لماذا أنت من دون العالمين؟ فليذق العالمون ما ذاقوا وليصابوا بمثل ما أصبت به من فقد أبنائهم.

- لكن يا أبي هم لم يؤذوني

- وهل آذى أطفالك هذه العصابة وهؤلاء المجرمين الطغاة؟ لا، لم يفعلوا شيئا، اثبت على طريقك ولا تتركه أبدًا حتى تصل إليهم وتنال مرادك وتقصلهم قصلا وتنهشهم نهشًا، ولا تلتفت لشيء ولا تجعل في قلبك رحمة لأحدٍ، انزع قلبك مثل ما نزع من أطفالك كأنك ولدت بدونه، لن ينفعك الآن.

ووضع يده على كتفه وقال بعزيمة:

ـ اثبت يا كاشف

نظر كاشف إلى يده على كتفه ثم حدق في عينيه يتفحصهما فارتعشت أنامله واهتضمه الخوف فابتلع ريقه وقال:

ـ من أنت؟

نظر إليه ثم ضحك وقال:

– أنا؟! أنا والدك

– لا، لست والدي، من أنت؟

– قلت لك أنا والدك من يخاف عليك، ويتمنى لك الخير

– كيف تتمنى لي الخير وأنت تحثني وتحضني على القتل وسفك دماء الأبرياء

– الدماء لعنة بني آدم وفتنتهم، قديمًا قتل قابيل أخاه هابيل، هذه أول جريمة قتل حدثت بين البشر، ومن وقتها إلى الحين إلى قيام الساعة والدماء مازالت تسيل وتنهال، والنفوس تزهق، وأجساد تباد، ولن يتوقف هذا الأمر إلا في حالة واحدة، أتدري ما هي؟

- حتى تقوم القيامة.

- معك حق، حتى تقوم القيامة، و... و

ويضع يده على رقبته ثم يقول:

- وإذا لم أكن موجودًا

انتبه لكلامه وقال:

ـ إذا لم تكن موجودًا؟ ما علاقة ذلك بك؟

وكأن فكرة خطرت برأسه فقال وهو يتجرع ريقه كأن غصة في حلقه:

ـ من أنت؟

ـ أنا من أزَّ قابيل ليقتل أخاه هابيل أنا من وسوس لآدم وأخرجه من الجنة

رفع يده نحوه وهي ترتعش وأشار إليه بسبابته اليمنى وقال:

ـ أنت...

ـ أنا

وامتطى ضحكه، وتبدلت هيئته برزت أنيابه وتلمظت عيناه لهبًا أحمر واستطالت مخالبه وتجعد صوته كأنه بوق مادا صوته في حرف الواو:

ـ أنا أبوووووووك

انتفض كاشف من نومه مذعورًا مرعوبًا يصرخ ويئن:

ـ لا، لا، انصرف، انصرف عني، انصرف، أعوذ بالله منك، أعوذ بالله منك

وقام مهرولا يغسل وجهه وأنفاسه تتصاعد كأبخرة، مازال في رعبه، يعجز عن الكلام، يتلفت حوله كالمأفون تدور عيناه في محجريهما هنا وهناك، خطا كالهرم يقدم رجلًا ويؤخر أخرى حتى صحن البيت الواسع نفضه بعينيه فلم ير شيئًا سوى المقام يتوسطه، وخلفه على بعد أمتار منه أبواب حجرات مرتجة، انزلق نحو أحد هذه الأبواب يتسنمه خوف، ويتجشمه ذعر ينتفض كالعصفور المبلول، يحاول فتحه دون فائدة، فنظر خلفه فوجد الظلام يحيك ألحاظ العيون ويجمش جنبات الصحن بدجوجيته، فارتعش بنيانه من الرهبة، فإذا كان لا يقوى على الوقوف في هذا المكان فكيف سيدخل حجرة مظلمة لم تدخل منذ زمن بمفرده؟ لا يعلم ما بداخلها، فهرع نحو

حجرته يرمل في سيره، أوصد الباب وغاص تحت لحافه البني، ينكمش جسده ويرتعش جلده من الخوف وهو يحدث نفسه:

- كيف أجلس في هذا المكان بمفردي؟ لم أعد أقوى على المكث هنا ولكن الاتفاق بيني وبينهم، وشرطهم الوحيد هل سأتخلى عنه وألفظه أم ماذا؟ ولكن... ولكني لم أعد أتحمل ما أراه في منامي ويقظتي، فماذا أفعل؟

طفق يحدث نفسه، يتحامل على نفسه، يغالب نومه، يخشاه لا يريد أن يغرقه في لجته حتى الصباح حتى يتفادى الوقوع في لجة الكوابيس وأضغاث أحلامه المزعجة، سحفه صراع مرير مع النوم حتى انتصر عليه، وانكشف غطاء الليل، ورق ثوبه فلاحت تباشير الصباح، قد تبرقع وجه الليل بغرة الصبح، وبدا حاجب الشمس ساطعًا في أجنحة الطيور التي باتت تزقزق وتهدل في صحن البيت، فانتبه إليها، فأزاح الغطاء من على جسده، وهزع نحو الحجرة التي عارك بابها منذ قليل قبل أن ترفع سجف الظلام، لكنه عاد مهزوما وقتها، ولكن هذه المرة صمم على الفوز، فاستجمع ما تبقى من قواه، وزخ الباب بكتفه مرات متتالية المرة تلو الأخرى حتى فتحه، فانقض مدفوعًا للداخل، فوجد نفسه واقفًا أمام كرسي والده، قد لمعت فيه أشعة الشمس النافذة من خلال نافذة الحجرة الخلفية ذي

الأعمدة الحديدية وقد تهتكت الشبكة الرفيعة الساترة لهذه الأعمدة الحديدية.

نفض الغرفة بعينيه وتصفح ما فيها من كراكيب وأثاث قديم مهري مخوخ بخنفساء الأثاث وبعض الكراتين التي مزقت جوانبها، وسالت عليها العثة ودودة الكتب ثاقبة الكتب وقملة الورق (حشرة سوكوبترا المتناهية في الصغر) في تناغم كئيب مع بعض العناكب الملتصقة في بعض الأركان والجنبات، مع هذه الرائحة الكريهة، لم يأبه لكل هذا ولم ينتبه له، وكأنه لا يشم هذه الرائحة العفنة كأنه تابوت أثري من قديم الزمن فتح فجأة فانفض ما فيه من خبائث الروائح المكمكمة من مئات بل ألوف السنين.

رقل نحوه وهو مرتعد، ليس هو الكرسي الذي رأى شبيهه يقبع فوقه في وسط الصحن، هذا كرسي عادي بقوائم خشبية، ومسند خشبي مغلف بطبقة من القماش الناعم المبطن بالإسفنج الطري، اقترب منه في حذر وحيطة، وضع يده عليه وهي ترتعش، لمسه، وقد زال بعض خوفه لم يحدث شيء، ابتلع ريقه وأخذ يتفحصه ويحملق فيه مسجدا ببصره على كل قطعة فيه، وقد تلاشى وراء نظراته المبتسمة خوفه شيئا فشيئا فاقترب أكثر، وطفق يمسح ما على مقعدته من

أتربة وأغبرة، ثم قرب مقعدته موليا ظهره له وتهيأ للجلوس عليه رويدًا رويدًا في حذر حتى استتم قاعدًا عليه، لم يحدث شيءٌ نظر حوله يمنة ويسرة وأمامه وخلفه وهو جالس ثم تنفس نفس الراحة والسكينة، واتكأ بظهره للخلف وهو مغمض بصره قليلا، قد أخذ الكرى يداعب هاتين العينين الغائرتين، فأغمضهما وشفتاه مفترتان عن نصف ابتسامة، ثم فتحهما وقد اتسعت رقعة ابتسامته التي لم تطل فبمجرد إبصار ما أمامه صعق واسود وجهه وكلبشه الخوف فاتسعت عيناه من الذعر والرعب، وتصاعدت دقات قلبه في قرع متتال ودقات متزايدة، عجز عن بلع ريقه، خطفه ما رأى، لما فتح عينيه وجده أمامه على الأرض زاحفًا نحوه يجر قصبه وأحشاءه والدماء تنهمر منها كخراطيم مياه فوارة تنثر لونها الأحمر في كل شبر من أرضية الغرفة اقترب من رجليه وهو لا يجرؤ على ترك الكرسي والهروب، كأنه التصق به فصارا شيئًا واحدًا، فلزمه، وانقطع صوته، وفاروق يزحف نحوه ببطنه المبقورة وأحشاؤه خارجة منها وهو يزحف نحوه ويداه ممتدتان ناحيته، وهو يبكي في براءة يقول له:

ـ أنقذني، أنقذني، أنقذني

انشـل في مكانـه، لـم يعـد قـادرًا علـى الوقـوف أو الحركـة، حتـى نشـف ريقـه وجمـدت عينـه وتصلبـت شـرايينه، يريـد الهـروب والفـرار مـن هـذا الرعـب فـلا يعـرف، فانقـض علـى وجهـه علـى الأرض يتهيـأ للزحـف كالمشـلولين والفـرار منـه، ولكنـه لـم يدعـه يفلـت منـه انقضـت يـداه علـى رقبتـه، منتزعًـا حنجرتـه وقصبتـه الهوائيـة مبرزهمـا أمـام عينيـه، فلـم يسـتطع التحمـل، فصـرخ:

- آآآآآه

انتفض كاشـف مـن إغفاءتـه المفاجئـة علـى الكرسـي مفزوعًـا مذعـورًا عينـاه جاحظتـان مـن الهلـع، يلهـث وينهـج يزفـر ويشـهق، تلاحـق أنفاسـه في كتيبـة مـن الخـوف المريـع، ينظـر حولـه فـلا يجـد شـيئًا، ينظـر أسـفل منـه فـلا يجـده، ولكنـه وجـد أرضيـة الحجـرة الخشـبية مطـلاة باللـون الأحمـر القانـئ لا يـدري هـل هـذا هـو لونهـا في الأسـاس أم مـا رآه في الحلـم كان حقيقيـا؟ فتفهقـت عينـاه مـن شـدة التفكيـر، اشـتفه الهـم وامتكـه الجـزع، فاعتـدل واقفًـا مهـرولاً نحـو حجرتـه وهـو مرعـوب يصـرخ حتـى أغلـق بابهـا عليـه وألصـق ظهـره بـه يلهـث مـن شـدة الجـري والفـزع.

لـم يعـد قـادرًا علـى تحمـل مـا يـراه يطـارده في نومـه ويقظتـه، وكأنـه مصـر علـى أن يصـل بـه إلـى حافـة الجنـون أو الهاويـة أو الانتحـار، وقـد صـار قـاب قوسـين أو أدنـى مـن ذلـك، فلجـأ إليهـم

لينقذوه مما هو فيه كما أقحموه فيه، فاتصل بهم يخبرهم بحاله وما وصل إليه، وأنه قرب من الهلاك وعليهم أن يقدموا له المعاونة والمساعدة، وإلا سيقتل نفسه أو يجن، لم يكن في حسبانهم ما آل إليه أمره، ولكنهم رأوا أن يبعدوه عن مكانه ذلك حتى يستعيد وعيه وطاقته من جديد فهم يريدونه في أمر جلل ومسائل جسام ولا يريدون فقده بهذه السرعة، وإن كان في النهاية مصيره معروف لديهم ومحدد وهو ما وصل إليه الآن، ولكن لم يحن وقته بعد، فهم لم يستفيدوا منه تلك الاستفادة التي يريدونها منه، ولم يتضح لهم بعد ما يرمي إليه ويسعى نحوه بالعمل معهم، لذلك استجابوا له وأغاثوه، وغيبوه عن هذا المكان فترة مؤقتة حتى يستعيد وعيه ثم يعود مرة أخرى ليكمل ما بدأه وينفذ ما اتفقوا عليه من شروط، فهو لم ينفذ سوى سبع شرطهم معه، فرأوا أن يخفوه عن قريته فترة من الوقت يعمل نفس عمله في أمكنة أخرى بعيداً عن أعين من يعرفهم حتى تهدأ نفسه ويلين جانبه وترتاح روحه ويعود إلى سابق عهده ثم يعود مرة أخرى إلى قريته ليكمل أمره هناك.

فخرج كما أخبرهم بحجة متابعة طبيبه النفسي لسوء حالته بعد اختفاء فاروق وقد لاحظ الجميع عليه ذلك، ورفض أن يذهب أحد معه فخرج وحيدا حتى ابتعد مسافات طويلة

عن قريته، وربض ينتظرهم على مقهى المندرة في الزقازيق في شارع الجامعة، وتوالت الأكواب الكوب تلو الكوب، شاي وقهوة شاي وقهوة في تتابع مستمر وهو يعاين بين الفينة والأخرى ساعته، حتى ضاقت به السبل وأحس بضيق في صدره بدا جليّا على وجهه فاقشعرت ملامحه وتضايقت ثم فرج عنه بوقوف السيارة السوداء أمام المقهى،عرف أنها هي، فقام بعدما وضع مائة جنيه على المنضدة بجوار صنية الشاي، وفتح بابها وركب، التفت إليه صالح مبتسمًا وكان بجوار الجروي سائقها دون أن يلتفت الجروي العابس، ثم قال له:

- مرحبا بالأخ العزيز والرجل القوي الدكتور كاشف أمين
- مرحبا بك يا صالح
- لكنكما تأخرتما جدًا
- نعتذر عن تأخيرنا، لقد كنا في شغل، خلفك ستجد جثة طازجة، مازالت بعبقها وتمامها، نريدك أن تقطعها، وتخرج أجزاءها وأعضاءها تامة بدون أدنى خدش، وهناك أعمال كثيرة تنتظرك يا دكتور.

●●●

(٧)

لم يكن حاله السابق بأسوأ مما آل إليه مؤخرًا، بل كان اللاحق أسوأ وأسوأ وأشد عفانة وقساوة، تنقل من إجرام وانحراف لإجرام وانحراف أفظع وأشنع تنبو عن ذكره الألسن، وتمجه الآذان الخلص فضلًا عن المشاركة أو الانجراف في هذه الأعمال الشنيعة ممارسًا لها ومنفذًا ومشاركًا لأربابها فأخذ يتنقل معهم من مكان إلى مكان ينتشلون الجثث من هنا وهناك يخطفون يسلبون يمزقون ما يقدرون عليه وما تصل إليه أيديهم وأيدي من معهم.

كان يتولى في كثير من الأحيان تقطيع بعض الجثث وانتزاع ما بداخلها بحرفية تامة ومهنية عالية دون رادع من ضمير أو وازع من طهارة داخلية، كان وفريقه المكون من صالح السمسار والجروي ونبهان وأسمهان وإيناس وحوش بربرية، وشياطين في جثامين إنس، لم يكن يعرف غير هؤلاء ومن أوصله إليهم في تلك الشبكة العملاقة من مافيا تجارة البشر ونخاسي اللحوم البشرية، كان يسعى بكل ما أوتي من قوة وذكاء إلى أن يصل للدكتور هذا ظنا منه أنه المسئول عن كل تحركاتهم وأعمالهم في مصر، وأنه الآمر بالمذبحة الشنيعة التي راحت فيها أسرته يريد الانتقام، فاتبع أبشع السبل للوصول إلى مبتغاه، نسي

روابط الدين وصرب علقه وحلأ ضميره وقرضب كل ما بداخله من نوازع الخير والإنسانية فسار في طريقهم، واجتهد وأخذ ينبش قبرًا قبرًا يده بأيديهم يسرقون الأطفال، ويسلبون المرضى أعضاءهم وأحشاءهم، ويخرجون الجثث القديمة والحديثة من قبورها دون أن يراعوا حرمة الموتى أو يراعوا صمتهم وسكونهم المدفون فيه إما نعيمهم أو جحيمهم.

تحركوا من دوافعهم الخبيثة المتباينة وإن اتفق أكثرهم على جمع الأموال والثروات والثراء السريع، إلا هو كان الدافع شيئًا آخر الانتقام والثأر من تلك الشبكة بداية من رأسها وصولًا إلى ذنبها وهو غير مدرك لحقيقة الأمر، سعى معهم لهدف واحد ليس الثراء كأكثرهم مع أنه حصل على أموال كثيرة منهم، ولكن هذا لم يغير أو يزعزع ما عزم عليه فحث قوته وأثار كوامن شره ونوازع نفسه الخبيثة حتى سرتهم أعماله وجهوده العظيمة وجرأته البالغة وشجاعته وصموده وثباته وكثرة إنجازاته بالنسبة إليهم.

لم يفرقوا بين ضحاياهم، أهم شيء أن يجدوا ضحية يستطيعون الاستفادة منها بأي شكل كان، وكان لجهاز أخبارهم الواثق كأنه جهاز مخابرات لدولة من الدول العظمى دور كبير في العثور على الأجساد والجثث سواء التي تحجل على سطح

الكرة الأرضية بكامل وعيها وصحتها وعافيتها أو التي على مشارف الهلاك من المرضى التي تعج وتضج بهم المستشفيات والمنازل وغيرهم، أو من هم حديثو الوفاة أو قديمو الوفاة، فلم يتورعوا حتى على سلبهم رفاتهم التي مر عليها دهر طويل ولم يبق منها سوى عظام نخرة أو أجربة من الأتربة لا طائل من ورائها.

ولكنهم لم يكونوا كالآدميين بل كأنهم جان أو شياطين في ثياب إنس، فماذا يريدون من عظام نخرة أو أتربة باقية من أجساد قد بلت واعتراها الفناء وصارت كأن لم تكن شيئًا؟ لا أحد يعلم ممن ينبش عن هذا أو من يأتي لهم بالجثث والأعضاء، لا يعلم سوى قادتهم ورؤسائهم الذين لا يعلم أحد عنهم شيئًا، سوى أخبار تروى وأحاديث تقص في الخفاء، لا يصدعون بذلك ولا يصدحون بذكرها بين أكثر من ثلاثة، وإنما كانت أحاديث تروى بين اثنين من هنا، واثنين من هناك، فالخوف كان شعارهم والرعب دثارهم، لا أحد ممن انغرق في بحورهم وولج أوديتهم لا أحد منهم يجرؤ على الاعتراض أو الرفض أو الشجب بكلمة أو بحرف أو بتقطيبة وجه، الجميع يخضع لهم ينفذ أوامرهم لأنهم يعلمون أن مصيرهم سيكون مثل ضحاياهم أو أشد، فكانوا كالخصيان يدورون في رحى

أسيادهم دون حراك أو اعتراض، فمن يدخل في ظلهم يصير واحدًا منهم، لا فكاك له عنهم ولا مناص له من قبضتهم إلا بهلاكه.

كان كاشف يعلم ذلك جيدًا ويدرك أنه في دائرة نارية الخارج منها مفقود والداخل إليها أيضًا مفقود، لم تعد تهمه نفسه أكثر من الانتقام ومعرفة الحقيقة وكشف هذه الشبكة الإجرامية والقضاء عليهم جميعًا، فسار في دربهم يفعل فعلهم، ويجتهد فيه، منفذًا كل ما يقال، دون شفقة أو رحمة أو رأفة أو رقة بسيطة تعتري قلبه من أجل ضحاياه الأبرياء، مع أنه لم يرهم أبرياء، ولم يكونوا هكذا في نظره، فقد كان يرى أن ما يحدث لهم من انتهاك لأجسادهم وانتهاش لأعضائهم إنما هو لشيء فعلوه في دنياهم لذلك عوقبوا بهذا العقاب الشنيع، فبما كسبت أيديهم حصل لهم ما حصل فلا يظلم ربك أحدًا، ربما فعلوا مصائب وبلايا شنيعة لذلك عوقبوا في أجسادهم بعد موتهم، بل إنه يرى ربما أن يكون هذا من عذاب القبر، أن تعذب أجسادهم بهذه الشنائع والفظائع كما تعذب أرواحهم أيضًا في البرزخ كان عنده يقين أن من يحدث لهم ذلك على أيديهم مما لا يدع مجالًا للشك في قلبه أن أرواحهم تعذب في قبورهم.

ـ ولكن، كيف؟ كيف هذا؟

سؤال مبهم سأله لنفسه في خضم تفكيراته وهواجسه التي استعمرته ونزفته وزخرت عقله المريض ترتع فيه كما تشاء، فصرخ بنفسه واهتز رأسه في غضب شديد رافضًا ما جال بخاطره:

ـ كيف؟ فماذا فعل أولادي الأبرياء لينالوا هذا المصير؟ وماذا فعلت زوجتي؟ وماذا فعلت أنا في حياتي كي أنال هذا العقاب فيهم؟! ماذا فعلت؟ فمنذ أن وعيت وأصبحت مكلفًا وأنا أتذكر أني لم أفعل سيئًا قط، ولم تجرني قبائح الشر أو تجرفني في تيارها، لم أفعل شيئًا مما كان يفعله الشباب أمثالي، بل إني لما تيسرت حالي وقفت بجانب الفقراء والمساكين والضعفاء والمرضى الذين لا يملكون شيئًا من أشباح الدنيا وأطلال المسير كنت لهم عونًا وذخرًا ونصيرًا، فكنت أستحق المكافأة لا أن.....

وسكت برهة شاردًا بفكره غائبًا عما حوله مما في مسكنه الكئيب وحجرته الضيقة ثم عاد مرة أخرى كأنه انتهى مما جال بخاطره ماسكًا إياه بعقله:

ـ ربما يكون إخوتي أو أمي أو حتى.... أبي؟ ولكن لا تزر وازرة وزر أخرى، فكيف أوخذ بذنوبهم لو كانت هناك ذنوب تذكر؟! وكيف تكون هناك ذنوب لأبي الشيخ أمين الضحى ذي الحسب الأصيل والنسب القح، وقد كان صوامًا قوامًا ساجدًا شاكرًا كما عهدناه وعهده الجميع من أهل البلد والبلدان المجاورة، فقد كان شيخًا وقورًا مهيبًا يحبه الجميع بل يهيمون فيه كلفًا، كانوا يأنسون به، ويشعرون بالأمان وهو معهم، كان نعم النصير ونعم المعاون والأخ والصديق والأب النصوح لهم جميعًا رجالًا ونساء كبارًا وصغارًا، أبي الشيخ أمين، لا، لا، هذه فكرة شيطانية منبوذة، كيف ذلك؟ لقد جعلوا له مقامًا حيًّا وميتًا، لا... لا... ابعد... ابعد يا ملعون، اخرج من رأسي

وضغط على رأسه بكلتا يديه، جاثيًا على ركبتيه يترنح يمنة ويسرة كالسكران، وهو يصيح:

ــ لا، لا، نحن أسرة صالحة، مرضية عند الله، لم نفعل شرًّا أو سوءًا لنبتلى بهذا الابتلاء، هذا ابتلاء رحمة وتمحيص لا ابتلاء عذاب وعقاب ابعد عني، اخرج من رأسي.

وتهادت إلى مسامعه قهقهات وطخطخات من بعيد أخذت تعلو وتطمو رويدًا رويدًا حتى صارت كالنواقيس في أذنيه وكالطبول تقرع، فوضع يديه كلتيهما على أذنيه وضغط بكل ما به من قوة واهنة وصلق بأعلى ما يملك من صوت محشرج:

ـ اخسأ يا لعين ، اخسأ

ثم رفع يديه عن أذنيه رويدًا رويدًا مع تلاشي الضحكات والقهقهات وأخذ يتلفت حوله كالمجنون بعينين زائغتين، زادهما تحديا وإصرارًا فقال بصوت تخنقه الدموع:

ـ سأقتص منهم جميعًا، سأقتص من قتلة أولادي وزوجتي، مهما كانوا ومهما كلفني ذلك من تنازلات عن الفضيلة والأخلاق حتى لو عريت عنها تمامًا وصرت من جند إبليس، ثأري من كل من شارك في ذبح أولادي وقصل أعضائهم وسحف جلودهم ونزف دمائهم، الثأر منهم جميعًا من أعلاهم لأدناهم.

لا يدري كيف فكر بهذه الطريقة؟ وقد أحيل إلى أولاده ونفسه وأبيه وأمه وعائلته فأزاح هذه الفكرة بعيدًا جدًا كأن لم تولد، ونساها أو ربما تناساها قليلًا، وساح بكامل وعيه وبمحض إرادته في أفعالهم الشنيعة يجول يمينًا ويصول يسارًا يخطر هنا ويحجل هناك متبعًا أوامرهم، لا يعرف أصحاب هذه الجثث معرفة شخصية، ولا يدري عنهم شيئًا، ولا عما جنوه أو فعلوه ولا ما حدث لهم. كل ما عليه أن ينفذ أمرهم ويلبي طلباتهم وفقط.

لا يدري أمظلومون هم أم ظالمون؟ لا يدري ما حالهم؟

لـم يـرأف بأحـد منهـم إلا مـا كان منـه تجـاه إحـدى هـذه الجثـث، وقـد كانـت لمهنـدس يعمـل في الكويـت، تـرك أسـرته الصغيـرة المكونـة مـن أم مريضـة تعانـي آلام الحرمـان مـن ابنهـا البكـر وتقاسـي آلام مرضهـا الـذي أقعدهـا الفـراش، فصـارت خليلتـه وطريحتـه، لا تـكاد تفارقـه إلا لقضـاء حاجتهـا، وأختـين مـر بهمـا قطـار الـزواج دون أن يتوقـف في أي محطـة لهمـا، مـرت سـنوات عجـاف اصطليتـا فيهـا ببحـر الشـهوة العارمـة يفرتـك جسـديهما تتمنيـان حضنـًا دافئـًا أو قبلـة حـارة أو لمسـة أو ضغطـة، مجـرد التفكيـر في الأمـر كان يحـرك كوامـن الشـهوة البازغـة علـى جسـديهما الفائريـن

قـد تجـاوزت إحداهمـا الخامسـة والثلاثـين، والأخـرى علـى وشـك إتمـام عقدهـا الثالـث، ولـم يـدق بابهمـا أحـد، رغـم جمالهمـا، ربمـا لفقرهمـا أو لانطوائهمـا وعـدم اختلاطهمـا بأحـد، وانعزالهمـا عـن المحيطـين بهمـا بعدمـا انتقلتـا مـع أسـرتهمـا مـن نسـيم الريـف البـار إلـى قيـظ القاهـرة الجاحـد وحرهـا اللاسـع يقودهـم الأب الـذي لـم يلبـث أن تـوفي وتـرك الجميـع في رقبـة الابـن الوحيـد الـذي شـافه الأربعـين مـن عمـره ولـم يتـزوج بعـد، ينتظـر أختيـه ليزوجهمـا ويطمئـن عليهمـا ثـم بعـد ذلـك يلتفـت لنفسـه ويأبـه بحالـه، ويبحـث عـن بنـت الحـلال التـي تعوضـه وتلـم شـعثه،

يبني معها البيت الذي ظل دهرًا طويلًا يحلم به في جنبات نفسه، لم يعلنه لأحدٍ، وإن كان حلمًا يختمر بداخله كل لحظة دون أن يفصح، وأنى له الإفصاح وهو صار رب الأسرة بعد وفاة والده؟! فوهب حياته لهن أمه وأختيه يقوم على شئونهن وأمورهن جميعًا، وقف بجوار أختيه حتى أتمتا تعليمهما.

الكبرى منهما التي تليه هي «رشا» الحاصلة على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية، تعمل مدرسة في مدرسة «الصفا» للغات، والثانية وهي الصغرى «نفين» صيدلانية تعمل في صيدلية «الأندلس» آثرت أن تعمل على أن تظل في البيت حبيسة غرفتها باكية يكلؤها الإحباط والاكتئاب خرجت ترى النور الغابش، يجمش فؤادها الأمل، ويحدوها التفاؤل.

ورغم عملهما إلا أنهما كانتا منعزلتين في الغالب عمن حولهما كأنهما غير موجودتين.

كانتا في بعض الأحيان تتعرضان لبعض المضايقات في العمل أو في الشارع ولكنها في النهاية كانت تمر بسلام كمرورهما دون لفت أي انتباه أو الرد السريع الطائش أو إبداء أي رد فعل على ما يحدث، وإنما كانتا كما أوصتهما أمهما وأخوهما ألا يختلطا بأحد ولا يصطدما بأحد، وإن حدث أي شيء يعتبراه كأن لم يحدث إلا إذا زاد الأمر عن حده، وهنا يتوجب عليهما المدافعة

عـن نفسـيهما بصـراخ أو اسـتنجاد بالنـاس أو بالشـرطة، المهـم ألا تتبعثـر كرامتهمـا أو ينفـرط عقـد شـرفهن، فكانتـا مطيعتـين تنفـذان تلـك الأوامـر بدقـة، وبتفـانٍ عجيـب.

فلـم يكـن هشـام مجـرد أخ فقـط بـل كان لهمـا كالأب الحنـون والصديـق النصـوح، فمـا تغـرب إلا مـن أجلهمـا كـي يجهزهمـا ويهيـئ لهمـا حيـاة كريمـة ويوفـر لهمـا كل متطلباتهمـا.

مضـت سـنوات ثـلاث في مدينـة الجهـراء، لـم ينـزل خلالهـا ولـو زيـارة لمصـر كان يريـد أن يمكـث عامـين آخريـن، ثـم ينـزل نهائيًّـا ليظـل بجـوار أختيـه وأمـه ولكـن للإنسـان أمانـي وأحـلام في الغالـب لا يدركهـا لأن الاختيـارات ليسـت بأيدينـا والمكتـوب لا نعلـم عنـه شـيئًا، موتنـا يسـبق حياتنـا، لا يـدرك أحـد تلـك الحقيقـة التـي تأتـي فجـأة دائمًـا حتـى وإن سـبقها أمـراض أو علامـات أو أمـارات ولكـن دائمًـا لا يعـرف أحـد وقـت موتـه.

لـم يكـن يشـتكي مـن أي مـرض، جسـد رياضـي، قـوام متناسـق، وهيئـة تراهـا تحسـده عليهـا، لـم يكـن يتوقـع لـه أحـد تلـك الميتـة المفاجئـة في موقـع العمـل، يتابـع العمـال، وهـو واقـف في كامـل أناقتـه، نظارتـه الطبيـة تلمـع في أشـعة الشـمس المنبعثـة ملهبـة الفضـاء مـن حولـه، وكـوب الشـاي في يـده، ينظـر للأفـق، بـدرت منـه ابتسـامة لـم تكتمـل، خـر بعدهـا علـى الأرض وخـر معـه كـوب

الشـاي معلنًـا صـوت انكسـاره المصاحـب صـوت انهـداد الجبـل المنيـع علـى الأرض، وسـط ذهـول الجميـع، انبثقـت هرولاتهـم وصيحاتهم وجثوا عليه ينحنون في فزع وهلع تمتد إليه أيديهم يمنـة ويسـرة يقلبونـه، دون فائـدة، عينـاه مفتوحتـان وابتسـامة تجلـل وتلـون وجهـه بلـون الصفـاء، والبهـاء يعلـو جبهتـه ويسـجي جبينـه.

مـات ذو الجسـد الفـولاذي والأخـلاق الرفيعـة، مـات الجبـل والسـند والجـدار العالـي الـذي تتـوارى خلفـه بعـض النسـوة الضعيفـات يحتمـين بـه مـن فظاعـة العيـش وخـراب الـذمم، أم مشـلولة ملتصقـة بكرسـي ليل نهـار، قد تقشـع الشـيب في رأسـها، وأختـان ضعيفتـان كان لهمـا المـلاذ الأب الشـفيق والأخ المـؤازر والظـل والحضـن الزاخـر بالأمـان، لـم يتوقعـن جميعًـا أن يلقـى هشـام مصيـره بهـذه السـرعة وهـو بعيـد عنهـن، لـم يرينـه منـذ ثـلاث سـنوات مريـرة وعندمـا حـان وقـت الرؤيـة الأخيـرة يرينـه ممـددًا في تابـوت خشـبي، لتنزلـق الأم في غيبوبـة بمجـرد رؤيتـه، وينعـق الأختـان صارختـين مبديتـين شـعورهن شـدّا وجذبـا أمـام الواقفـين حـول القبـر، مـن بينهـم كاشـف وصالـح والجـروي الذيـن جـاءوا منفذيـن للأوامـر التـي جاءتهـم، لـم يأبهـوا بمـا يرونـه مـن صـراخ ونعيـق وبـكاء يهـز القلـوب ويفـت الأعضـاء ويقـرح الأكبـاد

السليمة إلا «كاشف» الذي انبدرت منه دمعات رقيقات في جانبي عينيه خلف نظارته الشمسية السوداء، مبديًا شيئًا من شفقته التي كانت قد اختفت في فورة ثأره وشهوة انتقامه، وصلابة قلبه بهلاك أسرته.

تأثر كاشف بهذا المشهد الدموي المقض لأواصر الثبات والسكينة النافذ إلى الأحشاء يهثها هثًّا ويفتها فتّا، داخلته مشاعر وأسرته أفكار تؤزه ألا يساعدهم على السطو على هذا الجسد البريء لهذا المخلوق النظيف، ولكن الأوامر عندهم لا تعصى، ومن يعصها ينل نفس مصير ضحاياهم وجثثهم، كما أنه قطع شوطًا عظيما في طريقه إلى رؤوسائهم وزعمائهم ومحركيهم ممن يتوارون وراء القبعات خلف النوافذ العاجية في أبراجهم الشاهقة محتمين بأموالهم ومناصبهم وسلطاتهم الواسعة في الداخل والخارج، فقطع تلك الأفكار، وهرب من تلك الوساوس ومد يده مع أيديهم بعد انفضاض الجموع الكثيرة من حولهم وخلو المقابر من أهلها وزوارها إلا من حارس المقابر، أحد رجالهم ومعاونيهم الذي لا يجرؤ على التلفظ بحرف واحد أو بفضحهم وهتك أستارهم، فاكتفى بما يتحصل عليه كل مرة، وغض الطرف عما يحدث بالخارج وجلس خلف باب غرفته رافعًا صوت مسجله على أغنية من

الأغاني الشعبية الصاخبة حتى لا يسمع ما يدور بالخارج من انشقاق القبر وفتحه وسحب جثة الشاب المكافح الذي لم يرتح جسده ولم يطمئن حيًّا وميتًا.

ماذا يريدون من جسد ميت؟ هؤلاء الذين انتزعت الرحمة من قلوبهم ووئدت الشفقة في صدورهم وصاروا كالحجارة بل أشد قسوة.

فتحوا القبر، وامتدت أيديهم لسحبها خارجًا بينما وقف الجروي يترقب وهو يراقب «كاشف وصالح» وقد امتدت أيديهما داخل القبر لسحب جثة هشام، ولكن لم يقدرا، كأنها جبل ثابت، تثبتت الجثة بالأرض كأنها منها من لحمها ودمها، كأنما سمرت بمسامير فولاذية، أبدى الاثنان دهشات واستغرابات متتابعة لبعضهما بنظرات أعينهما المتسائلة:

- ما الأمر؟

استجمعا قوتيهما وتصلبا كتصلبها وحاولا جاهدين إخراج الجثة ولكن باءت محاولاتهما العديدة بالفشل، فاستعانا بالجروي المولي ظهره لهما، فالتفت على صوت صالح دون أن يتكلم بكلمة، طفرت منه نظرات عبوس وقطوب متأقة بالاستغراب، لم يتحرك حتى أعاد عليه صالح كلامه:

ـ يدك معنا يا جروي، الجثة لا تخرج، كأنها جبل، هيا ساعدنا في نزعها وإخراجها.

وولج معهما الجروي بيديه مستجمعًا قوته العظيمة البائنة من جثمانه القوي وبشرته السمراء وعضلاته البارزة كعروق شجرة عتيقة ضاربة أطنابها في تخوم الأرض، ربما لو وكز أحدا بيده قبضة واحدة لمات من فوره أو لتهتك مخه، ورغم هذه القوة الظاهرة المتلاحمة مع قوة كاشف وصالح إلا أنهم عجزوا عن اجتثاث الجثة وجذبها خارج القبر، ظلفتهم الدهشة وغشيتهم النفرة، متجرعين كؤوس الخيبة والفشل، اتفق شعورهم ولكن تفوق عليهما كاشف بالفزع الذي سكن عينيه، وقفز من شفتيه مرتعشاً قوله:

ـ ماذا سنفعل الآن؟ أظننا لن نستطيع إخراجها، ربما هناك شيء غيبي لا نعلمه عنها.

ابتدره الجروي بنظرات احتقان وغضب جارم، فقال صالح:

ـ سنخرجها حتى لو لزم الأمر أن نهث القبر هثًّا ونهده هدا حتى نسويه بالأرض، لن نفشل أبدًا يا كاشف، سنخرج الجثة مهما حصل فلن نرجع مهزومين أبدا، لكن قبل أن نفعل ذلك

سأدخل أنا القبر لأرى حقيقة الأمر وأدفعها لكما فتتلقفاها مني بالخارج وإذا فشلنا حينها سنهدم القبر ونخرجها

وافقاه الرأي بنظراتهما الساكنة سكون ظلام الليل من حولهم، وجاء صالح ليدخل القبر، فبرق بصره بشعاع الفزع، واتسعت مآقيه، حتى كادت أن تطفرا من محجريهما، وارتعشت يداه الممدودتان وهما مفرودتان على القبر، واصطكت قدماه ببعضهما، وثبت في مكانه لا يتحرك كأنه قبض وفاضت روحه، لا يرمش ولا يتكلم، ابتلعه الرعب واشتفه الفزع وفجأة قذف بعيدًا عن القبر مصعوقًا يرتعد، جريا عليه يفيقانه، فوجداه لم يغب وعيه، أخذ ينظر إليهما في هلع تدور عيناه كالذي يغشى عليه من الموت بلغ قلبه حنجرته، ومادت به الأرض، فرأى كل ما حوله يدور حتى وجوههم كأنها خلعت من مقارها من أجسادهم وطافت في الفضاء حول رأسه وهو زائغ البصر لا يقوى على ابتلاع ريقه وتجرعه.

هبَّ واقفًا مذعورًا كأن الطير تتخطفه عضوًا عضوًا، ثم نظر إلى القبر، وهرول مسرعًا يبتعد عنه، لجمتهما الدهشة والفزع، فهرعا خلفه تاركين القبر مفتوحًا، واعتلوا سيارتهم السوداء في ثوان حتى اختفوا من المكان كله في غمضة عين في صمت يخيم على المقابر.

أحس الحارس «سند» بصمت رهيب حوله وسكون، لم يعد يسمع أصواتهم، فانتابته اندهاشة، فخرج من حجرته مترقبًا حذرًا ليكتشف الأمر، فلم يرهم، خطا نحو القبر في خوف، ترتعش رجلاه والكولب في يده ينير له، سلطه نحو فوهة القبر فرأى ما لم يكن يخطر في باله ولا في أحلامه، كأنه الخيال أو الأحلام رأى حجارة باب القبر التي نقضوها ليخرجوا الجثة رآها تتراص بجوار بعضها، تتحرك نحو فتحة القبر حجرًا تلو الحجر وطوبة وراء طوبة في تناغم عجيب دون أن يرى أحدًا يحركها أو يحملها، تحركت الحجارة وتراصت بجوار بعضها، حجر وراء حجر، حجر يرتفع معتليا حجرا حتى سد باب القبر، لم ير أحدًا يفعل ذلك، حجارة تتحرك وتغلق باب القبر دون أن يحركها أحد؟

ما هذا؟

هل أنا أحلم؟

هل أنا مازلت نائمًا أم أني في قمة يقظتي وصحوي؟

أسئلة دارت في رأسه مخيمة على عينيه الجاحظتين المتفهقتين عن هلع وتعجب وفزع مروع، فلم يتمالك نفسه وخرَّ مغشيًّا عليه.

شيء غريب حدث بدأ مع صالح وانتهى مع سند، أمَّا سند فلم يتمالك نفسه وخرَّ مغشيًّا عليه حتى الصباح، أما صالح فلا يدري أحد ماذا رأى داخل القبر؟ حاول كاشف والجروي أن يعرفا ماذا حدث له؟ وماذا رأى بالقبر؟ ولماذا قذف خارجًا مصعوقًا؟ ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة سوى بنظرات مرتعشة مرتعبة، وظل على هذه الحال ثلاثة أيام، لا يتكلم ولا يخالط أحدًا شاردًا غائبًا عمن حوله، لا يرى إلا ما رآه ولا يتذكر سواه، ولا يدري سبب ما حصل، لكنه على يقين من أن ما رآه كان دفاعًا وحماية لهذا الجسد الطاهر، ربما لأن ما بينه وبين الله عامر، فأنقذه من بين براثنهم العفنة وأنيابهم الوسخة أو ربما لأسباب أخرى لا يعلمها قد خفيت عنه هو، ولكنها لم تخف على أمه التي لم تنم ليلتها وباتت تغسل الأرض بدموعها بكاء ليس عويلًا على ابنها الطاهر، تدعو له أن يستره الله في الآخرة كما ستره في الدنيا، فلم يفضح قط، ولم يعرف عنه سوء خلق أو بذاءة لسان أو فحش قول أو دنس قلب، كان مثالًا للشرف والعفة والنزاهة والطيبة والنبل، ستره الله في الدنيا، لكن لا يأمن أحد مكر الله، ربما هذا كان له في خلواته قبائح ومعائب وهنات ومساوئ لا أحد يعلمها إلا الله فربما يكون من هؤلاء وربما لا يكون، فأخذت أمه على عاتقها أن تثلج قلبها وتروي ظمأها وتنعش فؤادها بالدعاء له أن يؤنس الله وحشته

ويستره عند السؤال وفي القبر ويوم القيامة، وأن يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن كل مكان، وفي كل موقف.

ربما استجاب الله دعاءها وحفظه من أيدي العابثين المارقين المفسدين في الأرض وستره في الآخرة كما ستره في الدنيا أمام الناس، فحمى جسده وحفظه وأرسل جندا من جنده تحفظ هذا الجسد من أيدي هؤلاء المتجبرين غليظي القلوب قساة الأفئدة، الوحوش البربرية، فأصيبوا بالهلع والفزع والذعر الذي لم ينمهم ولم يرحهم بل ظلوا راقدين حول صالح مخلوع القلب من هول ما رأى ووجد، لا ينفك عن ناظريه، وكاشف والجروي لا يعرفان ماذا حدث داخل القبر؟ وماذا رأى؟

ربما أن هناك شيئًا أرعبه وأرهبه حيوانًا أو نارًا أو شيئًا من عذاب القبر لا يعرفان ولم تلتق شفتا صالح بذكر ما رأى فصار سرا دفينا في قلبه أورثه خوفا ورعبا فترة من الزمن حتى تعافى ورجعت إليه روحه التي انسلت من بين جوانحه رويدا رويدا، حتى عاد أقسى مما كان وأفظع، نما بداخله الشر وطما الحقد وطفحت القسوة من داخله، فأخذهما بلدته كفر مجر، يقوي عزيمته باقتناص بعض الفرائس من أهله ومن جيرانه وأقربائه.

فجهز لهم البيت الذي لا يفتح إلا لهم وأعوانهم، على أطراف القرية بالقرب من المقابر، فبدت عليه الوحشة والضباب وغلف بأكسية من السواد الدجوجي ظلوا شهرا لم يسلبوا إلا جثثا قليلة رغم كثرة الموتى في كفر مجر، وهذا من رأي حامد المالكي وإذنه، حيث طلب منهم أن يستريحوا ويستعدوا لاقتناص فريسة من أعظم فرائسهم، زوجة أخي صالح التي غدر بها، وهي الجثة الثانية التي هال « كاشف» أمرها وحالها، وقد ذكر ذلك في مذكراته التي نشرت كتابًا بعد سنين طويلة تحت عنوان «مأساتي في لعناتي ولعنات آل الضحى» قال في هذا الكتاب في الصفحة الستين:

من غرائب الموتى الذين لم يكونوا موتى:

«قد رأيت بعيني ما يفعله الهمجيون المتوحشون سالخو جلود البشر وآكلو لحومهم ومنتزعو أضلاعهم وأعضائهم، رأيتها سيدة من أروع ما يكون يعلوها بهاء الصبا وأبهة الشباب بيضاء نقية كاللبن المصفى، جسد منظم منسق متأق بالإثارة والإغراء بدرجة مستفزة، هالني جمالها، دثرت قلبي ونزعت غشاوة التصلب والتحجر من على فؤادي فتحركت مشاعري لها رغم ظني بأنها ميتة، كانت نصف ابتسامة منقوشة فوق شفتيها، تحرك ذكري ومادت شفتاي فقبلتها ظنّا مني بهلاكها،

ولكن ما رأيته وأحسست به مزعني فانقض واجم التربص والسكون بداخلي:

- إنها مازالت حية.

شعرت بأنفاسها البطيئة كأنها تناديني في خضم لجج البحر الغارب راعني أمرها، وكأن شفتيها تتحركان أو أني أحسست بذلك، هل هذا من كثرة التقائي بالموتى أصبحت أرى أنهم ربما يهمسون أو يتكلمون أو تصدر منهم بعض الإشارات؟! لا أدري، لكن في حالة هند هذه بالذات أحسست أنها حية، وما زاد إحساسي هو دخولي في جدال عقيم واستفسارات عن أجوبة مريضة مع الشيطان صالح.

عرفت منه أنها زوجة أخيه التي آثرته عليه، وعاش يتحرش بها ينتهز الفرص راودها عن نفسها أكثر من مرة ولكنها أبت، واستعصت عليه، فرفع أمرها لأسياده مثنيًا عليها وعلى ما تمتلكه من جسد مربرب مترع بأعضد وأعضاء تامة، فجاءته الأوامر بسرعة إحضارها بأي طريقة قرروا ألا ينتظروا الموت يأتيها فدبروا هم حادثًا لها بحيلة شيطانية من كبيرهم، حيث منحه عن طريق مساعده الخبيث حامد المالكي دواء مخدرًا يهد الأجساد ويخمدها كالنيران، فيبدو الجسد كأنه ميت، لا حراك فيه ولا همس ولا نفس، موت مؤقت ونجحوا في ذلك عن طريق

زوجتـه إحـدى النسـاء العامـلات في هـذه الشـبكة الملعونـة فانسـاقت لرغبـة زوجهـا الرجيـم، وعاونتـه في الطريقـة التـي سـيحصلون بهـا علـى هـذا الجسـد دون عوائـق أو متاعـب، حيـة في صـورة ميتـة ؛ كـي يتمكنـوا مـن الاسـتفادة مـن جسـمها إرضـاء لشـهواتهم الإجراميـة وانحرافاتهـم الدنيئـة»

تفطـن كاشـف لهـذا الأمـر، ولمـا أحـس بذلـك أخبـره بمـا جـال في مسـالك عقلـه ولكـن صدمـه رد صالـح المصـرب، وأمـره أن يهتـم بعملـه فقـط وأن يسـتعد للرجـوع مـرة أخـرى لبلدتـه لاسـتكمال مهمتـه هنـاك، والخضـوع لباقـي مراحـل اختبـاره العسـير كـي يكـون عضـوا في المنظمـة وفـردًا عظيمًـا مـن أفرادهـا مثـل صالـح والجـروي وغيرهمـا.

●●●

(٨)

لم تكن تلك الآلام والأوجاع التي تعتمل بداخله بأقل مما لاقاه ضحاياه وأسرهم، فكانوا في الهم سواء، ولكن العزائم والقوى تختلف، فهناك من يستطيع التحمل أو يصبره اللّه فيصبر، وهناك من لا يستطيع وتنهار قواه وتخر عزيمته ويهوي ما بداخله مع مصيبة مثل هذه أو أقل، فلم تستطع ابنة عمه «ناهد» تحمل فقد ولدها الذي ظلت سنين طوال متأقة بالعذاب مترعة بالدعاء زاخرة بالسعي ليل نهار والذهاب للأطباء في الداخل والخارج وإجراء أكثر من عملية حتى أذن اللّه بقدوم هذا الطفل للعالم بسمة لوالديه ولمن حوله، فرحة ومسرة عامرة تغطي قلوبهم وتزيل أستار الهم والحزن عن واقعهم وتقض جدران القتامة من حياتهم، وتنير طرقهم وأوديتهم ومساراتهم في هذه الدنيا، قد صار لها أهمية في نظرهم وطما أملهم وشرق بالتفاؤل والحياة الرقراقة، حتى جاء ما لا تستطيع الرواسي بحمله، ولا يثبت بال أحد بخطره، أتاهم ما يهد الرواسي ويفلق الحجارة القاسية، فكان مجيئه مجيء حسرة وفجيعة عليهم، جاءهم بانهداد الطود المنيع، وزوال الجبل الباسق.

طفلٌ صغيرٌ، لم يبلغ الحُلم بعد أن كان حُلم أبويه ومنتهى أمانيهم أن يشب بينهم شابًّا فتيًّا يكون سندًا لهما في كبرهما وحال عجزهما، خطف من بينهم، وبينهم الخاطف يرتع يذهب ويجيء يبحث معهم عن مكانه، لكنه لم يتحمل ما يصيبه بالليل والنهار من الهواجس والكوابيس فهرع هاربًا من بينهم ليعود مرة أخرى على مصيبة عظيمة نتأت عن فعله الشنيع ونجمت عن جريمته السواء النكراء، ارتجزت مسامعه بنبأ تدهور الحالة الصحية لابنة عمه ناهد ويأس الأطباء من إرجاعها مرة أخرى من غيبوبتها التي طالت معها بعد صراع فظيع بين الأحزان والحسرات والآهات والأوجاع والأفكار المتناوبة في غيبوبتها تتوارد عليها توارد الإبل إلى الماء حتى اختنقت وتوقف كل شيءٍ بداخلها حتى ظنوا أنها أيام معدودة وتفارقهم كما فارقهم زوجها المنغمس في حالة من الوجوم والصمت الذي طال معه يدرف نحو الجنون ويرقل نحو غيبوبة كغيبوبة زوجته ولكن ليس في عالم آخر، وإنما في عالمه لكنه غاب عنهم بعقله وفكره وهام على وجهه، لا يدرى إلى الآن أين مكانه بعد فشل محاولات البحث الطويلة المتفرقة في كل مكان.

قد تفرق شملهم بفعل هذا اللعين الذي لم تنزل منه دمعة واحدة لما علم بما يؤول إليه حال ابنة عمه من سيء

إلى أسوأ، ولم تهتز شعرة من جسده ربما بدا عليه بعض الوجوم والصمت الذي ما لبث أن تحول إلى ابتسامة جانبية طفرت من عينيه ولاحت في أسارير وجهه، قد خالجه شعور بالفرحة يتوغل فيه، تقربه من هدفه، لو قدم إليهم الجثة الثانية من عائلته فيتبقى له خمس جثث أخرى حتى يظفر بمطلوبه ويصل لمن يسعى خلفه كي يقتص منه لنفسه ولغيره ممن آذاهم وغير مجرى حياتهم مخلفًا دمارًا وخرابًا وهلاكًا دون أن يظهر إلا للقليلين من المقربين والأصفياء، وهم من بلغوا مرتبة عليا من الود.

حلم كاشف بهذا اليوم أن يكون مقربًا يعتلي خالصة الود والمحبة وهذا كما وعد لن يتحقق إلا بتقديم سبعة من أسرته لهم أحياء وأمواتًا، قد قدم الجثة الأولى وانتظر حتى يحين وقت تقديم الجثة الثانية.

وقف يتأملها وهي مدثرة ببطانية بنية اللون محاطة بعدد من الأجهزة الطبية المتصلة بذراعيها وبرأسها في ذلك المستشفى الاستثماري الضخم في المنصورة، حيث نقلت إليه لما ساءت حالتها وطالت غيبوبتها، لم يرض أخوها الأوسط أن تبقى في مستشفى متدهور الرعاية والعناية الصحية، بعدما أشار عليه صديقه أحد الأطباء بسرعة نقلها من هذا

المستشفى، وعلى الفور فعل ما أشير عليه ونقلها إلى أرقى المستشفيات وأغلاها اليوم الواحد بألف جنيه.

لم يتخلوا عنها في ظروفها قاطبة، بعد ما حدث لابنها وزوجها وصارت في غياب عمن حولها، فالتفوا حولها أخواها اللذان معها في البيت ، وأبوها الذي أصر على رؤية ابنته لما أفاق من غيبوبته المتكررة عليه، لم يستطيعوا أن يخفوا عنه خبرها مع كثرة أسئلته عنها وسؤاله المتكرر كل لحظة عمن كانت تخدمه وتقوم على مصالحه، لم يقدروا على منعه دفعهم وقام يستند على عصاه وكأن صحته عادت من جديد رغم عمره المديد الذي بلغ أرذله، وتقعره في مهوى أمراض الشيخوخة المزمنة، ومع هذا قام بزجرهم وانتفض يلملم نفسه تسبقه عصاه إلى ابنته التي أبى جسدها كل شيء لم يعد يقبل طعامًا ولا شرابًا حتى التنفس صار عسيرًا يصاحبه أصوات غير طبيعية كالخشخشات، فأضافوا إلى الأجهزة التي تثقل جسدها جهاز التنفس الصناعي.

لم يستطع والدها تحمل رؤية ابنته ناهد منقطعة عن الدنيا لا يسمع صوتها الرنان كل يوم ينغم الدار ويطربها ونظراتها الملأى بالعطف والحب المفعمة بالحنان تنساب بين جنبات المنزل، والقلب الزاخر بالطيبة يلف الجميع بجناحيه،

لم يتمالك نفسه وأطلق العنان لدموعه فارة على خديه كثور هائج فر من محبسه، وطفق يربت على جسمها بيدين تبرز منهما العروق الخشنة يقول:

- قومي، قومي يا ناهد، قومي يا ابنتي، الجميع في انتظارك

وتحلبت عيناه بالدموع التي انهمرت بكثافة منه ومن الواقفين في الحجرة من أخويها وأبنائهما وخالها وبعض الأقرباء المقربين الذين انصرفوا بعد دقائق إلا الوالد الذي أبى أن يعود بدونها، حاول معه الجميع حتى الأطباء وإدارة المستشفى فأبى إلا أن يكون معها حتى لو ينام على البلاط أسفل سريرها، وكيف له بمثل هذه السن وعنده خمسة من الذكور منهم ثلاثة خارج نطاق القرية ذو قدر عال ومكانة وثراء والاثنان الآخران يعيشان مع أبيهما أحدهما وهو عماد المهندس المعروف بحسن خلقه وبثقافته الواسعة وبهدوئه ورجاحة عقله وقدره المتسنم قلوب الناس وعقولهم والآخر وهو الكبير محسن الذي رغم مرضه المزمن لم يترك والده في مرضه، فكيف لهؤلاء العصبة يتركون والدهم لينام على بلاط المستشفى؟

فحجز له غرفة فخمة داخل المستشفى من الغرف المخصصة لأقرباء المرضى خاصة من يأتون من خارج مصر من الدول العربية وغيرها مرافقين لمرضاهم، كانت بنفس

سعر غرفة المريض ألف جنيه في اليوم وبقي بجوارها لا ينفك عنها إلا عند النوم عندما تأتي الممرضة لتأخذه لغرفته.

مرت ثلاثة أيام وهو على نفس الحال يرى نفس الوجوه يوميّا حتى فوجئ هذا اليوم بقدوم ابن أخيه كاشف، أحد النظر إليه وظل يحدجه ببصره في حنق وبغض لم يستطع مواراته، وكأن هناك شيئا بل أشياء، قد يكون يشك في شيء، ولكن كيف وقد كان طريح الفراش لا يتحرك يقضي حاجته في حفاضته ولا يعلم شيئا عما يدور حوله، ولكن نظراته إليه كانت تخفي كثيرا، جعلت «كاشف» يندهش ويستريب في الأمر، فبادله نظرات استكشاف واستشفاف مشوبة بقلق وارتياب واستغراب، فمال على أذن ابنه الرابض عن يمينه يهمس فيها:

ـ أبوك ينظر إليَّ نظرات غريبة من أول ما دخلت غرفة ناهد

ـ لا عليك، ما أصاب «ناهد» جعله في حالة مزرية فهو لا يعي شيئًا، وأيضًا موت ابن عمه اليوم محزنه لأنه كان يحبه

صعق كاشف من الكلام، قال:

ـ ابن عمه؟!

ـ نعم ابن عم والدك «أبو العزائم» ابن عم والدك وأخوه أيضًا من الرضاعة

صمت قليلًا وكأنه يفكر:

ـ أبو العزائم التاجر.

ـ نعم، مات في الصباح فجأة في متجره، خر صريعًا، والجنازة اليوم بعد صلاة العصر.

هزته الكلمات، وكأنه ظفر بشيء ثمين أو بدرة يتيمة فقال:

ـ ابن عم والدي يعني من العائلة

ـ نعم من العائلة فهو في مقام عمك من النسب وهو عمك من الرضاع وكان في استقبالك هو وأهل بيته عندما قدمت إلى البلدة لتعيش فيها

ـ جميل جدًا

خرجت منه الكلمتان دون وعي من فرط سعادته فانتبه لهما ابن عمه وقال متعجبًا:

ـ جميل جدا؟!

انتبـه لمـا حـدث فقـال محاولًا إظهـار الحـزن وإخفـاء مـا ألـم بـه مـن فرحـة:

ـ أقصد، اللّه يرحمه رحمة واسعة

ونظر في ساعته ثم قال له:

- لـم يعـد علـى صـلاة العصـر سـوى سـاعتين، سـأسـبقكم إلـى البلـدة كـي أسـتعد للجنـازة

- اذهـب أنـت، ونحـن سـنأتي في أثـرك، لقـد كنـا هنـاك منـذ الصبـاح ولـم نـأت إلا منـذ قليـل كي نطمئـن علـى أختنـا وسـنرجع كـي نلحـق بالجنـازة إن شـاء اللّه

- لكن والدك، هل سيحضر؟

- لا أظـن، فأنـت كمـا تـراه مريضًـا، لقـد أتعبنـا حتـى جـاء هنـا، وأيضًـا هـو لـن يتـرك «ناهـد» مهمـا حصـل، أنـت تعـرف مقـدار حبـه لهـا، يحبهـا أكثـر مـن أي شـيء في الدنيـا هـي أفضـل أولاده قاطبـة وأقربهـم إلـى قلبـه، هـي روحـه، كان اللّه في عونـه

- طيـب سـأنصرف أنـا كي ألحقهـم قبل أن يذهبـوا بالجنازة إلى المسـجد

وتهيأ للرحيل، فكأن عماد تذكر أمره فقال:

ـ أين كنت طيلة هذه الفترة يا دكتور كاشف؟

ابتسم ونظر إلى عمه المحدق فيه ثم نظر إلى عماد وقال:

- كنت في القاهرة كما تعلم.

- أنا أعلم أنك كنت في القاهرة، لكن ماذا كنت تفعل؟ لقد قلقنا عليك وحاولنا الاتصال بك أكثر من مرة على جميع هواتفك ولكن دون فائدة

- هاتفي المحمول كان مغلقا أكثر الأوقات، وبالنسبة لهاتف الشقة أنا لم أدخلها منذ....

أحس بارتعاش يجتاح أعضاءه لما هاجت ذكرياته فجأة مع أنه لم ينس طرفة عين، ولاحت قطرات الدمع في مآقيه، لم يتمالك نفسه وهمعت عيناه بتلك القطرات، وارتجف جسده، شعر عماد بأنه أخطأ لما سأله لما رأى من حالته التي تبدلت في لحظة واحدة أحس بخطئه وبأنه قد أجاش ذكرياته المؤلمة وذكره بأسرته فتغيرت ملامحه وأبدى اعتذاره قائلًا:

ـ أعتذر يا دكتور كاشف، لم أكن أعلم أن...

هز رأسه وربت بيده على ذراعه من أعلى وقال:

ـ لا عليك يا باش مهندس عماد، فأنا لم أنس كي تذكرني، لا عليك

ثم ابتسم ابتسامة واهنة وقال:

ـ أنا أشكركم جميعًا على وقوفكم بجواري في أزمتي منذ حصولها حتى الآن

ربت بيده هو الآخر على كتفه وقال:

ـ أنت أخي يا دكتور كاشف، لست أخي وفقط بل أنت صديق عزيز، عشنا مع بعضنا أسعد أيام طفولتنا، ونحن صغار إلى أن تفرقنا في الشعاب والأودية وها نحن نعود مرة أخرى لنلتقي

ـ وإن شاء الله لن يفرقنا إلا الموت

ورأى أن الكلام سيطول وهو يريد أن يستعد للجثة الثانية ويدبر مع رفقائه كيف سيأخذونها، فقال:

- بمناسبة ذكر الموت، سأذهب حتى لا يضيع الوقت في الكلام، فمن الواجب أن يكون أحد منا هناك، سأسبقكم إلى هناك

– في رعاية الله ، مع السلامة

وانصرف وهو يجر الخطى يطفر من فوق درج المستشفى حتى ابتعد عنه ثم تنحى جانبا وأخرج هاتفه، يتصل على رفيقيه يبشرهما بفوز عظيم اليوم.

خلا تفكيره من كل شيء إلا ما يقدمه هذا اليوم لرفيقيه من جثة أخرى لأحد أقربائه اليوم دون ترتيب، لقد كان في باله يدرج أمر ناهد ابنة عمه أن تكون هي الجثة الثانية، ولكن عمرها مازال فيه بقية، فصارت الأمور على غير ما جال بخاطره ليلتقي بجثة «أبو العزائم» مؤجلًا أمر ابنة عمه إلى أن يحين وقتها لتصير الثالثة، فاستجمع قواه ولملم تفكيره حول الجثة الثانية التي أتعبته كثيرًا في نزعها منصهرًا بلهيبها مصوحًا بعذابها الذي بدأت تصطلي به، وكاد أن يفشل في أخذها فظل يفكر في أمرها وهو يحوم يمنة ويسرة حتى إنه فكر في هد القبر وتسويته بالأرض حتى يستطيع أن ينتشلها من عذابها في نظره إلى عذاب آخر، وإن كان نزع الجسد فقط لكن الروح في سعيرها تصطلي، لا يعلم سبب ما لاقاه في القبر من سخونة شديدة في ازدياد مستمر، ربما هذا من عذاب القبر، وربما يكون هذا أيضًا من الأسباب التي جعلت «صالح والجروي» يتركانه يحضرها بمفرده دون مشاركة منهما

قال لنفسه: ربما أن ما حدث لصالح قبل ذلك وما رفض أن يبوح به مما رآه في القبر جعله يقذف مصعوقًا خارجه من الأسباب التي جعلتهما يتركانه بمفرده، ولكنهما ساعداه قبل هذه المرة في جثة هند زوجة أخي صالح.

أسئلة كثيرة وأفكار خبيثة دارت برأسه بعد خروجهما بالجثة وتركه بمفرده في منزل والده يعانق الهموم والأفكار فيما حدث في المقابر فيما يخص جثة أبي العزائم، لقد كان يسمع عنه أنه رجل صالح كريم لا يترك فرضًا إلا أداه، ولا يرى محرمًا إلا اجتنبه ونهى عنه، مواظبًا على الصلوات في جماعة، لا يترك صلاة الفجر حتى في الليالي المكفهرة بالظلام والبرد النافح.

ثناءات كثيرة ومدائح عظيمة سمعها عنه في المقابر من أفواه المشيعين وأيضًا قبل ذلك في الفترة التي قضاها في القرية بينهم، وكان قد زاره أكثر من مرة في منزل والده الشيخ أمين الضحى مرحبًا به وسعيدًا بوجوده بينهم، عارضا عليه مساعداته وخدماته في أي وقت، شعر من كلامه بدفء الصلاح والطيبة والخيرية التي تغمره في ملامحه البيضاء بعلامة الصلاة السمراء تزدان بها جبهته، ومسبحته التي لا تفارقها أصابعه مداعبة طلوعًا ونزولًا، وابتسامته التي لا تغادر شفتيه،

وأياديه الطويلة السخية، كان مكثارًا في الصدقات الخفية والظاهرة، فما من سائل يسأله بل بدون سؤال كان يعطي، كانت أموال كثيرة تخرج من خزائنه على الأرامل واليتامى والمساكين والفقراء كرواتب شهرية يتلقونها في مظروفات مغلقة آخر كل شهر حتى صار أفضلهم وأحسنهم في عيونهم وأقربهم إلى قلوبهم ومعشوقهم خاصة لدى الفقراء والمساكين وذوي العثرات.

رجل بمثل هذه الصفات النادرة والتي نادرًا ما توجد في أشخاص في مثل هذا الزمن، رجل مثل «أبو العزائم» هذا يستعر عليه القبر حرارة وسخونة لا يطيقها كاشف ولا يتحملها برهة واحدة !!

ربما هناك أشياء لا يعلمها كان يفعلها أبو العزائم في خلواته لا يعلم أحد عنها شيئًا إلا الله تعالى، قد يكون هناك دفائن في صدره لا يعلمها إلا الله ولا يطلع على صدره إلا الله، ظاهره كان زاخرًا بالصلاح والخيرية أما باطنه فلا يعلمه إلا الله.

أسئلة كثيرة خطرت في عقله وجالت في سراديب فكره، تدرج وتحجل هنا وهناك حتى غلبه النعاس وهو جالس على كرسي قديم في صحن البيت أمام مقام والده الشيخ أمين الضحى، لعب الكرى برأسه فتمايل على صدره، ثم انتبه

لصوت وكأنه بين النائم واليقظان جفونه لم تلتصق ببعضها بعد، وربما كان نائمًا أو أنه أفاق من نومه على هذا الصوت فنظر أمامه فوجد المقام ينشق نصفين محسورًا عن قبر والده، الذي انشق هو الآخر كاشفًا عن والده أمين الضحى جالسًا في قبره يحدق فيه بضحكات متتابعة متسارعة في شيء من الجنون، انتفض من مقعده، قد هاله ما رأى وراعه ما سمع، ما هذا الذي يحدث؟

تشبثت قدماه بالأرض، احمرت عيناه من الفزع، وارتعشت أطرافه

- هل هذا حقيقي؟ هل أنا في يقظتي أم في كابوس فظيع؟

غاظته ضحكاته المتلاحقة كأنها سكاكين في صدره، يتمايل بيده نحوه ثم يثبتها عليه مشيرا نحوه:

- هل أنت أبي حقّا؟ وهل بعثت من جديد أم أنك مازلت في رقدتك البرزخية؟ وهل أنا يقظ أم أني أغط في نومي وهذا كابوس مريب سأفيق منه قريبًا؟

لم يرد عليه إلا بضحكاته، وغبار الموت يطليه، ارتفعت الدماء في عينيه وثار من داخله وتحركت كوامن الهدوء من داخله، صاح به:

ـ تكلم، من أنت، هل أنت أبي أم.... أم أنت اللعين الذي جاء في صورتك قبل ذلك يؤزني؟

أشاح الكفن الأبيض من على جسمه، وانتصب واقفًا كيوم ولدته أمه، لم يتحلل منه شيء بأعضاء تامة حتى الشامة السوداء الزاخرة بالشعر أسفل رقبته كما هي بشعرها ونتنها لم يتغير منها شيءٍ، رآه يخطو نحوه، فهابه وهاله ما يرى فتراجع بظهره للخلف محركًا يديه يمينًا ويسارًا محاولًا التمسك بشيء حتى لا يخر على الأرض أو يتخذه حماية له من هذا القادم عليه عاريًا وهو يضحك، بينما هو يتولى بظهره للخلف قد محشه الخوف وصهره الهلع وهو يصيح:

ـ ابتعد عني ، ابتعد عني. اذهب إلى الدرك الأسفل من النار، عليك لعنة الله إلى يوم الدين.

ـ كلنا ملعونون يا كاشف

انتبه لكلامه وأقبل بصفحة وجهه عليه يستعلمه ويستفهمه:

ـ ماذا تقصد بقولك كلنا ملعونون؟

قهقه حتى طخطخ وبدت دموعه في عينيه من الضحك:

ـ كلنا يا ابني ملعونون.

ـ لا تقل يا ابني، أنا لست ابنك، وأنت لست أبي

ـ كيف لا أكون أباك؟! أنا أبوك الشيخ أمين الضحى، وهذا قبري في مقامي وها أنا ذا بشحمي ولحمي.

ـ لا، لست أبي، كل هذا ليس دليلًا على أنك أبي، لقد جئتني قبل ذلك بنفس صورتك وهيئتك وملامحك ولكنك لم تكن أبي كنت اللعين الرجيم

تفهق وجهه ضحكًا حتى اشتاط كاشف غضبًا

- من هو اللعين الرجيم هذا؟

- أنت.

- لست وحدي الملعون يا ابني، اللعنة جاءت من عندي أولًا، لا أنكر ولكنك أخذت نصيبك من اللعنة.

- كيف أخذت نصيبي من اللعنة، أنا لست ملعونا أنا أصلي، وأصوم وأعبد الله.

- أنا أيضًا يا ولدي كنت أصلي وأصوم وأتصدق وأتلو القرآن وأفعل الخير والجميع يشهد بذلك، وأنت تعلم ذلك مني، لقد كنت صوّامًا قوامًا مصليّا متصدقًا ومع ذلك أخذت حظي من اللعنة وأصابني شررها

– أنـت الملعـون، أبـي لـم يكـن ملعونًـا، أبـي كمـا قلـت كان صوّامًـا قوامًـا يؤدي حقـوق الله وحقـوق خلقـه، كان شـيخًا حافظًـا القـرآن ومعلمـه النـاس فكيـف تصيبـه اللعنـة؟ أمـا أنـت فملعـون مـن زمـن قـديم.

تعالـت ضحكاتـه ونعقاتـه في جنبـات البيـت المظلـم يتـردد صداهـا في كل ركـن وفي كل زاويـة، تلفـت كاشـف ينظـر كالمجنـون خوفًـا ورعبًـا، ثـم يعـاود النظـر إليـه مـن جديـد ينتظـر رده في ترقـب، حتـى هـدأت نفسـه وخفتـت الضحـكات ثـم قـال:

ـ مازلت لا تصدق أني أبوك؟

صرخ به:

– كيـف تكـون أبـي وتكـون ملعونًـا كمـا تقـول؟! أبـي لـم يكـن ملعونًـا، أبـي كان رجـلا خيـرًا صالحًـا لا يعـرف الشـر طرفـة العـين، لكـن الملعـون معـروف هـو أنـت، أنـت

– كيـف أجعلـك تصـدق أنـي أبـوك وأنـك ابنـي ألا يكفيـك خروجـي مـن قبـري الآن أمامـك وانشـقاق القبـر عنـي في نفـس مـكان دفنـي بنفـس الشـكل ونفـس الملامـح ونفـس الشـامة (وأشـار إلـى الشـامة أسـفل رقبتـه) هـل تريـد منـي أن أخبـرك بأسـرار تخـص والـدك لا يعلمهـا مـن الخلـق إلّا

أنت أم بأسرار تخصك أنت لا يعلمها من الخلق أيضا إلا أنا؟! عندما كنت صغيرًا، وتلعب مع ابن عمك عماد في مخزن العفش القديم، ودخلت عليكما فوجدته....

صاح به:

- لا تكمل، انته أرجوك، وإذا كنت أبي كما تقول فاتركني وشأني

- كيف أتركك وشأنك في مصيبتك هذه التي تتجرف فيها نحو الهاوية؟!

- ماذا تقصد؟

- ما حدث لأولادك وزوجتك

- وماذا ستفعل لي؟ ما حدث حدث وانتهى

- لم ينته بعد، فأنت مازلت معهم تفعل أفعالهم سعيًا للانتقام ممن فعل ذلك مع أنهم مسخرون لتكتمل اللعنات

- ماذا قلت؟ أي لعنات؟

- اللعنات التي كانت سببًا فيما حدث لأولادك وزوجتك

تغيرت ملامحه دهشة وبرزت عروق وجهه تنبض بالدم قد غارت عيناه وفارت دماؤه، ترتعش أصابعه ورجلاه، يكاد أن يهوي على البلاط لولا قبضته الملتصقة بعمود خشبي بجواره، نظر إليه تدور عيناه كالذي يغشى عليه من الموت:

ـ ممم.. ماذا تقول؟

ـ أقول أنت تجري خلف وهم، خيال، بينما الحقيقة أمام قدميك

نظر إلى قدميه في حذر فلم يجد شيئًا

ـ أمام قدمي أين؟ أنا لا أفهم شيئًا، ما هو هذا الوهم؟ وما هي الحقيقة؟ تكلم، أرجوك تكلم، لو كنت أبي حقّا قل لي الحقيقة

ـ لعنة أصابتني وأصابتكم من بعدي

تعرق جبينه في شدة البرد القارص وصرخ به:

ـ أي لعنة، تكلم، تكلم ماذا حدث لأولادي؟ ومن قتلهم؟

انحنى بجسده يرفع كفنه ويلفه عليه ثم ينظر إليه ويقول:

ـ اللعنات السبع، اللعنات السبع لم تنته بعد

صاح:

ـ ما هذه اللعنات السبع؟ ماذا تقصد بذلك؟

جلس في قبره كما كان في هيئة المتربع، ثم قال وجدرات القبر تقترب منه:

ـ سل عنها عمك «سليم».

انتابته قشعريرة وهو يميل بصفحة عنقه يمينًا وهو يقول:

ـ عمي سليم؟!

ثم التفت إليه متهيئًا للحديث:

ـ ما شأن عمي سليم في.....

وكانت الجدرات تقترب من بعضها في رفق حتى التحمت مرة أخرى ببعضها وعاد القبر إلى حالته السابقة فجرى نحو المقام المنشق الذي ما لبث أن التأم قبل أن يصل إليه، يضع يده عليه في اضطراب شديد

هب كاشف مفزوعًا وجد نفسه واقفًا أمام المقام ويداه كلتاهما على ظهره وأنفاسه متتابعة، وعرقه يبلل ملابسه، نظر يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا ثم أسف النظر إلى المقام والرعب يصخده والفزع ينهشه وستائر من القلق تلفه، لا يدري هل كان

هذا حقيقيّا أم أنه أضغاث أحلام أفاق منها فوجد نفسه أمام المقام؟ ولكن كيف يجد نفسه أمامه لو كان نائمًا، نهسته الحيرة والأفكار المقحفة والوساوس المسحفة، وقال بصوت مقضقض:

ـ كيف هذا؟ هل حقّا كنت نائمًا أم أن هذا المقام والقبر انشقا وخرج أبي فعلا وكلمني؟! وهل هو أبي حقّا أم اللعين الرجيم الذي أتاني قبل ذلك وصرح بنفسه؟ ولو كان أبي ما هي هذه اللعنات السبع التي يتحدث عنها وما علاقتها بما حدث لأولادي وزوجتي؟

تجرع ريقه ثم نظر أمامه وقال:

ـ السر عند عمي سليم.

ثم شرد بعقله بعيدًا عندما كان في المستشفى بعد الحادثة مسكتًا لا يتكلم ولا يتحرك متأثرًا بالغاشية التي قهرته وألصقته بالأرض مقيدًا لا كلام ولا حراك ولا أي شيء مما يفعله البشر.

لم يتخل عنه أحد من أهله وأصحابه المخلصين، ظلوا جنبًا لجنب معه حتى عمه سليم الذي جيء به مع من جاء من أهله من بلدته، وظل معه يومين لا يتركه فيهما ينظر إليه بينما كاشف في عالم آخر غائبًا عنهم ببصر شرود محملقًا أمامه، بينما سمعه كان حاضرًا، كان يسمع ما يقال حوله دون

أن يأبه به، كان يسمع كلمات المواساة والتعزية في مصابه ولا يستطيع الرد عليهم.

كان عمه سليم عن يمينه متكئًا بيديه وذقنه على عصاه الغليظة وهو ينظر إليه، لم يكن سواهما في الغرفة، نظر إليه عمه والدموع تتقاطر من عينيه على خديه بارزي العروق والقطوب، وقال بصوت يئن:

ـ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ كل شيء مقدر ومكتوب قبل أن نخلق، ربنا يتولاك برحمته يا كاشف، مصابك شنيع من بين أبناء أبيك لا أعرف ماذا أقول؟ هل ما حدث لك ليس له علاقة باللعنة أم أنها من اللعنات التي تلاحق ذرية والدك؟ لا أدري، ربنا يصبرك ويقويك فمصيبتك مصيبة عظمى قد جرحت عقولنا وسفحت دموعنا وهدت قوانا فكيف بك أنت المصاب الحقيقي بالنازلة الهائلة والفجيعة الفظيعة، ليت هذه اللعنات تتوقف عند هذا الحد وتنتهي، ليتها تتوقف وتنتهي و...

وأحس سليم بخفق أقدام متجهة نحو الغرفة فسكت وهو يكفكف دموعه ويمسح ما تبقى منها من على خديه بطرف كمه، وتحامل على نفسه متكئًا على عصاه حتى وقف واقترب منه وقبل رأسه في دخول طبيب وممرضة لإعطائه جرعة علاجه في وقتها.

انتبه كاشف وقتئذ للقبلة التي على جبينه، ولمحه من طرف عينه، لم يع كلامه وإن أحس به وبوجوده، استفاق كاشف على ما سمع، كيف لم يعد التفكير في هذا الكلام بعد ما رجع لحالته الطبيعية ربما لانشغاله بأمر أولاده وزوجته وسعيه خلف الجاني.

وضع يده على ذقنه ثم تحول ببصره مرة أخرى إلى المقام وضرب عليه بيده، وقد انفطرت شفتاه عن ابتسامة النصر، ثم قال:

ـ ما رأيته وما سمعته من أبي أو من شيطانه أو شيطاني أيًّا كان من هو يتوافق مع كلام عمي المبهم والغامض، هنالك شيء مشترك وربما السر عند عمي فعلًا...

●●●

(٩)

ربض ينظر لعمه متربصًا وعمه ينظر إليه مستكشفًا سر هذه الزيارة المفاجئة منه في المستشفى الذي ترقد فيه ناهد غائبة عن الأصوات والحركات تخطر نحو الهلاك وسطهم.

لمح الدموع الغزار تنساب من عيني عمه على خديه حزنًا على ابنته الدارفة نحو الموت حتى صارت على مشارفه، شعر والدها بموتها وأحسه كما شعر بموت أخيه أمين، اشتم رائحة الموت تنبعث من سريرها كما شعر بضياع فاروق قبل أن يختطف بدقائق، انسلت بعض قطرت الدمع من جفنيه حول أنفه من الجانبين، بينما تطعمه ابنته البطاطس المسلوقة.

هرعت ابنته ناهد تجفف عنه تلك الدموع الحارة التي انبعثت من عينيه الذابلتين وهي في ذروة دهشتها واستغرابها، بعدها بدقائق ظهر أمر اختفاء ابنها.

لم يخطر في بال الشيخ الهرم وقتها صحائف الماضي القديمة والأسرار الدفينة، ربما هذا حادث عابر، طفل اختفى مثل غيره من الأطفال الذين يسرقون بالليل وبالنهار، وليس هناك رابط بين أمر اللعنات وأمر اختفاء حفيده، كما أنه كان متيقنًا أنه بعيد جدًا عن أمرها، فلم يكن له شأن بها فهو

وإن كان يعلم بأمرها ولكنه كان بمنأى عنها في اعتقاده، لذلك لم تشغل أي حيز من تفكيره ودفنها في باطنه كما دفن أخوه، ولكن عندما ذكره بها كاشف يواجهه بأمرها معلنًا عنها بقوله بعدما ظلا الاثنان يتبادلان نظرات الحيرة والشك والارتياب، قال كاشف:

ـ ما أمر اللعنات السبع يا عمي؟

ارتجت مسامعه، وأثر كلامه موقعه في قلبه، وكأن رصاصة اخترقت مخه أو شرمت قلبه، أرشقه بصره، قد ارتعشت أصابعه القابضة على رأس العصا الغليظة وقال بصوت مغرورق بالذهول والتعجب:

– ماذا قلت؟

– قلت لك ما حكاية اللعنات السبع؟

– عن أي لعنات سبع تتحدث؟

– اللعنات السبع أمرها عندك وهتك سترها بين يديك هكذا أخبرني أبي أو من يقول إنه أبي

– كلامك عجيب اليوم يا ابن أخي، أراك تهذي

- كنت أهذي قديمًا لكني الآن في ذروة رشدي وتمام إفاقتي وكمال صحوي ويقظتي، وأنا أعي جيدًا ماذا أقول، لقد أتاني ورأيته وأخبرني عن أشياء كثيرة لم أفهم منه شيئًا لأني أنكرته وابتعدت عنه لكن عندما تحدث عما أصاب ذريته تحدث عن اللعنات السبع بشكل مجمل، لم يفصل لي في أمرها وسرها، وعندما سألته قال اسأل عمك «سليم» السر عنده

برق بصره حتى سدرت عينه وانحسرت نظراته عن دهشات وقلق مريع اشتفه وملك جوانحه حتى وصل به إلى حالة من الفزع بدا ذلك في نظراته الغائرة ثم قال:

- أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدث، قلت لك أنت تهذي، فكيف رأيت والدك وقد أرم من سنين؟!

- قلت لك رأيته ربما في منامي وربما حقيقة لم أكن في تمام إدراكي ولكن اليقين عندي أني رأيته وكأني كنت بين اليقظان والنائم

- كيف رأيته ومتى؟

- رأيت مقامه قد انشق تلاه انشقاق القبر ثم خرج منه نازعًا كفنه عن جسده وانتصب عاريًا يكلمني ويفض

لـي بعضـا مـن أسـراره التـي يقينـا تعلـم شـيئا منهـا إن لـم تكـن تعلمهـا كلهـا

استجمع قوته الواهنة وحمج عينيه وقال بصوت الواثق:

- أنـا لا أعلـم شـيئًا عـن أبيـك، ولا أعـرف شـيئًا عـن هـذا الهذيـان الـذي تهـذي بـه، كيـف يخـرج والـدك مـن قبـره وقـد مـات مـن سـنين غابـرة؟! هـذا كلام لا يصدقه مجنون فضلًا عـن عاقـل، كيـف ينشـق مقـام والـدك وينشـق قبـره ويخـرج يحدثـك عـن لعنـات وعـن بلايـا أو مصائـب ؟! ليـس لـي شـأن بمصائبـك ولعناتـك أنـت ووالـدك

- بلـى لـك شـأن يـا عمـي، طالمـا أن أبـي قـال لـي اسـأل عمـك فالسـر عنـده وعنـدك إذن أنـت لـك شـأن وتعلـم كثيـرًا وأبـي لا يكـذب

انفطـرت شـفتاه عـن ابتسـامة ثـم تحركـت بالضحـك حتـى تعالـت إلـى قهقهـات مفزعـة وقـال:

- أبـوك لا يكـذب !! لكـن دعنـا مـن هـذا مـا أدراك أنـه أبـوك؟ ربمـا يكـون جنيًّا أو شـيطانًا.

- معـك حـق، ربمـا يكـون شـيطانا لأنـي رأيـت كبيرهـم أتانـي في صورتـه قبـل ذلـك، فظننـت هـذه المـرة أنـه هـو، ولكنـه

أكد لي أنه أبي وربما أكون صدقته لأن الآخر أخبرني بنفسه في نهاية الأمر أنه عدونا

تحامل على عصاه حتى وقف وقد برّق عينيه وحمجهما ترتعش أوصاله وأطرافه يصلق به:

ـ ماذا تقول يا كاشف؟ هذا هو الهذيان بعينه، ربما آثار المصيبة التي ابتليت بها من فقد أولادك وزوجتك ربما آثارها مازالت عالقة بك ومستحوذة عليك، أنت لم تشف بعد، أنصحك أن تمكث في مصحة نفسية للعلاج مدة طويلة حتى تبرأ وتعود إلى رشدك وعقلك

تحرك رأسه في هزات متتابعة ثم توقف وقال:

ـ ثورتك هذه لا فائدة منها ولا سبب لها، لماذا ثرت هكذا؟ أنا لم أقل شيئًا يشينك أو يسؤوك أو يقدح في شرفك حتى تنتفض هكذا في سنك هذه وتذكرني بما حدث لأولادي كأنك تعيرني أو تهزأ بي، أنا في كامل قدراتي العقلية وفي كامل يقظتي ووعيي، وقد رأيت والدي حقيقة وليس حلمًا أو منامًا فلم يكن أضغاث أحلام أو كوابيس مفزعة إنما كان حقيقة هو أبي بشحمه ولحمه وشامته المشعرة أسفل رقبته، وقد خاطبني كلمني وكلمته وأخبرني بأن ما حدث لأولادي هو بسبب اللعنات السبع، ولما

سـألته عنهـا قـال لـي السـر عنـد عمـك سـليم، إذن أنـت تعـرف أمـر هـذه اللعنـات السـبع وسـرها وحقيقتهـا، بـل ربمـا تكـون شـريكا لـه في أشـياء لـم نكـن نعلمهـا فأنتمـا كنتمـا متلازمـين كأنكمـا ملتصقـين ببعضكمـا لـم تكونـا تفترقـان عـن بعضكمـا إلا عنـد النـوم وكثيـرًا مـا كنتمـا تنامـان سـويا، ونحـن أولاده لـم نكـن قريبـين منـه بدرجـة قربـك لـه ولـو بمقـدار واحـد في المائـة بـل كان يبعدنـا عنـه دائمـا أنـا وأخـويَّ عندمـا يبلـغ الواحـد منـا الحلـم يخرجـه مـن البيـت ويرسـله مـع خادمـه مـرزوق إلـى بيتـه القـديم في القلعـة نكمـل تعليمنـا ودراسـتنا هنـاك ونعيـش حياتنـا بعيـدًا عنـه لا نـراه إلا كل سـنة مـرة، هـو الـذي كان يأتـي إلينـا كان يأبـى بشـدة رجوعنـا بلدتنـا مـرة أخـرى، كأنـه كان يخـاف مـن شـيء أو أنـه لا يريـد أن نعلـم عنـه شـيئًا، لكـن هنـاك شـيء غريـب تذكرتـه الآن، أنـا الوحيـد مـن أبنائـه الـذي ظـل معـه ثـلاث سـنوات بعـد بلوغـي حتـى أنهيـت المرحلـة الثانويـة وأنـا في حمـاه بعدهـا لفظنـي إلـى القاهـرة ومـن حينهـا انقطعـت صلتـي بالقريـة، لـم يكـن يسـمح لـي ولا لأخـويَّ أن نعـود هنـا مـرة أخـرى، كان هـو الـذي يأتينـا كل عـام مـرة، لـم نكـن نشـغل بالنـا كثيـرا بهـذا الأمـر طالمـا أننـا نعيـش حياتنـا في رخـاء وأمـن، طلباتنـا تقضـى وأمورنـا تسـير بانتظـام فلـم نشـغل بالنـا بـأي شـيء يحـدث حولـه ولـم نفكـر في الأسـباب التـي دعتـه لإبعادنـا عنـه، ولـم نفكـر في جلوسـه المسـتمر معـك غالـب وقتـه في تلـك الحجـرة الأرضيـة التـي دفـن فيهـا في صحـن الـدار، والتـي لـم

يدخلها غيرك، كما أنك قلت إنه أوصى بذلك أن لا يدفنه غيرك ولا ينزله في قبره غيرك ولا يكشف كفنه ولا يراه غيرك، كنت أنت الموكل بكل شيء، ونفذت وصيته كما قلت لنا، ونحن صدقناك فلم نكن معه حتى نعلم حقيقة هذه الوصايا التي أعلمتنا بها، كنا نثق فيك لأنكما كنتما كالتوأم وهو كان يحبك ولا يأتمن أحدا على أسراره غيرك، كنت تعرف عنه كل شيء، أما نحن فأبعدنا عنه وقربك أنت، لا نعلم ما سبب إبعاده لنا، أكيد كان يريد أن لا نعلم عنه شيئا، ربما يكون السر هناك في صحن الدار في الحجرة التي دفن فيها.

- ما قلته هذا كله ليس به غرابة ولا عجب فالجميع كان يعلم أني ووالدك مقربان وأنه لم يكن يثق في أحد غيري وأنا أيضا لم أكن أثق إلا فيه، وليس هناك أسرار خطيرة بيننا أو حتى غير خطيرة، هو أخي الصغير كنت أحبه وكان يحبني وهذا كل الأمر، وقد أوصى بما قلته وأنا نفذت وصيته هذا كل ما في الأمر.

- وما أمر اللعنات السبع التي قال عنها؟

- هذه خرافات ليس هناك أي لعنات

- لا، أنا متأكد أن هناك لعنات، والسر عندك وفي الحجرة الأرضية التي دفن فيها

احمرت عيناه وهمجت من الغضب فصاح به:

- إني أحذرك أن تقترب من هذه الحجرة، أنت لا تعلم.....

قرضب كلامه وانفصل عن حدته بصوت مخنوق كأنها حشرجات وخشخشات تصدر من حنجرة ناهد، تبعتها شهقة شديدة كأنها الروح تنزع منها، انتبه الاثنان لهذه الأصوات المقصلة، فاقترب منها ببطء في لهفة وخوف وهو يصيح:

- ناهد، ناهد

ثم يصيح نحو باب الغرفة وهو في مكانه:

- دكتور، دكتور بسرعة، ناد على الدكتور يا كاشف

يضطرب كاشف ويدور بعينيه على وجهه ووجهها، فيبتلع ريقه ثم يهرول نحو الغرفة خارجًا باحثًا عن الطبيب

ولكن إذا جاء وقت الرحيل رغمًا عن الجميع لا ينفع طبيب ولا دواء، باءت محاولات خمسة أطباء بالفشل، كيف وقد خرجت الروح منها بعدما مرت أمام عينيها صور ابنها فاروق بضحكاته التي كانت تثير حياتهم وتنير ظلماتهم، يجري يلعب أمامها يلهو ويعبث بالأشياء.

لم يأتها منذ أن غاب واختفى، وانجرفت في غيبوبتها، كانت أحلامها ظلام دامس، منذ أن غابت عمن حولها أتاها نور ابنها مؤخرًا، رأته يجري أمامها وهي تهرول خلفه كالمجنونة، تنادي عليه ليتوقف، ولكنه لا يسمع لها، فتوقفت قد تعبت من الجري وانقطع نفسها، وانحنت برأسها إلى الأرض، وهي تلهث من الجري، ثم وجدت يدًا ممدودة أسفل ذقنها رفعت رأسها فوجدته هو، تهللت تقاسيم وجهها، واستبشرت، ومدت يدها له، وقد رأيا يدها وهي ترتفع عن السرير قليلًا، فاندهشا وأحسا بأنها أفاقت وعادت إليها الحياة من جديد، ولكن جاءت بعدها الخشخشات متبوعة بالشهقة العظيمة.

لم تنفع محاولاتهم العديدة مستعينين بجهاز الصدمات الكهربائية اليدوي لإنعاش القلب، تعددت طرقهم في محاولة إفاقتها وطمأنة من يحيط بهم في تلك الغرفة، حيث وقف والدها يترقب والدموع منصهرة في عينيه ويداه ترتعشان وهما قابضتان على عصاه، مسندا ظهره لجدار يترقب متابعًا يدي الطبيب حازم وهما ممسكتان بقطبين في شكل مقابض، يخشى أن ينطقها معلنا موتها.

وأخوها عماد الذي يرفع بصره إلى السماء في قلق، حيث جاء كعادته في كل يوم لزيارة أخته والاطمئنان عليها وعلى

والـده، ففوجـئ بالأطبـاء والممرضـات يفزعـون نحـو غرفـة أختـه، فهـرع لا يـدري مـاذا حـدث؟ حتـى فوجـئ بهـذا العـدد الكثيـف مـن الأطبـاء والممرضـات حولهـا مـن بينهـم أبـوه وابـن عمهـا كاشـف، اقتـرب منـه:

- ماذا حدث لها يا كاشف؟

أشـار كاشـف عليهـا، توقفـت حواسـه، وتخـدرت أعضـاؤه، ومشـى خطـوات علـى أصابعـه، ووقـف خلـف الدكتـور حـازم صديقـه يسـأله عـن حالتهـا ومـاذا حـدث لهـا؟ ولكنـه لـم يلتفـت إليـه ولـم يكلـم أحـدًا ظـل في محاولاتـه الفاشـلة يصدمهـا بالكهربـاء علهـا تفيـق أو تعـود إلـى غيبوبتهـا مـرة أخـرى، ولكـن مـا حيلـة الإنسـان وقـد خانـه أملـه، وجـاءه الأجـل؟ قـد دعيـت فأجابـت مـن دون تعريـج علـى اسـتعداد، قـد غـاص المـوت علـى حبـات القلـوب وخلـص إلـى مكامـن الـروح، نعيـت عليهـا غربانهـا، لـم تغـن عنهـا طراوتهـا في العيـون، وحلاوتهـا في القلـوب.

فالتفـت إليهـم وعينـاه شـرقة بالدمـع تتقاطـر بعـض حباتـه خلـف منظـاره الطبـي، ينظـر إليـه عمـاد في حسـرة، يتسـاءل بيديـه وبعينيـه، يرفـع حـازم بصـره ويقـول بصـوت بـاك حزيـن:

- البقاء لله.

انتبـه الأب لكلامـه كالمصعـوق الـذي عايـن هـول المـوت، فحجـل نحـوه وعصـاه ـ في يـده اليسـرى، يمسـك معطفـه الأبيـض بيـده الأخـرى ويشـده نحـوه ـ في عنـف:

ـ ماذا قلت؟

لـم يسـتطع حـازم أن يفتـح عينيـه ـ في وجهـه لـم يقـدر علـى النظـر ـ في عـين هـذا الأب الـذي اقتـرب منـه أكثـر ـ في تلـك الأيـام التـي مكـث فيهـا مـع ابنتـه، بـدا لـه أنـه شـيخ وقـور يحمـل بـين جنباتـه قلبـا رحيمـا، يحـب ابنتـه «ناهـد» لدرجـة الجنـون، فكيـف ينظـر ـ في عينيـه ويـرى دموعـه ونظـرات الفـراق والألـم تخـط عينيـه خطـا، فلـم يرفعهـا وقـال ورأسـه ـ في الأرض:

ـ لكل أجل كتـاب يـا شـيخ سـليم، هـذا قـدر الله، ليس بأيدينا حيلـة، لقـد فعلنـا كل مـا ـ في وسـعنا.

ارتعـدت جـوارح الشـيخ سـليم، واختنقـت صرختـه بداخلـه، ودارت عينـاه كأنـه اكتحـل بالغبـش، قـد أشـاطت بنفسـه بلابـل الهمـوم المشـتطة، وطـوق بحبـال الانخـزال والكمـد، وفقـد الاصطبـار والتحمـل، ملـك الجـزع صبـره وعـزاءه وجعـل ناظـره ـ في إسـار بكائـه، دمعـه واكـف وقلبـه واجـب دهـش، وأطرافـه تهتـز وترتجـف، تملمـل واضطـرب والتهـب واشـتعل، مـن النيـران المتقـدة بـين الأحشـاء والضلـوع، فتحلبـت دموعـه علـى خديـه، وكاد أن يخـر

على الأرض لولا أن ابنه عماد احتضنه من الخلف كي لا يهوي على الأرض فخر بين ذراعي ابنه الذي تحامل ليرفعه كي لا يلامس الأرض، لمح «كاشف» وهو ينظر إلى ناهد وقد غُطي وجهها، يشرد عقله كأنه يفكر في شيء، غائبا عن الجميع منزويا في سراديب عقله، قد بدا الحزن عليه استفاق على صوت عمه:

ـ أنت، أنت يا ابن أمين.

التفت إليه محركًا صفحة وجهه ببطء، فهاله عصا عمه فوق رأسه تصلمه وتخر فوقه كجدار منقض، فصاح من هولها، ووضع يده على رأسه فرأى الدم ينزف من رأسه يخضب جبهته ويديه، اضطرب جمعهم والتفوا حولهما وأمسك عماد بأبيه وهو في قمة دهشته واستغرابه من ضربه لكاشف فصرخ بوالده:

ـ ماذا فعلت يا أبي؟

فقال وصوته يتهدهد وهو يشير نحو كاشف:

ـ هذا الشخص ملعون، منذ أن حل البلدة والمصائب تتوالى علينا

يشفنه في غضب وغيظ موجها كلامه إليه:

ـ فارقنا، ابعد عنا، ارجع إلى حيثما كنت «بلعناتكم»

انتبه لكلامه وأنزل يده من على رأسه والدم يذرف وممرضة بجواره تحاول تطبيبه وتضميد الجرح، يركز مع كلام عمه وكأن سهما أصابه لما قال «بلعناتكم» فقال:

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت لك اخرج من بيننا لست منا ولسنا منك، ليس لي شأن بلعناتك ظللت عمري مترقبًا هل أصابتني أم لا؟ واليوم تأكد لي أنها أصابتني

يندهش عماد فيقول:

ـ اصمت يا أبي، لا تتكلم

يدفع يده ويصرخ:

ـ دعني، دعني سأتكلم، هذا الشخص ملعون عندما حل علينا أصابتنا لعناته التي ترافقه أينما حل.

صرخ عماد بوالده:

ـ قلت لك اصمت يا أبي، أنت لا تعرف ماذا تقول؟ من هول المصيبة طاش عقلك، اسكت، أو اخرج من هنا

قال كاشف:

ـ دعه يا عماد، دعه يتكلم ويخرج ما في مكنونه

انهمرت دموع سليم كالسيل على خديه يئن بالنشيج والنحيب، يهوي فوق أقرب كرسي خلفه بمساعدة ابنه، وهو يقول بصوت منفطر منكدر:

ـ ماذا أقول؟ لم يعد هناك أي كلام يقال، ناهد ماتت، ماتت وانتهى كل شيء، زهرتي التي كانت تفوح عطرا ذبلت وتفتت، الشمس التي كانت تنير حياتي انخسفت وانطفأت، راح كل شيء وضاع كل شيء، راح كل شيء وضاع كل شيء، فاروق راح ونادر راح وناهد راحت، وعمري راح، الآن عرفت لماذا أطال الله في عمري؟ كي أصطلي بنيران فقد أعز حبيبة لدي، كي أعاقب في دنياي، لم تفتني اللعنة، نالني شيء منها توقعت ذلك، ولكني لم أكن أتصور أنها ستكون في أعز الناس ناهد ناهد، ناهد

ويرقل في البكاء والنشيج، ينظر إليه الجميع وهم في حالة من الخشوع كأن على رؤوسهم الطير، قد انثالت الدموع من عيون بعضهم، أحد كاشف النظر إليه دون أن تطرف عيناه ودون أن تذرف دمعة واحدة، يحدق فيه ينتظره يكمل كلامه

عن اللعنات التي باتت لديه يقينا وخبرا مؤكدًا، لم ينزع عينيه من عليه.

نظر إليه عماد في دهشة وتعجب وارتياب وهو يضع يديه على كتفي والده المنغرق في البكاء والعويل، بينما كاشف لا تنفك عيناه من النظر إلى وجه عمه سليم ودموعه التي تحترق فوق خديه.

●●●

(١٠)

سمع ما هزّ كيانه وأقضّ بنيانه من عمه سليم إثر تعرضه لصاعقة فقد ابنته، فجعل يتفوه بكلام رآه جميع الواقفين وعلى رأسهم عماد هذيانا وضربا من غياب العقل والجنون، إلا «كاشف» الذي رأى ذلك واقعًا آخر حقائق مخيفة لا يعرفها سوى عمه، وقد أشار إلى ذلك لما صرخ به وكان قد أنكر ما يخفيه قبل قليل، ولكن عظم المصيبة وثقلها عليه جعله يتكلم بكلام رجّ الأرض من تحت قدمي كاشف، وقوض أركانه، وسلب بدنه قواه، وترك نفسه مولهة وعقله مدلها مجروحًا، وملأ صدره ارتياعًا جعله لا يقوى على التفكير والتصرف، فلم يعد يعرف أين طريقه؟ ومن أين يسير؟ هل يسير كما هو سائر مع صالح والجروي وأعوانهم وكبرائهم، أم أن طريقه عند عمه وبدايته من حيث صارحه بشيء من ذلك في المستشفى؟!

لم يعد يدري ما الحقيقة؟ وأين هي؟ قد شوش تفكيره، وزادت أثقاله، هل يخبرهم بأمر الجثة الثالثة وهي ابنة عمه ناهد ليصبح أمامه أربع جثث فقط حتى يصل إلى الدكتور كبيرهم الذي علمهم الخطف والسلب والنهب، أم يلزم عمه الذي دخل في غيبوبة قبل أن تغسل ابنته، هل يلزمه ليعرف حقيقة الأمر منه أم ماذا يفعل؟

وإذا لم يخبر « صالح والجروي» ربما يسوء موقفه عندهم، ولربما يخبرون من هو أعلى منهم فيعلم الدكتور بأمر مخالفة كاشف أوامرهم وخيانة عمله إذ كانت عيونهم منتشرة في كل مكان يحل فيه، وكان كاشف يعلم ذلك جيدا، فغلب على ظنه أنهم سيعلمون بأمر هذه الجثة وبمدى صلتها به وحينها لو لم يخبرهم بنفسه ويطلبهم لأخذها سيكون أمره إلى بوار وهلاك فربما يطرد ولا يعرف حقيقة من ذبح أسرته ونهش أعضاءهم وتضيع جهوده السابقة أدراج الرياح كأن لم تكن رغم أنه قطع معهم أشواطًا كثيرة واقترب أكثر وإذا طرد سيضيع كل ما كان يسعى نحوه، أو ربما يقتل ويذبح ويفعل به كما فعل بأسرته وغيرهم ممن قتلوه وسلبوا ما بداخله ثم يحنطون جسده.

وإذا أخبرهم قد يأخذون الجثة وسيكون أمامه أربع جثث أخرى وقد يطول الطريق أمامه ويصعب عليه الوصول إليهم، فلربما يفشل في إحضار جثث أخرى وربما يكتشف أمره، وقد نوه إلى ذلك عمه سليم وأشار بأنه وراء ما حل بهم، فمن وقت دخوله البلدة والبلايا هطلت عليهم كالأمطار المحرقة، وهذا قد يجعلهم يفشلون في أخذ الجثة وانتشالها لو فكروا في ذلك فقد أحس بنظرات مقلقة في عيني عماد وشك وارتياب من ناحيته ربما يقول والده له شيئا ويقص عليه أمر اللعنات التي

لا يعرفها وحينها سيوضع تحت أنظارهم وقد يكتشفون حقيقة أمره وحينها سيكون مصيره القتل.

فهو بين قتلين هنا أو هناك من أهل بلدته لو كشفوا أمره ومن رجال الدكتور لو خالفهم وعصى أوامرهم.

أسئلة عديدة واستفسارات مريرة دارت في رأسه وأحاديث نفس أطارت لبه، ووساوس شيطانه غلفت قلبه، لا يعرف كيف الفكاك منها؟ فلم يدر ماذا يفعل؟ ومن أين يبدأ؟

تحير وطاش لبه في قبضة التفكير، لم يعد يهمه أن يقتل أو يطرد من أي الفريقين، كل ما كان يهمه هو الوصول إلى الحقيقة في أسرع وقت حتى يعرف ماذا سيفعل؟ ومن أين يبدأ انتقامه؟

فعزم أمره على أن يبدأ بعمه ولا يتركه حتى يفض له أسرار أبيه ويكشف الغطاء عن حقائق اللعنات السبع وغير ذلك مما لا يعرفه عن أبيه سوى عمه سليم، عزم على ذلك بعد أن أبى سلب جثة ناهد بنت عمه، وقرر ألا يتعاون مع صالح والجروي ويترك الأمر على ما هو عليه، دون إخبارهم بشيء فربما يعلمون وربما لا يعلمون، فلماذا يحمل نفسه أكثر من طاقتها؟

فآثر الصمت كأن شيئًا لم يحدث حتى يكتشف الحقيقة من عمه الذي مرض وساءت حاله وبدأ يتلاشى أمره ويأفل نجمه، بعدما تكاثرت عليه الأحزان والحسرات بموت ابنته حتى صار ملازما لفراشه، صامتًا غائبًا عن الحاضرين حوله حتى بعد أن أفاق من غيبوبته وكأن أحدًا ليس أمامه وكأنه لا يراهم، لا يسمع لغبهم وصخبهم حوله، لم يكن في عقله وباله وعلى لسانه سوى اسم ناهد، فكان يصرخ به بصوت واهن منطفئ

لا يرد على أحدٍ ولا يكلم أحدًا، لم يكن لسانه يلهج إلا باسمها، فأبكى من حوله من أولاده الآخرين وأقربائه حتى بكى كاشف عندما ذهب لزيارته وجلس عند رجله وخلفه ابن عمه عماد في حالة من الصمت والركود بينما كاشف يذرف دموعا ويسفحها على خديه، لم تكن دموعًا حقيقيةً من أثر البكاء وإنما هو تباكي وافتعال هذا البكاء حتى يظفر بعطف عمه عليه ويقص عليه حقيقة ما رآه في منامه وما سمعه منه، فربض عند قدميه يقبلهما وهو يسبل العبرات، مقبِّلًا يدي عمه مطلقًا قطرات من الدموع عليهما، حتى ابتلت يداه حتى شعر به عمه، فأدنى نظره ولمحه من طرف عينه اليمنى ورأى ما فيه ابن أخيه من البكاء والألم فسحب يده قليلًا ثم

سرعان ما أعادها مرة أخرى ولكن هذه المرة فوق رأس كاشف يربت على رأسه، فانتابته دهشة كما اندهش وتعجب عماد، فتصلب بصره عليه والدموع على خديه ينظر إليه في حدب، واستعطاف، ويقول بصوت رخيم:

- قم يا عمي، قم، أرجوك، أنت في يدك بإذن الله إنقاذي مما أنا فيه، قم حدثني عما سألتك عنه، أخبرني كل الحقائق، هذا أوان ظهورها بعد كل ما حدث لي ولك ربما تكون آخر الشرور واللعنات فننجو بإذن الله وتنتهي هذه اللعنات، إذا كنت تريد الحياة للآخرين قم وأخبرني حكاياتك كلها وحكايات أبي الملعونة التي لا يعرفها من البشر سواك

رمقه في وهن، ثم هز رأسه والدموع واكفة في عينيه ثم أعرض عنه بصفحة وجهه ناحية اليسار، كأنه لا يريده ولا يريد الحديث معه، فتملكه خوف وفزع وقام يجر أذيال الخيبة والفشل من بيت عمه المدلهم حالك السواد، حدج في عمه الذي مازال يشدو باسمها واسم ابنها ودموعه تبلل مخدته، حرك رأسه قليلًا ثم قال:

- سأتركك الآن يا عمي حتى ترتاح قليلًا، وسآتيك غدًا وسأظل آتيك حتى أعلم منك كل شيء.

ثـم ولـى وجهـه ناحيـة البـاب فوجـد عمـاد مسـجداً ببصـره عليـه قـد طمـا الشـك في قلبـه وزخـرت عينـه بالذهـول والدهشـات مـع قليـل مـن الرقـة والحـدب عليـه تبـادلا نظـرات بمعـان مختلفـة ثـم انصـرف كاشـف لمنزلـه.

ولـج بيتـه في ظـلام غربيـب مـن حولـه، يتسـنمه صمـت، ويطبـق علـى أنفاسـه هـم، ويسـحفه وجـوم، قـد اشـتفته الوسـاوس والهواجـس وجثتـه الأفـكار والحيـرات المتلاحقـة علـى قلبـه وعقلـه، تقـوده قدمـاه في خطـوات بطيئـة أشـبه بخطـوات العجائـز، حتـى وقـف أمـام المقـام، أحـد نظـره نحـوه، قـد شـخص بصـره وأصابـه رعشـة مـن الداخـل في عـروق قلبـه، أحـس برهبـة عظيمـة وهـو يدقـق نظـره في هـذا المقـام المحفـوف بسـياج مـن سـتة أعمـدة نحاسـية تربـط بينهـا سلاسـل حديديـة، عبـر بعينيـه تلـك الأعمـدة إلـى تلـك البـردة الخضـراء التـي تغطيـه بنقـوش وزخـارف غامضـة، كأنهـا طلاسـم، وكأنـه أول مـرة يـرى المقـام في حياتـه، احتفـه الوجـوم قـد تفهقتـا عينـاه عـن ذهـول وتدلـه، أول مـرة في حياتـه يدقـق النظـر في مقـام والـده حيـث يرقـد قبـره أسـفل تلـك الجـدران، لا يـدرك إلا ظاهرهـا أمـا باطنهـا فـلا يـدري مـا بداخلهـا ولا أحـد يعلـم سـوى عمـه الراقـد علـى سـريره.

قد منع الجميع حتى أولاده الذين هم من صلبه لم يروه ولم يكشف لهم عن أي جزء من جسده حتى وجهه كي يقبلوه قبلة الوداع لم يروه، منعوا حتى من النزول إلى قبره، بل إنهم لم يخبروا بموته إلا بعد سبع ساعات وعندما حضروا كان كل شيء انتهى غسل وكفن ووضع في حجرته الأرضية ممدا على سريره في كفنه الأبيض.

قد نفذ أخوه سليم ما أمر به بدفنه في حجرته السرية التي لا يعلم أحد عنها شيئا إلا هو وأخوه دون أن يباشر أحد من أبنائه شيئًا مما يتعلق بتجهيزه وتغسيله وتكفينه ودفنه كما أمر فأعطى الأمر لأخيه في شكل وصية، ولم يقدر على عدم تنفيذ الوصية وفعل ما طلب منه، وقد عرف أسرار أخيه، وشهد كل ما حدث في هذه الحجرة السفلية، فهو يعرف جيداً ماذا سيحدث له لو لم ينفذ ما أمر به ولو أفشى شيئًا من سر أخيه، يعلم ذلك ويدركه جيدا، فنفذ كل ما طلب منه دون زيادة أو نقصان، فتم الأمر في صمت رهيب وجهز رجالًا أشداء بأسلحة نارية وحديدية ينتشرون في صحن البيت ويحيطون بفتحة الحجرة السفلية الموصدة بباب حديدي مربع الشكل مترين في مترين.

وعندما طفقوا يهلون بنواحهم ودموعهم ونحيبهم الواحد تلو الآخر كان في قبره، ومعه أخوه، اندهشوا من وجود هؤلاء الرجال الغلاظ في البيت وعندما تحركوا نحو فتحة الحجرة السفلية المؤصدة منعوا من قبل هؤلاء الرجال، فزاد نحيبهم وبكاؤهم وصراخهم، ولم يستطيعوا النفاذ من خلالهم أو زجرهم لقوتهم وشدتهم، فجثوا على ركبهم يبكون...

تذكر كاشف ذلك وكأنه أول مرة يتذكر هذه الحادثة، وكأنها ما حدثت إلا اليوم، كيف مرت هذه الحوادث حينها دون شجب أو استفسار أو محاولات منهم تبدر للكشف عن حقائق ما يحدث حولهم، وهم لا يفهمون ذلك؟!

بالنسبة له لم يشغل باله بذلك فقد كان منغرقًا في دراساته وأبحاثه وسفراته خارج مصر، وعيادته، فلم يشغل باله بأي شيء، عاش اللحظة وقتها بكى كما بكى أخواه، ولم يظهر من أحدهم أي مبادرة لمعرفة حقيقة ما يحدث أسفل أقدامهم داخل الحجرة الملعونة كما وصفها كاشف وهو يدقق النظر نحو ذلك المقام وتلك البردة العجيبة، فساق قدميه أكثر نحوها حتى التصقت قدماه بأحد تلك الأعمدة النحاسية، أحس بشيء غريب، وكأن نارا تلحس قدمه من أسفل، وصهد يقابل وجهه، ومع هذا استمر في التقدم حتى قاب قوسين أو أدنى منه، وأصبحت البردة أمام عينيه تنبعث منها رائحة

مقززة لم يحتملها أنفه، فأعرض بصفحة وجهه ثم عاد مرة أخرى متحملًا كل ذلك، ودون أن يفكر مد يده نحو البردة من جهة الرأس النحاسية للمقام تعلوها عمامة والده وعندما لمست أنامله أطراف البردة خر صعقًا كأنه أمسك بسلك كهرباء عار عن كسائه، كأنها سيوف البرق تقبضه قد أنارت ظلام الصحن فانقذف بعيدًا عن المقام مغشيًّا عليه.

لا يعلم ما أصابه، فما هي إلا لحظات حتى شعر بحرارة ألهبة نارية شديدة الاحمرار تلفح وجهه وتنفح لحمه، فاستفاق من غشيته بضوء عظيم ينبعث منها مُصدًّرا نحو عينيه فلم يستطع فتحهما، فوضع يديه حولهما يستشف ما يحدث ويستكشف منبع هذا الضوء الشديد المصحوب بأصهدة وكلحبات نارية مصوحة متطايرة من الطوق الناري الذي حف بالمقام مطوقا إياه من جميع الجهات.

بدأ الضوء يخفت قليلًا قليلًا منحسرًا عن انقشاع البردة الخضراء من على المقام طائرة في الفضاء حتى سقطت على أحد الأعمدة النحاسية، بدأت الرؤية تتضح له رويدًا رويدًا، هز رأسه كأنه يستكشف هل هو غاط في نومه أم أنه في سنام صحوه؟ حرك يديه أمام عينيه مشيحًا بهما يمينًا ويسارا، ما هذا الذي يحدث؟ هل أنا في حلم أم أني يقظان؟!

فاعتدل جالسًا ورجلاه مازالتا ممدودتين متكئا بمرفقه الأيسر على الأرض قد دكه رعب وفزع مريع حتى سوي بالأرض من هول ما يرى، ويسمع كأنها مقمعة أعقبها اصطراخ مصم للآذان، تبعه صوت انشقاق المقام كالمرة السابقة ولكن هذه المرة غير سابقتها فلم ينشق عن أبيه جالسًا في قبره نازعًا عنه كفنه، بل انحسرت الجدران وانكشفت متباعدة عن سرير فضي بقوائم صفراء، لم يستوضح هل هذا ذهب أم نيران فاقعة اللون؟

وضع يده اليمنى فوق حاجبيه مستظلًّا بها من الحرارة المنثالة في المكان ليستبين حقيقة هذه القوائم، أحس بأنها تدور وتلف، وفجأة انخلع قلبه من مكانه لما رأى تلك القوائم باللون الأصفر ما هي إلا حية عظيمة ضخمة بذنب مدبب وقوائم صغيرة، وعينين لامعتين، قد توقفت عن الدوران واللف وثبتت نظرها عليه محدقة فيه كأنها تعرفه، لم يقدر على التماسك قد انخلعت عظامه وتخوخت ركبتاه من هذا المنظر الهامع بالفزع والأهوال، عجز عن الزحف بجسده للخلف كي يتراجع ويبتعد عما يراه حتى صوته عجز عنه، يريد الصراخ ولم يستطع توقف لسانه في حلقه وانبعثت منه خنائن وأنات ملتهبة تعبر عما يتلظى في صدره، أحس بأن نظره سحب منه

من نظراتها المصوبة نحوه في حدة، فجاء ليغمض عينيه فلم يستطع عجز عن ذلك أيضًا، فرفع بصره قليلًا يستوضح ذلك الجسد الراقد على السرير في كفنه الأبيض، داخله شعور قبل أن يستكشف أنه والده، هذا هو جسده النحيل وهيئته في النوم التي يعرفها قليلًا، لم يبد وجهه بعد فكانت رجلاه ناحيته ممددتين، ورأسه في الناحية الأخرى، ففتح فمه على مصراعيه متهيئًا لندائه، ولكن صوته لم يخرج، انحبس بداخله أحس بأنها النهاية، قد بدأت الحية في تحريك ذنبها يمنة ويسرة في حالة من الاضطراب وهي تحمج فيه، تجرع ريقه بصعوبة، ينظر هنا وهناك وهنالك حوله في كل مكان لعل أحدًا ينقذه، ولكن لم ير شيئًا سوى هذا السرير الذي بدأ في الارتفاع قليلًا في الهواء بالحية التي تطوقه.

ثم ما لبث أن استنشق بعض الراحة والطمأنينة لما وجد الجسد المنطرح فوق السرير طفق في الصعود رويدًا رويدًا حتى جلس على السرير وبدا وجهه....

كان والده أمين الضحى في كفنه الأبيض، كشفه عن صدره، وأدام النظر إليه مع سكون، ثم فتح جميع عينيه من شدة النظر إليه، قد اكفهر وجهه واغبر وعلته القترة والقتامة على غير العادة وغير المرتين السابقتين، وجده مادا يديه نحوه

كالمستغيث والمستجير به، انتبهت لأمره تلك الحية الرقشاء ذات الذنب القاتل، نظرت إليه فتركت دورانها وانتصبت واقفة فبدا له ضخامة ظهرها المرقش، ثم احتضنت والده، شعر بلذة وكأنه يحتضن أنثى، زوجته أو عشيقته، وكأنها استحالت امرأة في حضنه وبين ذراعيه، بدا ذلك على ملامح وجهه التي رآها ابنه منخلع الفؤاد مرتعش الرجلين مرتعد الأطراف.

لم تمكث مشاعر اللذة والاستمتاع أكثر من ثواني، فما لبث أن تغيرت ملامح وجهه وتبدلت أحاسيسه إلى فزع وهلع صاحبه اصطراخ متبوعًا بمد يديه نحو ابنه وكأنه يستنقذه، ولكن ابنه كان في عالم آخر متأق بالرعب زاخر بالهلع طافح بالخوف والفزع، وصار وجوده عدما، حتى أصبحت المخافة سيوفًا خواطر في قلبيهما، وراح الذعر رماحًا خواطف لنفسيهما كليهما، من على الأرض ومن على السرير، الشيخ أمين كما يقال عنه، قد مد يديه لابنه وهو يصطرخ وينعق وما بصدره يغلي كغليان القدر من الخوف، حتى سمع صوت تكسير عظامه مصحوبة بأنينه من ضغطها عليه، حتى اختلفت أضلاعه، قد ارتجت مسامع كاشف وأثر في قلبه صوت التكسير والتحطيم لوالده أمام عينيه، قد أطلق صرخة مدوية ارتجفت لها أركان المنزل حتى أحس باهتزاز الأرض من تحته فنظر إلى السقف

في خوف من أن يخر عليه، لا يدري هل ما يراه هذا حقيقة أم خيال أم كابوس يجوبه في نومه، خنقته الحيرة، فلم يدر رأسه من رجليه حتى سمع صوت هاتفه يرن فاستفاق مرتعشًا مرتجفًا مرتعدًا لا يقدر على الحركة، ينظر حواليه بينما الهاتف يرن في جيبه، لا يرى شيئًا، هل كان حلما، كابوسًا فظيعًا أم حقيقة؟

وجد المقام كحاله لم يتغير شيء، أين انشقاق جدرانه وطيران بردته وارتفاع السرير بوالده والحية أسفل منه تدور حوله، ثم احتضانها لوالده وتكسيرها لعظامه التي سمع صوت تهشيمها وتحطيمها بأذنيه، مثلما يسمع صوت هاتفه المحمول وهو يرن الآن.

امتلكه الهم وارتاعت نفسه قد تمثل له الأجل فملكه وجل عظيم، واستطاره الوهل فلم يطل صمته وثباته هكذا والهاتف مازال يرن، فأخرجه ونظر إلى شاشته فعرف أنه صالح، وقد كان منتظرًا هذا الاتصال منه منذ أن أبى إخبارهم بأمر جثة ابنة عمه.

رفع الهاتف عند أذنه اليمنى بعد أن ثبتت قدماه قليلًا وبدأ صوته يخرج من حنجرته بمشقة قائلًا:

ـ نعم يا صالح، أنا؟

نظر للمقام ثم نظر حوله ثم قال:

– الحمد لله تمام

– الحمد لله أنك بخير وتمام، كان الدكتور يريد أن يطمئن عليك فقط، هكذا أبلغت وأمرت بإبلاغك.

– أنا (وتنحنح ثم قال) أنا أفهم إلى ماذا ترمي بكلامك، تقصد جثة ابنة عمي؟!

– جيد أنك تعلم وأن عقلك مازال يعمل، ويجب أيضًا ألا تنسى عهدك ويجب أيضًا أن تعلم أنك دخلت معنا وطالما أنك دخلت في عهدنا وعملت معنا فأنت.....

قاطعه بصوت قد استجمع بعض قوته:

– أنا أعلم ماذا تريد أن تقول؟ وأفهم ذلك جيدًا كما أنكم تفهمون وتعرفون أني لا أخاف منكم، فبعد ما حدث لأسرتي لم يعد يهمني شيء في الحياة حتى نفسي لم تعد تهمني

– ما معنى هذا الكلام يا دكتور كاشف؟

– ليس هناك معنى له، أنا أحببت أن أذكرك بذلك وأيضًا أذكرك أني لم أخن عهدكم وأني مازلت على

اتفاقـي فأنـا أريـد أن أنجـز عملـي بسـرعة وأنتهـي مـن أمـر الجثـث السـبع بأقصـى سـرعة

- هـذا شـيء جميـل، لماذا لـم تخبرنـا بأمـر الجثـة الثالثـة؟ ولِمَ لـم تحضرهـا؟

- لأن هناك جثة رابعة

- مـاذا؟

- أنـا تعمـدت عـدم إخبـاركـم مـع علمـي أنكـم سـتعرفون، تعمـدت ذلـك لأنـه سـيكون هنـاك جثتـان، فانتظـرت حتـى نأخذهمـا معـا مـرة واحـدة وخاصـة أنهمـا سـتكونان في مـكان واحـد

- ماذا تقصد؟

- عمـي يحتضـر، في سـياق المـوت، حزنًـا وحسـرة علـى ابنتـه ناهـد، ربمـا يمـوت اليـوم أو غـدًا إن شـاء اللّه، أنـا كنـت عنـده الليلـة، فألفيتـه يحتضـر، فربمـا يمـوت في أي وقـت، إن لـم يكـن قـد مـات أصلًا، ربمـا يدقـون علـي الآن يخبرونـي بوفاتـه، فنحظـى بالجثتـين معًـا، وأسـعد بنجاحـي بإحضـار الجثـة الثالثـة والرابعـة.

- هذا كلام جميل جدًا، سأصدقك يا كاشف، وسأخبرهم بالأمر كي يخبروا الدكتور حتى يطمئن من ناحيتك.

- انتظروا مني.....

قاطعه صوت قرع شديد على باب المنزل، فأصغى بأذنه، ثم قال لصالح:

ـ سأنهي معك المكالمة الآن يا صالح، فهناك من يدق على باب البيت، ربما يكون عمي قد مات، سأذهب لأرى ما الأمر؟

وأغلق هاتفه ووضعه في جيبه وقام وهو يتحامل على كفيه، ليس هناك شيء بجواره كي يتكئ عليه، قام بألم ومشقة، ودلف بقدميه نحو الباب فتحه فوجد عماد ابن عمه أمامه وهو يلهث من الجري فملكه خوف واستحوذ عليه قلق فقال في لهفة:

- ما الأمر يا عماد؟ هل حدث شيء سيء لعمي؟

- عمك يريدك فورا يا دكتور

- يريدني؟! لماذا؟

- لا نعلم شيئا، هو كان ينازع كأن الروح تنتزع منه، وفجأة توقف عن النزاع والصياح، ونادى علي وطلب مني أن أحضرك فورًا، لا أعرف لماذا؟

أشاح كاشف بصفحة وجهه يمينًا قد شرد بعقله وسرح بتفكيره، خطر بباله أمر والده واللعنات السبع، فانقشعت ملامحه عن ابتسامة متوارية خلف نظرات الحزن والآلام التي ادعاها من أجل ابن عمه المحد النظر إليه، فقال:

- هيا، هيا بنا يا عماد، لنرى ما الأمر.....

●●●

(١١)

زايله شعور يخترطه من الداخل بدأت ملامحه تتأثر به، فطفرت من وجهه ابتسامات متتابعة، وهو يسير مع ابن عمه، كان يغلب على ظنه أن عمه سيبوح له بما يريد وسيكشف له الخفايا، وسيهتك له أستار ما بينه وبين أخيه، كان يتحرك معه كالدمية على وجل قلبه يخفق في صعود ونزول، وكأنه مقبل على الفوز العظيم والنصر الكبير، يترقب نتيجة أعماله.

صار ظنه يقينًا وبات لديه مما لا يدع مجالًا للشك أن ما جال بخاطره سيكون عندما طلب عمه من عماد ومن حوله أن يخرجوا من الغرفة ويتركوه مع ابن أخيه بمفرديهما، ويوصد الباب جيدًا، فلا يدخل أحد عليهما مهما حصل حتى يأذن هو بذلك.

كاد قلبه يطير فرحًا مما يسمع فما طلب منهم ذلك إلا لأنه يريده وحده ليقص عليه القصص ويروي له الحكايات التي يريد سماعها، لمح عماد الذي قطب وجهه لمح سعادة كاشف الطافحة على تعابير وجهه فطما غضبه وازداد حنقه، وشفنه في غضب قبل أن يخرج ويغلق الباب من الخارج بالمفتاح، ولكن عمه لم يطمئن قلبه إلا بغلقه من الداخل أيضًا فطلب إليه أن يقوم فيغلقه من الداخل بالترباس، فهرع كاشف نحو الباب يزيد إحكامه وإرتاجه من الداخل بذلك الترباس

الحديدي الكبير الذي كثيرًا ما أغلق به عمه سليم الباب عندما كان يخلو بنفسه في الغرفة دون أن يحس به أحد أو يشعر به الآخرون أو ربما لإخفاء أشياء عنهم، فكانت هذه الغرفة ملاذه في كثير من الأوقات قبل أن يهرم، وتدب في جسده رسل الموت وبوادر الهلاك والفناء.

قد أحس بقرب ذلك في هذا اليوم كأنه آخر يوم في حياته، جاءه شعور يتهادى من بعيد لا يعرف مصدره، فأراد أن يبرئ ذمته ويخبر ابن أخيه عن جميع ما يخفي في صدره طيلة هذه السنين الخداعات التي لا يعرف عددها، كان شابا حينها هو وأخوه، ولكنه الآن ينساب نحو النهاية وحيدًا تصرعه أسرار أخيه المبيدة ولعناته المهلكة، فعزم على أن يحكي له كل شيء بالتفصيل وليحدث ما يحدث، ماذا سيخسر بعد ما خسره؟ ابنته العزيزة إلى قلبه رحلت وتركته وحيدًا رغم وجود بقية أبنائه حوله مع أن الجميع لم يكونوا حوله، لم يكن سوى المهندس عماد ومحسن الذي هثه المرض واشتفه أما الثلاثة الآخرون فمتفرقون في ربوع مصر في مناصبهم وأعمالهم وكانوا لا يحضرون إلا قليلًا، فوجودهم كعدمهم، لا يأبه لهم ولا يأبهون بأحد، أما هي فكانت كل شيء في حياته، نور عينيه ودرة فؤاده رحلت ورحل قبلها ابنها فاروق.

يظن أن ما حدث لهما من جراء تلك اللعنات قد بات يقينًا عنده رغم أنه حفظ السر طيلة هذه السنوات، فماذا جنى من كتمه في صدره وكظمه بداخله سوى الهلاك والدمار والذبح، وقد جاء إليه الموت يدلف وسيموت ويموت معه كل شيء إذا لم يقصه على ابن أخيه أعظم المصابين بتلك اللعنات التي لا يعلم سرها من البشر سواه بخسارته خسارة فادحة لأولاده وزوجته ذبحا وسحلا وتقطيعا وأخذ أعضائهم وتركهم جلودًا وعظامًا نخرة على أرضية الشقة وكأنهم حيوانات لا وزن لها ولا قدر.

تردد حينها بعدما رآه في هذه الحالة في المستشفى بعد مصابه الشنيع أن يحكي له كل شيء ويقص عليه الخبر ويفشي له سر اللعنات ولكنه خاف وفزع، وكاد أن يفقد حياته لمجرد حديثه بينه وبين نفسه بصوت خافت في تلك الغرفة برغبته بإفشاء الأسرار، انتابته شجاعة لحظات عابرة انقضت وانقضى معها كل تفكير في ذلك لما سقطت أمامه شجرة كافور كبيرة قبل أن يقعده المرض بأيام، عندما كان يتجول في أرضه راكبًا حماره الأبيض انتفض الحمار وارتعد، وهاج ورفع رجليه الأماميتين فخر سليم على ظهره صارخا بشدة، ولم ينجده أحد، نظر حواليه ولكن الغيطان والحقول كانت خاوية على عروشها، لم يره أحد سوى امرأة بعباءة سوداء واقفة على جسر على بعد أمتار منه تنظر إليه في حدة، اندهش منها،

ودقق النظر وصوب عينيه نحوها يستكشف أمرها ومن تكون؟ فلم يعرفها، إنها ليست من نساء البلد، هو يعرفهن جيدا قد طال عمره، عرف الجميع وعرفه الجميع رجالًا ونساء صغارًا وكبارًا، الجميع يعرف الشيخ سليم شقيق الشيخ أمين الضحى.

فلم تكن من نساء القرية الصغيرة، ملامحها غريبة، سمراء اللون، ثائرة الشعر كالمجانين، بعينين غائرتين في وجهها عين منهما عوراء، ارتعش قلبه وارتعد عقله وتخلخلت مفاصله من نظراتها الحادة التي رأى فيها النار مستعرة، فعرف من هي وعلم ماذا تريد، وتيقن أن ما حدث كان إنذارا له على ما حدث به نفسه، فتجرع ريقه، ورفع يده نحوها، ولكنها اختفت كالهواء لم تعد ترى، نظر هنا وهناك أمامه وخلفه عن يمينه وعن يساره في الفضاء، لم يجد شيئًا، فهمع في صراخ طويل ونشيج عظيم حتى وجد زحفا عليه من رجال القرية مندهشين مذعورين التفوا حوله، قال أحدهم:

- ماذا حدث لك يا شيخ سليم؟

اندهش من وجودهم الزائد هذا فجأة فقال لهم:

- من أخبركم؟

رد رجل:

ـ طفل صغير جاء يصرخ ويقول الشيخ سليم وقع من على حماره في الغيط، فهرعنا إليك

تصلبت عيناه فلم تطرفا، وشرد بعقله محركًا رأسه في خوف وكأنه يعلم من هذا الطفل الذي أخبرهم، فقام يتكئ عليهم، حتى حملوه ورفعوه على حماره وهم يسندونه حتى منزله، راقدًا فيه من وقتها، لا يتحرك ولا يخبر أحدًا بما حدث له، كل ما أخبرهم به أنه فقد توازنه فخر من على حماره.

وكان طيلة هذا الشهور تنتابه كوابيس مزعجة وأحلام مروعة، عقد العزم بعدها أن يظل على عهده ولا يقص لأحد شيئًا مهما حصل، ولا يفكر في هذا الأمر بتاتًا.

ولكن وقد أحس بقرب الفناء وبدبيب جنود الموت نحوه، وبعد ما حدث لابنته وابنها، رأى أن يقص لكاشف خبره وخبر والده ويطلعه على كل ما خفي في صدره هذه السنوات الطوال، فنظر إليه مبتسمًا ابتسامة متقطعة وقال:

ـ اجلس يا كاشف

تكلف كاشف اندهاشة واستغراب وقال وهو يجلس:

ـ ما الأمر يا عمي؟

مد يده نحوه ببطء كأنه يريد لمس يده، فمد الآخر يده نحوه ولمسها، فربت عمه فوق يده منفطرة شفتاه عن ابتسامة مبهجة وقال:

ـ خلفك على المنضدة مصحف كبير هاته يا دكتور كاشف

التفت كاشف خلفه وهو مندهش ثم أتى به وعاد إلى مكانه والمصحف في يده وقد زاد تعجبه واستغرابه فقال:

- هذا هو المصحف يا عمي أتريد أن تقرأ فيه؟

- لا أستغنى عنه أبدًا، ولكننا سنحتاج هذا المصحف الآن لأمرين، الأمر الأول أن تعاهدني على كتاب اللّه وكلامه ألا يخرج شيء مما سيدور بيننا هنا خارج هذه الغرفة مهما حصل حتى لأقرب الناس إليك حتى نفسك التي بين جنبيك

ابتلع ريقه ثم نظر إلى المصحف ورفعه أمام عينيه وقال:

ـ أعاهدك على كتاب اللّه ألا أفشي سرك أبدًا وألا يخرج شيء مما سيدور هنا في هذه الغرفة خارجها، أقسم لك باللّه

العظيم بكل أسمائه الحسنى وكل صفاته العلى ألا أخبر أحدًا بشيء تخبرني به

زادت ابتسامة عمه وقال:

ـ الأمر الثاني، قبل أن أتكلم بشيء وأخبرك لماذا دعوتك إلى هنا أريد منك أن تقرأ من هذا المصحف الآن سورة الفاتحة وخمسين آية من سورة البقرة وآية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين سورة الفلق وسورة الناس

طما تعجبه وامتلأت عيناه بالذهول والوجوم وقال:

- لماذا يا عمي؟
- لا تسأل عن شيء اليوم، ولا تضيع وقتنا في جدالك واستفساراتك، كل شيء ستعرفه، ولكن افعل كل ما آمرك به

نظر إليه ثم نظر إلى المصحف وفتحه وبدأ يقرأ ما طلبه منه، وعمه يتابعه ببصره بين الفينة والأخرى حتى أنهى تلاوته فنظر إليه في ثبات مباغتا إياه بسؤال فاجأه:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا يا كاشف؟

صمت قليلا ثم قال:

- أنت الذي دعوتني إليك

- لا أقصد اليوم، أقصد سبب رجوعك مرة أخرى إلى البلدة بعد غياب طويل؟

- أظنك تعلم ما أصابني وأصاب أولادي وزوجتي، ولم يعد لي شيء في القاهرة تركت كل شيء هناك عملي وشقتي وجئت هنا أقضي ما تبقى من عمري، فلم يعد للحياة طعم بعدهم.

- هذا ليس السبب يا كاشف

- عمي أنت دعوتني لتقص علي خبر أبي وخبرك وخبر تلك المصائب الغريبة، وقد أخذت علي العهد ألا أقص لأحد، فهيا تكلم أرجوك

- سأتكلم يا كاشف، لا تقلق، ستعرف كل شيء ولكن سؤال أخير هل لوجودك هنا علاقة باختفاء فاروق ابن ابنتي ناهد؟

أدام النظر إليه مع سكون ثم كسر عينيه في النظر لحظات ثم عاد مرة أخرى يحدق فيه وقال وقد بدت الدموع في عينيه:

ـ كيف تقول ذلك يا عمي؟ كيف يكون لي علاقة باختفاء ابن ابنتك؟! لست خاطفًا ولا سارقًا، أنا من سرق منه ابنان وبنت في عشتون الطفولة وزوجة في ريعان الشباب، ذبحوا وسحلوا ومثل بجثثهم واجتثت أعضاؤهم وتركوا أشلاء ممزقة، كيف لي أن أقدم على شيء مثل هذا؟! أنا جئت لأستريح ما بقي من عمري هنا بينكم ثم حدثت تلك الحوادث، وأنت ظننت أن لي اتصالًا بها وهذا ليس بصحيح، ثم حدث وأن رأيت لا أدري هل في الحقيقة أم في المنام أبي يكلمني ويخبرني بأمر تلك اللعنات رغم أني لم أره في المنام منذ أن مات، ثم أتاني مرتين وأخبرني بأمر اللعنات وأمرني أن أسألك وجئت وكلمتك وأنت أنكرت ثم دعوتني اليوم

تحرك رأس الشيخ الفاني، لم يبدُ عليه أنه اقتنع بكلامه، ثم قال:

- وأنا سأخبرك بكل شيء ولكن أيضًا هناك عهد آخر سآخذه عليك حتى لا يتوه في وسط الكلام وأنساه
- ما هو؟
- لما تعرف كل شيء تخرج من البلدة مباشرة حتى بيتك تنساه ولا تلتفت إليه.

- ماذا تقول؟
- أقول الأصلح لك ولنا وللبلدة كلها، أنت لا تعرف ماذا يوجد في بيتك؟
- أريد أن أعرف
- لن تعرف قبل أن تعدني بذلك على كتاب اللّه
- ما السبب لهذا الوعد؟
- السبب أن مقام والدك وبال ودمار وخراب لو نكش
- ماذا تقصد؟
- مقام والدك لو نكش منه شيء لو رفعت البردة أو هدم منه حجر واحد ستحصل شرور عظيمة ولعنات لا نقدر على صدها لعنات ستعم وتطم، الآن هي خاصة بذرية شخص واحد لكن لو حدث ذلك ستعم اللعنات وسيصاب أناس كثيرون بالأذى
- كلامك هذا أقلقني، وما سبب كل هذا؟
- السبب ستعرفه الآن، هيا امسك المصحف واحلف باللّه وبه، أن تغادر القرية مباشرة بعدما تخرج من هنا وترحل إلى غير رجعة ولا تقربن بيتك ومقام والدك أبدًا.

نظر إليه بمجامع عينيه ثم رفع المصحف وقال:

ـ أقسم بالله العظيم وبهذا المصحف الشريف أن أغادر القرية بعد خروجي من هنا ولن أقربن بيتي ولا مقام أبي أبدًا ما حييت

ثم أرشقه بصره في حدة وشدة وقال:

ـ هيا يا عمي أخبرني عما بداخلك

تنفس أنفاس الراحة والسكينة ثم تصفحه بنظره مسجدًا ببصره عليه في ثبات وسكون وقال:

– «حكاية أبيك بدأت من خمسين سنة في اليوم الذي ولدت أنت فيه، لكن الحقيقة أنها بدأت قبل ذلك بسبعة أشهر، لكن يوم ميلادك كانت البداية الحقيقية لما حدث لأبيك بيده ليس بيد غيره كان ميلادك وميلاد اللعنات التي حلت به وبذريته، كثيرا ما نصحته ووعظته، ولكنه لم يتعظ ولم يسمع كلامي، حذرته كثيرا ولكن ما في رأسه كان مسيطرا عليه كان يسوقه، فظل في غيه وضلاله، كان أمام الناس الشيخ أمين الضحى حافظ القرآن إمام الجامع الخطيب الذي يعظ الناس ينذرهم ويبشرهم يأخذ بأيديهم إلى

الجنـة، ولكـن ‌في الخفـاء والخلـوات كان شـيطانًا أو كان يخطـط أن يكـون شـيطانا

- كيف كان شيطانًا؟

- لا تقاطعني إلا إذا طلبت منك الكلام

- أعتذر، أكمل كلامك، كلي آذان مصغية

- أبـوك كان يسـعى سعيًا حثيثًـا خلـف الجـن، أراد أن يحضرهـم ويعـوذ بهـم ليكونـوا تحـت أمـره وفي خدمتـه ورهـن إشـارته وينفـذوا أوامـره، أراد أن يتعلـم السـحر وائتمننـي علـى سـره ولكننـي نهرتـه وزجرتـه وحذرتـه مـن هـذا الطريـق لكنـه لـم يسـمع لـي، وطلـب منـي أن أكتـم سـره وألا أفشـيه لأحـد ولأنـي كنـت أحبـه لـم أرفـض طلبـه في البدايـة ثـم لمـا دخلـت رجلـي في الأمـر زاد كتمانـي وظللـت بجـواره ولـم أتركـه ليـس حبّـا فيـه لأنـه لمـا توغـل في الأمـر كرهتـه وأبغضتـه، ولكنـي كتمـت سـره خوفًـا ممـا قـد يحـدث لـي، فقـد أخـذ علـي العهـد بحضرتهـم ألا أفشـي سـره وإلا سـيكون انتقامهـم عنيـف وثأرهـم شـنيع منـي ومـن ذريتـي، فألجمـت لسـاني في فمـي وسلسـلته وظللـت بجـواره رغمًـا عنـي ولكنـي لـم أشـاركه في شـيءٍ، كنـت فقـط كاتـم سـره ومنفـذ أوامـره بعيـدًا عنهـم

ظل يسعى خلف كبير لهم في الحجرة السفلية التي حفرها في صحن الدار لهذا الغرض وجهزها بجميع المأكولات والمشروبات ومتطلبات المعيشة من دورة مياه وغير ذلك، لأنه كان يظل فيها أيامًا كثيرة، وسماها خلوة، فكان يوهم الجميع باستثنائي أنه في خلوته يتأمل، وقد صدقوه لعلمهم بصلاحه الظاهر مع أنه كان أنجس المناجيس، فعل ما لا يفعله إلا الكفار الأنجاس

- الكفار!!

صرخ به:

- قلت لك لا تقاطعني، اسمع كلامي في صمت.
- أعتذر للمرة الثانية، وأرجوك تقبل اعتذاري أكمل يا عمي.
- نعم، فعل ما لا يفعله إلا الكفار الأرجاس والشياطين المناجيس، قبل أشهر من ولادتك، ذهب الهند ليتعلم السحر، أوهم الجميع وأنا معه أنه ذاهب للحج، وكنا في شهر ذي القعدة، ظل هناك ثلاثين يومًا لا أعلم ماذا حدث هناك لأني لم أكن معه، أمر أن يذهب بمفرده ولم يحك لي شيئًا بعدما عاد، آب بعد ثلاثين

يوما ومعه كتب السحر والشعوذة المشيطنة انحبس في حجرته السفلية عشرين يومًا، لا أحد يدخل عليه، وقبل أن ينحبس فيها هذه المدة أمرني أن أدخل عليه في اليوم العشرين بعد المغرب وفعلت فوجدته إنسانًا آخر بملامح أخرى قد اغبر وجهه واشتف الخوف ملامحه وغارت عيناه واشتعل رأسه شيبًا سألته ماذا فعل في هذه الأيام؟ وماذا حدث؟ أخبرني بكل صراحة أنه مزق المصحف واغتسل به وسار فوقه بحذائه وتوضأ باللبن، وكتب آيات من القرآن في أوراق بنجاسته ببوله وغائطه حتى كدت أن أختنق من رائحة الغائط والقذارة التي تمتك المكان وتغلفه، صرخت به:

- ماذا تقول يا شيخ أمين؟ هذا شرك بالله عز وجل وكفر وخروج عن الملة.

لم يرد والتزم الصمت وأخفض رأسه في الأرض فطما غضبي وجرت الدماء في عروقي ورفعت يدي لأصفعه على وجهه فتحجرت يدي وتصلبت في الهواء وكادت أن تتخلع من جسدي، نظر إلي ثم هز رأسه فعادت يدي إلى موضعها مخدرة منملة ظللت أفرك فيها لتعود إلى طبيعتها فرمقني بعينين ذابلتين وأخبرني بصوت محموم أنه كان يجب أن يفعل

ذلك كي ينال مراده ويحصل المقصود، فأشفقت عليه وقد جرت الدموع في عيني وقلت له:

- ما هو هذا المقصود يا.... يا أيها الساحر.

محشتني نظرته الغاضبة وقال لي:

- بعد سبعة أيام سيحصل المقصود

- وما هو هذا المقصود؟

- ستعرفه في حينه، هيا الآن اتركني، أريد أن أستريح

أسففت النظر إليه مرشقًا بصري في حسرة وألم أنظر إليه عضوًا عضوًا ثم نفضته مرة واحدة ببصري وقمت واقفًا والهم يفترشني والحسرات تسير في خطاي وأنا أخرج من هذه الحجرة الملعونة»

وخرج سليم من عنده يتقلب ظهرًا لبطن قد صهره الوجع، وعانقه الغم لا يحدث أحدًا، نظر إلى الطفلين الصغيرين ابني أخيه وهم يعلبان الكرة في صحن الدار أعلى الحجرة السفلية بينما أبوهما بالأسفل مع شياطينه، لا يدريان ولا تدري زوجته شيئًا مما يحدث بالأسفل سوى أن الشيخ في خلوته، يظنون أنه يناجي ربه ويدعوه ويتلو القرآن، وهو على النقيض من

ذلك يناجي الرجيم ويدعوه ويتوسل إليه، ويمزق القرآن ويكتبه بالنجاسات تقربًا إليه.

مشى يجر أذيال الخيبة والذل والهوان عيناه تدمعان حزنًا وألمًا وحسرة على أخيه وعلى مصيره الذي سعى نحوه بنفسه مشفقًا من مصيره في الآخرة لو مات على ما هو عليه، نفض البيت نفضة سريعة ببصره، ورمل في سيره والجا بيته ومازال الصمت يكتنفه والوجوم يتوسده حتى دخل حجرته وأغلقها عليه غير عابئ بنداءات من حوله.

ظل ليلته راقدًا في حجرته جاثيا لله عز وجل، ساجدًا وقائمًا يدعوه أن ينجي أخاه من الشر والبلاء الغارق فيه وألا يكله إلى نفسه ولا إلى شيطانه الذي يؤزه ويدعه دعا نحو الجحيم، غرق في لجة دموعه الهتانة على خديه وعلى سجادته ذات المئذنتين والقبة ثم استلقى بظهره على سريره محدقًا في سقف الحجرة.

وأخذ يسعل حتى تطاير الرذاذ من فمه، فأشاح كاشف بوجهه بعيدًا محتاطًا كي لا يصيبه شيءٌ من ذلك الرذاذ، ولكنه لم يسلم منه رغم انحناءاته الشديدة متجنبًا سعاله ورذاذه وأنفاسه، وتحمل ما يحدث، كي يعرف الحقيقة كاملة فتجلد وابتلع غضبه، وقال محمسًا عمه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

لمحه من جانب أذنه وقد هدأ سعاله، ثم ابتلع ريقه وقال:

ـ حتى جاءت تلك الليلة التي لعن فيها ولعن كل شيء من حوله.

كانت ليلة من غصص الصدر، كضغطة القبر، قد لبس الليل جلبابًا من القار، كأنها في لباس الثكالى، وكلح الجو بوجهه، وكشر الفضاء عن أنيابه، وأرسى البرد بكلاكله، انزوت منه الوجوه وعمشت العيون وسالت الأنوف، تقشفت الأبدان، وتقضقضت الأعضاء، وانتفضت الأحشاء، الخلق في منازلهم تحت ألحفتهم وبطاطينهم وأغطيتهم وبجوار مواقد النيران يستدفئون ويحاربون برد هذه الليلة العقيم متسلحين بخشبهم وفحمهم في أفنية ديارهم ومنازلهم، هدف الجميع هو تدفئة منازلهم وصغارهم من هذا الزمهرير اللافح.

باستثناء أمين الضحى فلم يكن هذا هو هدفه من إشعاله المجامر في حجرته السفلية، فقد كان على موعد في تلك الليلة العصيبة، كان أمامه موقد مشتعل غير مجامر الحيطان ومباخرها، كان اللهيب يتراقص كالسعير الجاحم يشع في هذه الحجرة المظلمة حالكة السواد، يثور موقده بنيرانه وفحمه

يتطاير منه شرر مصحوب بصوت الفرقعات الشديدة التي تحدثها أقراص كعب العفريت باهظة الثمن والتي أتى بها من الهند مع أعشاب كثيرة استخدمها في تلك الليلة مثل عشب الحلتيت الخبيث وزيت يدعى بدم الأخوين، طلى به فحمه ووقود نيرانه، كما طلى جسده بزيت آخر نادر أمر بطلاء جسده به، فربض عاريًا خلف موقده وجسمه مُدهن بهذا الزيت الأسود حتى لم يكد يرى من الظلام رغم شرر النيران المتطاير ولهيبها المستعر من شدة سواد جسمه من هذا الزيت.

رقد في صمت ينتظر مصيره، بينما زوجته أعلى منه في غرفتها تقاسي ويلات المخاض تئن وتصطرخ من آلام الوضع، وحولها طفلاها يبكيان لبكائها وصراخها، وبعض النسوة لا يدرين ماذا يفعلن؟ لا تجرؤ إحداهن على الاقتراب من غطاء الحجرة السفلية وقطع خلوة الشيخ بالأسفل، فهرعت إحداهن وهي أختها «زينب» مضطربة تاركة ثلاثا من النسوة بجوار أختها تحاول إحداهن تهدئتها بينما تصرخ الثانية في الثالثة بسرعة إحضار الماء الساخن فتهرع خلف زينب لكنها تتجه يمينًا نحو المطبخ بينما زينب أخذت تتحرك يمينًا ويسارًا في صحن البيت، تنظر هنا وهناك ثم توقفت فجأة إثر سماعها اصطراخ فظيع ينبعث من الأسفل فوقعت عيناها مباشرة على

باب الحجرة الحديدي وكأنها شعرت بدخان ينساب منه فارتج قلبها واضطرب صدرها أكثر، فتجرعت ريقها، ثم هرولت خارجة من البيت نحو بيت سليم، تدعوه ينقذ زوجة أخته، ويعرف حال أخيه ومصدر ذلك الصراخ.

أشار إليه الشيخ سليم بيده وكأن شيئًا في حلقه لم تتحرك شفتاه بالكلام فلم يفهم كاشف، فوجده يشير بيده نحو المصحف، فنظر نحوه ثم التفت لعمه:

ـ ماذا بك يا عمي، ماذا حدث؟

حرك لسانه واشتف فمه وقد جف حلقه وقال:

ـ افتح المصحف واقرأ خمسين آية أخرى من سورة البقرة، بسرعة، بداية من قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾

رأى ارتعاشه وهلعه واحمرار عينيه كأن شيئًا يخنقه أو يجثم على أنفاسه هرع إلى المصحف يفتحه وأخذ يبحث عن هذا الموضع الذي طلب إليه عمه أن يقرأ من عنده، أخذ يقلب صفحات المصحف ويداه ترتعشان، رمقه عمه وأنفاسه تتتابع في نصب شديد فقال:

ـ من أول الآية ١٠٢

أخـذ يقلـب الصفحـات دون أن ينظـر إليـه، ثـم توقفـت يـده، ونظـر إلـى عمـه، ثـم نظـر إلـى المصحـف وبـدأ في التـلاوة:

{ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) }

وظـل يتلـو وعمـه ينصـت إليـه حتـى هـدأت نفسـه، وارتـاح صـدره، وأحـس براحـة تغمـره مـن أسـفله لأعـلاه، ثـم رفـع ظهـره للأمـام قليـلًا كأنـه يسـعى للنهـوض وقـال بصـوت صوحـه الحمـاس وكأن شـيئًا مـن عافيتـه قـد آبـى إليـه مـن جديـد وقـال:

ـ «نهضـت مسـرعًا لأرى مـاذا يحـدث هنـاك، فوجـدت أعلـى الحجـرة السـفلية علـى بعـد خطـوات منهـا في غرفـة والدتـك وجـدت اضطرابًـا وثورانًـا، أخـواك يصرخـان ونسـاء تذهـب وتجـيء، وأم إسـماعيل الدايـة عنـد رجلـي والدتـك وقـد مـدت يديهـا آمـرة لهـا بـأن تصـرخ وتقـذف وقـد بلـغ بأمـك الجهـد والتعـب قـد تلمـظ وجههـا عرقـا واشـتف ضـوؤه وانطفـت مشـاعل النـور التـي كانـت

تزينـه شـعرت بأنهـا ـ في الرمـق الأخيـر، فتنحيـت جانبـا مسـتحييًا مـن هـذا الوضـع، ثـم أشـرت إلـى زينـب أختهـا، خالتك ربمـا سـمعت عنهـا لكـن لا تعرفهـا ولـم ترهـا أشـرت إليهـا أن تأتـي وكانـت قـد تركتنـي ودخلـت بجـوار أختهـا، فقامـت، فهمسـت ـ في أذنهـا:

- أين الشيخ أمين؟
- قلـت لـك ـ في حجرتـه هـذه (وأشـارت نحوهـا وقـد ربـض السـكون عليهـا)
- لماذا لم تذهب إحداكن لمناداته كي يخرج؟
- مـن الـذي يقـدر أن يذهـب لبيـت الرعـب هـذا، أنـت تعـرف أنـه حـذر الجميـع وأرهبنـا بـأن لا يقـرع أحـد عليـه البـاب حتـى يخـرج هـو بنفسـه، كمـا أنـي سـمعت اصطراخًـا شـديدًا، غالـب ظنـي أنـه مـن أسـفل مـن حجرتـه، صرخـة عاليـة اسـتمرت لثوانٍ ثـم سـرعان مـا اختفـت وتلاشـت

نحيـت وجهـي جانبًـا شـاردًا بفكـري وعقلـي ـ في صمـت وتركتنـي هـي لأفكاري ووسـاوسـي التـي مـا لبثـت أن زالـت وتبدلـت لابتسـامة ودهشـة مـن صـراخ طفـل ينبعـث مـن الغرفـة تحملـه أم إسـماعيل علـى يديهـا قـد اغـرورق جسـده بالـدم، تلقفتـه منهـا زينـب بسـرعة وهـي منشـرحة الوجـه طلقـة الصـدر والفـؤاد كان طفـلاً وسـيما بدرجـة مرعبـة

علت شفتي كاشف ابتسامة وقال:

ـ هذا أنا.

نظر إليه في فتور وقال:

ـ لا

انتابت كاشف رعدة وكأن سيفًا أخرسه، قد جز لسانه، تسنمه الوجوم وتخطفه الذهول وقال:

– كيف لا؟! أنا آخر أبنائه، وماتت أمي بعد ولادتي بأيام هكذا قيل لي

– لم تكن أنت

– ماذا تقول يا عمي؟

– أنت تقاطعني، لو انتظرت لعرفت الأمر

– تفضل، أكمل

– بعد ثوانٍ من حمل خالتك له سمعنا صراخًا من أم إسماعيل مخاطبة النسوة:

– انتظرن

قالت خالتك بلهفة:

ـ ما الأمر؟

ـ هناك طفل آخر

ـ ماذا؟

اعتدل كاشف واقفًا وهو مندهش بل مذهول من هول ما يسمع قال:

ـ ماذا تقول يا عمي؟ أنا لي أخ توأم؟

لم يلتفت لكلامه واستمر في حديثه:

ـ « تفهقت وجوه الجميع عن اندهاشة واستغراب وصمت، وتملكني حذر فنظرت في ترقب وترصد فوجدتها تخرج من بين قدميها طفلًا آخر أسمر اللون، باهت الملامح، يصرخ اصطراخًا مفزعًا، احتضنته أم إسماعيل ثم تلقفته منها خالتك بعد أن أخذت منها الأول «حسنات» صديقة والدتك أخذت أتردد بعيني على الطفلين وهما بين أيديهما وأقارن بين ملامحهما غير الواضحة المغطاة بالدم فوجدت فروقا شاسعة بين الاثنين الأول طفل مليح أقمر هلاله تكاد العيون تأكله والقلوب تشربه أما الآخر وكأنه ممسوح الجمال منسوخ الحسن ينقبض صدرك عندما تراه وهذا كان أنت

انتفض كاشف كما ينتفض العجل المذبوح، قد طفرت عروق وجهه من بدنه وطما الدم في عينيه وقال:

- ماذا تقول؟ هذا غير حقيقي، ليس لي أخ توأم، لم يخبرني أحد بذلك

- ما كان لأحد أن يخبرك شيئًا

- ماذا تقول؟

- لم يكن هناك أحد ليخبرك

- ماذا تقصد؟

- الجميع هلك أو اختفى، لا أحد يعلم، ولم يبق إلا أبوك وأخوالك وأنا وأنت، وأخذ العهد علينا ألا يخبرك أحد بشيء.

- ما معنى كلامك هذا؟ وإذا كان ما تقوله صحيحًا فأين أخي هذا الآن؟

- لا تتعجل الحوادث قبل أن أقصها عليك، ستعرف كل شيء في حينه، فلا تسألني ولا تقاطعني حتى أخبرك بكل شيء، فأنا الآن أحس بنشاط غير عادي في بدني وأريد أن أروي لك كل شيء قبل فوات الأوان، فاجلس كي أكمل حديثي

تسمرت قدماه في الأرض وشفنه في حيرة وألم وحسرات ممحشة من هول تلك المفاجآت، فجلس وقال:

- تفضل أكمل حديثك.

- انتفضت من مكاني وقد ملكني الحزن والفرح في آن واحد، فتلفت نحو موضع باب الحجرة السفلية أنظر إليه في سكون ثم قلت لنفسي:

- يجب أن أذهب الآن لأبشره بأمر ولديه وأيضًا أطمئن عليه وأستكشف أمر هذا الصراخ.

وتقدمت قدماي خطوات نحو الحجرة، وتذكرت تحذيره من ألا يدخل أحد عليه حتى ينادي هو عليه أو يرسل إليه فتوقفت أفكر، فخطر في بالي أمر الليالي السبع وأن هذه الليلة هي آخرها، فربما حدث له شيء لو تركته بمفرده، سأذهب لأخبره وليحدث ما يحدث.

وظللت مترددًا بعض الشيء أقدم رِجْلًا وأؤخر أخرى ثم عزمت على أن أذهب إليه لأطمئن عليه وأبشره بأمر ولديه التوأم

فاقتربت من الباب الحديدي الموصد، وطرقته بيدي ثلاث مرات بقوة كما هي الطريقة المتفق عليها كل مرة بيننا إذا

احتجته في شيء، القرع على الباب ثلاث مرات فيتهادى إلى أذني صوته:

- تعال يا سليم

لكن هذه المرة ترددت كثيرًا فقلت لنفسي:

- أنزل مباشرة، وإذا لم أسمع شيئًا أرحل ثم أعود مرة أخرى، هذه المرة ظللت أقرع أكثر من عشر مرات كل مرة يعلو صوت دقي على الباب، ورغم ذلك لم أجد جوابًا، فلم أدر ماذا أفعل؟ وقد بدأ قلبي ينقبض وصدري يضيق حرجًا كأنما أصعد في السماء، خفت كثيرًا عليه، أول مرة أقلق عليه إلى هذه الدرجة أحسست أن شيئًا أصابه، فماذا أفعل؟ هل أنصرف وأتركه أم أنزل لأرى ما الأمر؟ وإذا نزلت دون أن يؤذن لي ربما يغضب، انتهشني صمت ظللت أثناءه أفكر في فعلي هل أنزل وأتحمل غضبه علي أم أنصرف؟ وبعد لحظات من التفكير العقيم قررت النزول وليحدث ما يحدث، كان كل ما شغل بالي أن أطمئن عليه وأتبين أمره، فعزمت عزمًا أكيدًا على النزول، وليتني ما نزلت.

تشوف كاشف ليعرف سبب ندمه على النزول بنظرات عينيه المتلهفتين، لم يبال بها عمه واستمر في كلامه وقد بدأ سرب من الدموع يحوم في عينيه شهق شهقة واستكمل قائلًا:

- رفعت ذلك الباب الحديدي، وقلبي خائف متوجس، هالني الظلام القاتم نزلت على درجات السلم الحديدي، لا أرى شيئًا من حولي، عندما لامست قدماي أرضية الغرفة التفت فوجدت ما حولي ظلامًا يشقه شعاع خافت من بقايا النار، واعتصرت في أنفي روائح بخور غريبة اخترقت أنفي، فناديته كي أعرف موضعه في تلك البقعة الملعونة:

- شيخ أمين، يا شيخ أمين

فلم يرد أحد، فانقبض صدري أكثر وشعرت باختناق وكأن هناك من يدفعني بعيدًا، فتوليت مدبرًا كي أهرب من هذا المكان الموحش فسمعت سعالًا خافتًا وصوتًا مخنوقًا:

- تعال يا شيخ سليم

فالتفت إليه، وهرعت نحو الصوت القابع خلف هذا الشعاع الناري فوجدته عاريًا ملفوفًا في بردته الخضراء، فقلت في لهفة وأنا مازلت واقفًا أمامه:

- أخي أمين، ما بك؟ لماذا تجلس هكذا؟

نظر إلي نظرات لم أستكشف معانيها من شدة الظلام، ولكني سمعت أنفاسه الملتهبة تتصاعد كالأبخرة من صدره كأنها أنات وزفرات مكلوم قال لي:

ـ تعال يا سليم اجلس بجواري لأحكي لك ماذا حدث بالضبط؟

فهرعت أجلس جنبه على الكنبة الأنيقة التي يجلس عليها، واقتربت منه ورفعت يدي لأضعها على كتفه، فابتعد كأن نارًا مسته، فتعجبت وأخفضتها مبتلعًا ريقي، ثم قلت:

ـ ماذا حدث يا شيخ أمين؟ ولماذا تجلس وحدك في هذا الظلام؟

نظر إلي بعينين وجدت فيهما حزنًا عميقًا، ورأيت ماء على خديه كالدموع فاندهشت أكثر وقلت متسائلًا بنبرة العارف:

ـ هل.... هل حدث ما كنت تنتظره الليلة؟

نظر إلي بألم، ثم قال:

ـ كيف حالها؟

ـ حال من؟

ـ زوجتي

فقلت فرحًا:

ـ لقد جئت إليك لأبشرك، زوجتك..

وقاطعني قائلًا:

ـ أنجبت ولدين توأم الأول طفل وسيم يبهر العين أبيض زاهر، والآخر أسمر غير مطمئن، وحالته سيئة، مثل أمه

اتسعت عيناي من فرط الدهشة والذهول فقلت وكأني نسيت ماذا يفعل:

ـ من أخبرك؟

نظر إلي في صمت، ففهمت، وقلت:

ـ هم من أخبروك؟ أكيد هم من أخبروك، وإلا كيف عرفت؟! فأنت لم تخرج من هنا وقت الولادة، لقد جاءت إلي زينب تستنجد بي لأنقذها، ولم تجرؤ على الاقتراب من هنا، وقالت إنها سمعت صراخًا فظيعًا ينبعث من هذه الحجرة، من الذي كان يصرخ، أنت؟

تنفس في ألم شعرت به من صوته، نظر إلي وقال:

— سأحكي لك كل شيء من البداية، ليس لأني أريد أن أخبرك بالأمر، كنت أريد ألا أفشي إليك شيئًا، ولكني أمرت أن أخبرك بكل شيء حتى تكون مشاركًا لي في الأمر، وحتى تشهد العرس.

- أي عرس؟

- عرسي، زواجي

- زواجك ! ممن؟

- ستعرف عندما أقص عليك أمر ما حدث، سأخبرك بما حدث الليلة من بدايتها، أو بعبارة أدق بما صرح لي بالحديث عنه، لأن هناك أشياء يجب ألا تعلمها

- أنت أرعبتني يا أمين، أخبرني ماذا حدث، كلامك هذا غير مطمئن

أسف النظر إلى وجهي قليلا ثم قال:

ـ أمرت أن أقص عليك وهذا سيكون سرًّا بيننا إلى أن نموت

ـ أنت تعرف أني أصبحت جزءًا من أمرك وفرض علي ذلك رغمًا عني فطمئن نفسك، وأخبرني

فتح بردته قليلًا من عند صدره وأخرج ورقة صفراء وناولني إياها، أخذتها من يده وأنا أنظر إليه تارة وإلى الورقة تارة، فتحتها فوجدتها طلاسم ورموزا حسابية وصورا وأشكالا منقوشة بالدم، فملكني فزع هض أعضائي وقضقض جلدي ارتعشت يداي وقلت وأنا أنظر إليه:

ـ ما هذا يا أمين؟

ـ هذا عقد اتفاق

ـ هذه طلاسم ورموز، لا أفهم منها شيئًا

ـ لكني أفهمها جيدًا وأعرف ما فيها

ـ وماذا في هذا العقد؟ ثم هذا العقد بينك وبين من؟

ـ هذا عقد اتفاق بيني وبين كوزن

ـ كوزن! من كوزن هذا؟

ـ ملك من ملوك قبيلة الشيصبان

ـ قبيلة ماذا؟

ـ الشيصبان

ـ أنا لا أفهم شيئًا، فسر كلامك ووضحه يا شيخ أمين

ـ كوزن هذا من جند إبليس ومن أعوانه، ومن المقربين لديه

هبَّ واقفًا فزعًا مذعورًا وقلبه يرتجف يكاد ينخلع من صدره، وصاح به:

— ماذا قلت؟

- اجلس يا سليم، اجلس وتحمل كلامي، القادم أصعب، تجلد وقوِّ قلبك حتى تستطيع تلقي بقية كلامي

أحس بشيء في حلقه، وجلس وهو يرتعد من الخوف ثم قال:

- لو كان في كلامك شيء يؤذيني أو يضرني فلا تقل شيئًا لا أريد أن أعرف شيئًا

- لابد أن تعرف، ويجب أن تسمعني، وتجلد وتصلب كما قلت القادم أسوأ وأشنع

- تكلم يا أمين، أنا منصت لك.

سحب بعض البخور ورماه في بقايا النار فارتفع الدخان مصحوبًا برائحة غريبة تقززت منها حتى غاب وجهه في ثنايا الدخان القاتم ثم قال بصوت ضعيف:

- لقد كنت على موعد مع كوزن أحد جنود إبليس المقربين من قبيلة الشيصبان، كنت في فترة اختبار لمدة أسبوع كامل، فعلت منكرات وفواحش وفظائع يندى لها الجبين ولا تلتقي شفتاي بذكر ما حدث

- لن يكون أفظع مما فعلته بكتاب الله، لقد فعلت كفريات وشركيات يا أمين

- لا تقاطعني حتى أنهي كلامي دفعة واحدة

ثم اتكأ على جنبه الأيسر وقد انكشف صدره وبدت ثندوتاه ثم قال:

- كان يطلب مني كل يوم شيئًا أفعله

- من الذي كان يطلب منك؟

- لم أره في هذه المدة، كنت أسمع صوتًا فقط من فوق رأسي، ومن موقد النار ومن خلفي وأمامي، وقبل يومين بدأت أرى أربع عيون تتابعني مصحوبة بأصوات تارة وضحكات تارة أخرى، كأنهما اثنان، في الغالب الضحكات كانت لأنثى، وفي أوقات كثيرة كانت تختفي عينان من الأربع وتبقى عينان فقط تراقبني في كل حركاتي وسكناتي، عينان في الظلام ارتعبت في بادئ الأمر ثم بعد ذلك تعودت على ذلك وألفت هذه العيون، حاولت أخاطب صاحب أو صاحبة العينين لكن لم أتلق جوابا، كنت أسمع ضحكات فقط، التزمت بالأوامر وفعلت كل ما كان يطلب مني، ظللت عاريا هذه الأيام والليالي لا يسجيني سوى هذه البردة، وأحيانا كانت تتكشف من على جسدي لتبدو عورتي، كأن هناك يدين تسحبان غطائي عني، وقد

شعرت في إحدى المرات بذكري يهتز كأن أحدًا يحركه، لم يخطر في بالي ما حصل الليلة، ما كنت أظن أن هذا يحدث، وعرفت لمن هاتان العينان اللتان كانتا تراقبانّي وتتابعانّي ومن كان يفعل هذه الحركات، كانت ابنته عكرم

- ابنته؟

- ابنة كوزن، اسمها عكرم عمرها مئتا عام ولم تتزوج بعد، وقد عرضها علي كوزن الليلة يريدني أن أتزوجها حتى يوافق على اتفاقنا ويظهر لي جهارًا ويصبح طوع أمري ورهن إشارتي ويفعل كل ما آمره به، وإذا رفضت فالويل ثم الويل لي ولأسرتي وإذا قبلت فسوف يكون هو وهي ومن معهم من أعوان كثر في خدمتي

- كيف تتزوج جنية؟

- هذا السؤال سألته له لما بدا لي الليلة فأجاب أنه يصح هذا الجواز ولا مانع أو عائق يمنع ذلك أو يعيقه، وهذا يحدث كثيرًا، وأخبرني أنها عشقتني ولن يمنعها أحد من البشر أو الجن عني ولن تتركني مهما حدث ومن أجل هذا ظلت معي ترافقني تراني ولا أراها تتابعني ولا أتابعها

- وهل رأيتهما الليلة؟

- نعم، رأيتهما وليتني ما رأيتهما

- لماذا؟ احك لي ماذا حدث؟ وكيف رأيتهما؟ وماذا دار بينكما؟ وما بنود هذا الاتفاق غير المفهوم؟ قل لي كل شيء يا أمين بداية من ظهورهما الليلة حتى اختفائهما

- هما لم يغادرا الغرفة بعد، هما مازالا معنا في الحجرة، وخاصة عكرم رأيت عينيها فوق رأسك منذ قليل.

رفعت رأسي أنظر لأعلى كالملدوغ أتلفت يمينًا ويسارًا أعلى وأسفل، فلا أرى شيئًا فقلت:

- أين هي؟

- دعك منها الآن، فهي موجودة معنا وتسمع كلامنا، فهي مقيمة معي منذ ليالٍ أما أبوها فهو يأتي ويذهب

- أعوذ....

صاح به:

- اسكت، لا تكمل

- ماذا تقول أنا أستعيذ

ـ قلت لك اسكت ولا تتكلم ودعني أكمل كلامي

سكت على خوف وقلق فتجرع أمين ريقه ومسح وجهه وقرب أنفه من البخور يتشممها ثم أرجع ظهره للخلف وقال:

ـ كما قلت لك كنت على موعد هذه الليلة، جهزت كل شيء وهيأت نفسي

وفجأة انتفض جسد الشيخ سليم الهزيل وأصابته رعدة ووشره سعال شديد وصل به لدرجة الاختناق كأن روحه تنتزع منه، فهب كاشف منتفضا لانتفاضته وجرى نحو منضدة زجاجية في وسط الحجرة يعلوها قارورة مياه صغيرة وكوب، أفرغ بعض الماء في الكوب وهرع به لعمه فانتزعه من يده يتجرع جرعة، وهو يقول:

ـ سأقول كل شيءٍ، سأخبره بكل شيءٍ، لن أتراجع، يجب أن يكشف كل شيءٍ

ودون أن ينظر إليه ولج مسرعًا في تلاوة آية الكرسي بعدما استعاذ بالله من الشيطان الرجيم

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}

وقف كاشف مذهولًا تائها لا يدري ماذا حصل؟ انشطر قلبه لما داخله شعور بأن عمه سيفارق الحياة قبل أن ينهي حديثه ويقص عليه حكايات والده الدفينة، ولكنه شهق شهقة الحياة لما هدأت نفس عمه متراجعًا بظهره إلى الخلف رافعًا بصره نحوه مشيرًا إليه بسبابته وهو يقول:

ـ سأخبرك بكل شيء مهما حصل، في تلك الليلة بعد كل ما فعله أبوك من كفر وإشراك بالله وموبقات منتظرًا «كوزن» أحد كبراء قبيلة الشيصبان وابنته على أمل أن ينال الثراء وأن يطاع ويكون له شأن آخر في زعمه، تهيأ لتلك الليلة التي وعد فيها باللقاء الجاحم، جلس في بردته عاريًا ملطخًا بزيوت شيطانية قرأ طلاسمه ثم لطخ المصحف الشريف بالأوساخ والقاذورات وكتب وقرأ سورة الفاتحة بالمقلوب، ثم قام بتمزيق المصحف فوق سعير موقده، لم تمض لحظات حتى أحس بحفيف قوي أسفل الموقد ثم رأى سوادًا يرتفع أمام عينيه طفق ينكشف رويدًا رويدًا حتى انحسر عن ثعبان ضخم رافعًا رأسه كالحربة نحوه يحدق فيه بنظرات نارية، ارتعب منه وكش في نفسه وتقهقر بظهره للخلف مدافعًا عن نفسه بيديه، وقد نجله الفزع ووشره الهلع، عجز عن ابتلاع ريقه، طما روعه وطفح خوفه لما رأى عينين آخريين غير عيني الثعبان تحملقان فيه، عينان في الظلام بدتا له من غير

جسد أو بنيان، فتح عينيه وحدج ببصره في هاتين العينين مبتعدًا ببصره عن الثعبان، كان يعرف هاتين العينين كما قال شعر بألفة نحوها ربما هاتان العينان هما لعكرم ابنته التي باتت رفيقته في حجرته، فبدأ قلقه يخف قليلًا وزاد اطمئنانه لما سمع صوتًا من ناحية تلك العينين صوت امرأة من نساء الجن ينبعث نحوه كأنه خارج من بوق:

ـ لن تراع يا أمين فلا تخف، نحن لن نؤذيك

ارتعش بدنه وهو يشير نحوهما ويقول وهو يتلعثم في النطق:

ـ من..... من أنتما؟

يتلقى ردًا عبارة عن ضحكات ناعمة تتسدر من تجاه العينين فيعود إليه خوفه رويدًا رويدًا ثم ما يلبث أن يمتلأ صدره ارتياعًا وهلعًا لما يسمع صوتًا كالقعقعة والصلصلة ينبجس من فم الثعبان:

ـ جئناك في الموعد يا أمين، فاطمئن كما قالت عكرم نحن لن نؤذيك، فأنت طلبتنا ونحن أتينا إليك، فلن نؤذيك بعد كل ما فعلته ونفذته مما طلب منك، أنت الآن منَّا، وستصير رَجُلًا من رِجالنا، لك ما لنا وعليك ما علينا بعد إتمام زواجك بابنتي

عكرم حينها سأكون أنا وابنتي وباقي رجال ونساء القبيلة في خدمتك وتحت أمرك.

ابتلع ريقه بعنت شديد ومشقة بالغة ثم قال وهو يشير نحوهما قائلًا:

ـ طالما أنا أصبحت منكم، أريد أن أراكما ولكن في هيئة حسنة حتى لا أفزع منكما.

قال كوزن:

ـ أنت لن تراني على خلقتي التي خلقت عليها إلا إذا تم الاتفاق بيننا وتم زواجك بعكرم، وبعد الانتهاء من الزواج سأظهر لك وتأنس بي وآنس بك، وعكرم لن تراها إلا بعد الزواج، عندما تصير زوجتك، وتعقد عليها حينها ستراها لتستمتع بها وتستمتع بك، أما قبل ذلك فلا، فما هو قرارك؟ أمازلت تريد ذلك؟

قال لهما بكل ثقةٍ:

- نعم أريد ذلك.

- الليلة سنتفق ونوقع على اتفاقنا المكتوب وليلة الغد سنعقد لك على عكرم وتدخل بها بعد زفاف عظيم.

- وما العائق في أن ننهي كل شيء الليلة؟

- الآن سننتهي من الاتفاق ثم غدًا كما قلت لك زفافك على عكرم، دعنا نتأنى، الكون خلق في ستة أيام.

- وأين هذا الاتفاق؟

مد إليه بورقة صفراء سميكة من قبل العينين دون أن يرى يدًا تمتد بها إليه مد يده في ترقب مشحون بالخوف ثم أخذ الورقة، فوجدها طلاسم رموزا وأشكالا غريبة لم يفهم معناها، فاندهش وقال:

- ما هذا؟ أنا لا أفهم شيئًا من المكتوب هنا، قل لي ما هو المكتوب؟ وأنا سأوقع عليه مباشرة دون جدال أو تناوش وتردد

- هذا المكتوب هو بنود الاتفاق:

البند الأول: أن الاتفاق بيني وبينك وبين عكرم

البند الثاني: أنك ستتزوج عكرم زواجًا مدى الحياة

البند الثالث: أن عكرم لن تتركك أبدًا حيًّا وميتًا

البند الرابع: أنه مقابل ما فعلت مما طلب منك ونفذته على أتم الوجوه يتعين علينا خدمتك مدى حياتك وتنفيذ كل ما تطلبه

منا في حيز المقدور ما نقدر عليه ننفذه، لأن هناك أشياء لا يقدر عليها جني ولا إنسي ولا ملك لا يقدر عليها إلا الخالق.

البند الخامس: بزواجك بعكرم تصير رجلًا من رجالنا فرد منا، لك ما لنا وعليك ما علينا

البند السادس: وهو بند مهم جدًا لك سيتوقف عليه قرارك النهائي بالموافقة أم بالرفض، لم أشأ أن أخفيه عنك

اندهش أمين وقال:

- ما هو هذا البند؟

- البند السادس: هو أنك ستصير منا كما قلت بزواجك من ابنتي رجل منا وفرد من قبيلتنا لذلك ستأخذ نصيبك من اللعنة

- أي لعنة؟ تقصد لعنة أبيكم؟

- غير هذه اللعنة هناك سبع لعنات لحقت حينا دون باقي جن الشيصبان

- أي لعنات تقصد؟

- هذا أمر لا يخصك، أفعال فعلناها وقبائح ارتكبناها فصلمتنا جميعًا سبع لعنات، وستأخذ نصيبك منها

- آخذ نصيبي منها، كيف؟ لا أفهم

- ستصيبك لعنات سبع فور زواجك بعكرم

- وماذا سيحدث لي إذا أصابتني تلك اللعنات؟

- ستصيبك سبع مصائب وبلايا فيها من الشناعة والفظاعة ما فيها، ستشملك وتشمل نسلك، وذريتك إلى يوم الدين، إلى أن تنقضي تلك اللعنات وتنفك عنكم.

- ما هي هذه المصائب والرزايا المتعلقة بهذه اللعنات؟

- لا أحد منا يعلم، لا يعلم الغيب إلا الله، فمازالت المصائب والبلايا تنزل علينا كالمطر لا نعرف عددها، ومع ذلك لم ترحل اللعنات عنا ولم تتركنا مازالت فينا لا ندري متى تنتهي عنا؟ متى سترحل وتتركنا؟

- معنى هذا أنه من الممكن بعد سبع مصائب لا تتركني اللعنات ولا تترك ذريتي

- الله أعلم، من الممكن أن تنفك عنك وتتلاشى ومن الممكن أن تستمر معك أنت وذريتك، ومن الممكن ألا يصيبك وألا يصيب أحد من ذريتك شيء، الله أعلم.

- أراك تذكر اسم الله كثيرًا، وأنت من أنت ! وطلبت فعل أشياء موبقات

ضحك ضحكة شنيعة ظن أن سقف الحجرة سيخر على رأسه، فارتعب وانكمش في نفسه، حتى توقفت الضحكات، ثم قال كوزن:

ـ أبونا يعرف الله ويعلم عظمة الله جيدا، ويخافه، لقد كان عابدًا قبل أن يلعن، وهذا ليس محور كلامنا، ماذا قلت في هذه البنود الستة؟ هل ستوافق رغم ما عرفت بشأن اللعنات؟

صمت قليلًا وأخذ يتابع بصره بين الثعبان المتواري في الظلام وبين تلك العينين اللتين لم تتركا النظر إليه لحظة واحدة، مص شفته ثم هز رأسه معلنًا الموافقة، فقال له:

ـ أريد أن أسمع كلمة موافق منك

ولم يتردد وأسمعه تلك الكلمة التي يريد، فتعالت ضحكات كوزن متبوعة بضحكات عكرم ثم توقف الضحك وامتد الصوت من تجاه الثعبان كأنه صوت الأبواق:

- البند السابع والأخير: سيوقع على هذا الاتفاق أنا وأنت وعكرم الآن، لك نسخة ولي نسخة ولعكرم نسخة، وغدًا في نفس الموعد مع نفس الطقوس التي

ستمارسها سنكون عندك ولابد أن يكون أخوك سليم حاضرًا ليشهد هذا العرس

- أرى أن تبعد «سليم» عن هذا الأمر، لا أريده أن يعرف أي شيء بعد الآن

- لابد أن تخبره، بل لابد أن تخبره بكل ما حدث الليلة وبشأن هذا الاتفاق وبكل ما جرى بيننا لا تزد عليه ولا تنقص

- أخشى أن يكشف سري ويفضحني

- لذلك أريده أن يكون حاضرًا كي يدخل معك في الاتفاق ولا يفشي السر وسوف أرهبه وأرعبه، ويعرف ماذا سيحدث له إذا نطق بحرفٍ واحدٍ لابد أن يكون شريكك ظاهرًا، وأيضًا كي يكون عينا ولسانًا لك في الخارج نحن لن نكلم البشر، لكنه بشر مثلهم سيحدثهم إذا سألوا عنك يطمئنهم عليك ويطمئنك على أهلك وعائلتك وأملاكك لأنك لن تخرج من هنا إلا قليلًا،

- سيكون لك سبع ساعات كل أسبوع تخرج إلى غرفة كتبك في مؤخرة المنزل لتلتقي بالناس وتقضي طلباتهم وتساعدهم في حل مشكلاتهم كي يزيد قدرك عندهم

وترتفع مكانتك، ولن تخرج تسعة وعشرين يوما من هنا بعد زواجك ستظل هنا مع زوجتك لتستمتعا ببعضكما

- لكن زوجتي حامل بل ربما تضع مولودها الآن، أريد أن أطمئن عليها وعلى المولود

- انس أهلك وذريتك يا أمين، ولا تلتفت لهم بعد اليوم، أخوك سيتولى كل شيء عنك، وبالنسبة لزوجتك، فهي الآن تعاني ويلات المخاض بعد قليل ستلد، ستكون عكرم بجوارها حتى تلد وعندما تلد ستخبرك، وكما قلت لك انس ذريتك وأهلك لا أقول تنساهم تمامًا، ولكن قلل اهتمامك بهم فأمامك أمور جسام وخطب جلل إذا قبلت كل كلامي هذا، لأنك إذا وافقت عليه ستلتزم بكل شيء فيه، كل حرف قيل واتفقنا عليه سيكون عهدًا في عنقك لو أخلفته سيحدث لك ما لا يسرك، فما هو رأيك النهائي؟

صمت الشيخ سليم فجأة وجحظت عيناه وشخصتا مسفة النظر في السقف جزع كاشف، واندهش وخاف من أن يكون قد مات، فاشرأب برأسه يقول:

- عمي، عمي

التفت إليه الشيخ سليم والدموع تجول في عينيه ثم شهق شهقة أنين وحزن قال كاشف:

ـ وماذا حدث ياعمي؟ ماذا قال أبي؟

ـ أبوك وافق على كل شيء ووقع على ثلاث نسخ الاتفاق بالدم

ـ وماذا بعد ذلك؟

وقفت صارخًا فيه مغلظًا عليه القول أسبه وألعنه، وليتني ما فعلت

ـ لماذا؟

لم أكمل كلامي ووجدت سيفا مسلطًا على رقبتي دون أن أرى يدًا تحمله أو جسدًا يصول به، رأيت سيفًا حادا طويلًا رأيت وجهي في صفحته من شدة لمعانه وحدته فتجمد الدم في عروقي ونشفت أعضائي وتيبست فتصلبت في مكاني لا أقدر على الحراك رزمتني رعشات وانتفاضات أجزاء بدني كلها، أخذت أنظر في كل مكان في الحجرة فلم أر شيئًا، فنظرت لأبيك لا أريد أن أقول أخي لأنه لم يعد أخي من حينها، رمقته في استعطاف واستصفاح، فأشار بيده ناحية السيف، وظللت أنتظر ماذا سيحدث؟ فوجدت السيف يبتعد وينسحب

عن رقبتي رويدًا رويدًا حتى تلاشي في الظلام، فأحسست أن هناك من يقف في الظلام لا أراه، فخطوت خطوتين ناحية تلاشي السيف فانخلع فؤداي وطار عقلي وصعق بدني من هول ما رأيت، رأيت عينين لامعتين مشحونتين بالدم تهجم علي، فارتاع فؤادي وتراجعت للخلف خارا على ظهري وأنا أشيح بيدي يمينًا وشمالًا ثم نظرت له كي أشعر بشيء من الطمأنينة فوجدته يحدق في بعينين غائرتين فيهما الغضب ثم قال لي:

ـ ما سمعته اليوم لا أحد يعلم به حتى ظلك لا يعلمه يا سليم وإلا سيحدث لك أفظع مما تتصور وأشنع مما جال بخاطرك، وغدًا في نفس الموعد تأتي لتحضر عرسي

هب كاشف مسرعًا مهرولًا نحو زجاجة المياه يكرع بعض الماء في جوفه يتلمظ جبينه عرقًا ثم التفت إلى عمه وقال:

- يعني ما حدث لي ولأولادي وزوجتي من آثار تلك اللعنات؟

نفضه عمه ببصره ثم قال بصوت ضعيف:

- لم تكن أول المصابين.
- ماذا تقصد؟

- هنـاك مـن أصيـب قبلـك، أرواح زهقـت جـزاء وفاقًـا لمـا فعلـه أبـوك، لقـد مـرق مـن الديـن بأفعالـه الشـيطانية فأصيـب وأصيبـت ذريتـه باللعنـات ولا يظلـم ربـك أحـدًا لأنـه كان يعـرف قبـل أن يوافـق علـى اتفاقـه مع جند إبليس بـأن اللعنـات السبع ستلاحقه وتلاحـق ذريتـه أينمـا كانـوا، لقـد كنـت صغيـرًا عندمـا بـدأت آثارهـا تمتـد إلـى البيـت الشـريف الـذي نجسـه وأهانـه أبـوك

- ماذا حدث؟ أخبرني.

- أنـت تتعجـل الأحـداث، سـأقص عليـك كل شـيءٍ مسلسلًا لا تجبرنـي علـى قفزهـا، أيـن وقفـت في حديثـي؟

هدأ كاشف شيئًا ما ثم عاد إلى كرسيه والمصحف في يده ثم قال:

- ليلة عرسه الشيطاني، هل حضرت هذا العرس؟

- لـم يكـن لـدى خيـار، حضرتـه رغمًـا عنـي بعـد مـا رأيـت وسـمعت وإلا طالنـي انتقامهـم ولهيبهـم

- وماذا حدث في هذا العرس؟

- أنـا لـم أر شـيئًا ممـا حـدث، جلسـت في الظـلام مـكان أبيـك بينمـا هـو رأيتـه يطيـر أمامـي كأن أحـدًا يحملـه ثـم فجـأة اختفـى في الظـلام وقفـت أتحسسـه أو أتلمسـه هنـا

وهنـاك ولكنـي دفعـت في صـدري بقـوة دون أن أرى مـن دفعنـي فخـررت علـى الكنبـة التـي يجلـس عليهـا أبـوك، ظللـت أنـادي عليـه:

- أمين، أمين، شيخ أمين

لـم يـرد أحـد ولـم أسـمع جوابًـا، وبعـد لحظـات سـمعت ضحـكات متتابعـة وفرقعـات وموسـيقى صاخبـة دون أن أرى مكانهـا أو مصدرهـا، كانـت الضحـكات تتعالـى مـن هنـا وهنـاك في أرجـاء الحجـرة، لـم أجـرؤ علـى الوقـوف بـل لـم تعـد رجـلاي قادرتـين علـى حمـل جسـدي، أريـد الفـرار بجلـدي ولا أسـتطيع كأن جسـدي ألصـق في الكنبـة بالغـراء زاد هلعـي وفزعـي وأنـا أسـمع تلـك الضحـكات والقهقهـات والأصـوات المزعجـة الفرقعـات وهمهمـات أنـاس لا أعلـم أيـن هـم؟ وكيـف سـعت هـذه الحجـرة هـذا العـدد الـذي يبـدو أنـه كثيـر مـن لغبهـم وضحكاتهـم المفزعـة، ثـم تذكـرت أنهـم جـان لا نراهـم ويروننـا، فقضمـت خوفي وحبسـت أنفاسـي مـن الـروع، ظللـت هكـذا حتـى تهـادى إلـي صـوت أبيـك وهـو يضحـك عرفـت ضحكتـه مـن بـين آلاف الضحـكات والأصـوات المتلاطمـة فـأردت مناجاتـه ولكنـي تراجعـت خوفًـا مـن أذاهـم، وبعـد لحظـات سـمعت صوتـه ينادينـي، صـوت كأنـه ينبعـث وينسـاب مـن بئـر عميقـة مـن أسـفل مـع أنـي أسـمع الضحـكات

المقلقة من حولي، ولكن صوته كأنه من جوف بئر عميقة فنظرت أسفل مني خائفًا:

ـ شيخ أمين، أين أنت؟

فرد علي بصوت فرح منتشٍ قائلًا:

- أنا في ذروة سعادتي ونشوتي وبين ذراعي زوجتي
- هل أنت في الحجرة معي؟ صوتك كأنه يأتي من جب عميق
- أنت الآن حر يا سليم تستطيع أن تتصرف ولكن هناك من يريد أن يعلمك شيئًا
- من هذا؟

لم يرد علي انقطع صوته، وما هي إلا ثوان حتى سمعت صوتًا ضخمًا كأنه ناقوس أو بوق أو ثور، لا أدري، لم تتحمل أذناي سماع هذا الصوت حتى أحسست أني فقدت سمعي وصرت أطرش وضعت يدي على أذني من هول هذا الصوت الشنيع وهو يقول لي:

ـ أنت الوحيد من البشر يا سليم الذي يعلم سر الشيخ أمين، وأصبحت منذ أن علمت كاتم سره، لو أفشيت حرفًا

واحدًا مما سمعته أو رأيته أو علمته ستصيبك اللعنات أينما سرت أو حللت أنت وجميع عائلتك من صغيرها إلى كبيرها، لن يبقى أحد، أخوك ائتمنك على سره ؛ لأنه يحبك فلا تفضحه ولا تفش سره وكن أمينا، سآخذ عليك العهود والمواثيق المتينة حتى إذا نكثت وأخلفت عهدك سيصيبك ما يصيبك، ما لن تقدر على حمله الجبال أفهمت؟

لم تلتق شفتاي بالكلام تلعثمت لا أدري ماذا أقول له؟ فصاح بي صيحة أحسست بزلزال في المكان يرج الحجرة فقلت مرتعشًا :

- فهمت، خذ ما تريد من العهود والمواثيق لن يعرف أحد على وجه الأرض شيئًا من ذلك
- هناك شيء آخر، بعد سبعة أيام بالضبط تنشر في القرية كرامات أخيك أمين حتى يقصده الناس لحل مشكلاتهم ويزيح عن كواهلهم ما يقاسونه، وهو لن يخرج لهم إلا سبع ساعات في الأسبوع تبدأ بعد عصر كل خميس
- حاضر، حاضر تحت أمرك، لكن ما هي هذه الكرامات؟

- أخوك سيخبرك بها بعد سبع ليال، وطيلة هذه الليالي لا تبرح بيتك، استتر فيه عن العيون، أفهمت؟

- فهمت، فهمت كل شيءٍ، فهل.. هل أستطيع أن أنصرف الآن؟

- لك ذلك، ثم تنبه، حذر من في بيت الشيخ أمين ألا يقترب أحد من الحجرة لأنه في خلوة.

- حاضر سأخبرهم وأحذرهم، ولكن......

- لكن ماذا؟

- أمين زوجته أنجبت ولدين توأم ولم يسمهما بعد ولم يرهما

- الطفل الثاني الأسمر فلتسمه «كاشف» والآخر المليح لا تسمه

- لماذا؟

صاح بي:

- لا تكثر من الكلام، لا تسمه

- حاضر حاضر، لكن هل أمين يعرف بأنه لن يسمى؟

– أمين الآن مع زوجته، ولا يعرف شيئًا، افعل ما آمرك به، الطفل الثاني الأسمر سمه «كاشف» والآخر لا تسمه الآن، بعد أسبوع سيخبرك أمين باسمه.

– لماذا؟

صاح بي صيحة اختلفت منها ضلوعي:

ـ قلت لك افعل ما آمرك به، ولا تجادل، والآن قم انصرف

فقمت وأنا أهوزل في سيري أقفز قفزًا حتى خرجت من الحجرة الملعونة

توقف سليم عن القص والحكي ليأخذ نفسه مطلقًا زفرات وتنهدات كأنها سكاكين في صدره، قد ذرفت عيناه دموعا على خديه، اندهش كاشف وقال:

– لماذا تبكي يا عمي؟ ماذا حدث؟

– أبكي على ما حدث

– وماذا حدث؟

– ما حدث تنوء عن حمله الجبال الرواسي، بدأت اللعنات تجوب البيت الذي كان طاهرًا شريفًا

- يعني هناك من حلت به اللعنات غيري
- أنت آخر من حلت به اللعنات

وكأنه تذكر شيئا فصاح:

- لا، لست أنت، أنا، أنا آخر من حلت به اللعنات، اختفاء فاروق ووفاة ابنتي حسرة عليه وجنون أبيه، هذه ربما اللعنة الأخيرة وكانت من نصيبي مع أن أباك أعلمني أني خارج نطاق تلك اللعنات وأني بعيد عنها وهي بعيدة عني، وقد أكد لي ذلك أكثر من مرة وقد صدقته وهذا تأكد لي بعد ما رأيت اللعنات تتصبب عليه وعلى نسله وذريته وحده، فلم يصبني شيء فاطمأن قلبي رغم أنه كان يتقطع ويتشرح من أجل ما كان يحدث له ولأهل بيته كنت أشفق عليه رغم أني لم ألمح في بداية الأمر أي علامة حزن أو ألم ربما لأنه كان يعرف ما سيفعلونه في أهله أو ربما وجود عكرم تلك الجنية الملعونة بجواره أنساه الحزن والألم، لكني بعد ذلك بدأت أرى معاني الحزن والحسرات تشحن عينيه طافحة على وجهه ولكنه لم يتكلم ولم يبح لي بشيء

- انتظر يا عمي، هذا كلام كثير ومبهم غامض لا أفهم منه شيئا، ابق معي خطوة خطوة ومعلومة معلومة حتى لا أتوه منك، أريد أن أعرف الحقيقة واضحة وكاملة أمام ناظري، كيف أكون أنا وأنت آخر المصابين؟ وما هو الذي حدث لأبي وذريته؟ ذرية أبي لم يحدث لها شيء باستثنائي، أخواي سيف ومختار في حالة طيبة ولا أرى عندهم أي مصائب ولم يصب أحد بمثل ما أصبت به.

- هذا لأنك لا تعرف الحقيقة ولأنكم كنتم بعيدين عن بعضكم البعض وأنتم صغار حتى لما كبرتم كنتم منجرفين عن بعضكم بعدًا واجتنابًا كأنكم أعداء ولكن الحقيقة غير ذلك، الكل مصاب، ربما تكون أنت أشد إصابة منهم وأفظع انتقامًا وأشنع حادثة حدثت ولكن المحصلة واحدة لم يبق من ذرية والدك أمين أحد، ألم تفكر ما سبب ذلك؟ بعد ما حدث لأسرتك اندثرت وانقرضت ذرية أبيك ونسله

- ماذا تقصد؟

- كلكم أصبتم باللعنات، رغم أنكم خارج الموضوع ولا دخل لكم بما فعله أبوكم، ولكن أبوك كان يعلم أن اللعنات ستصيبه وتصيب ذريته ووافق على ذلك وأبرم

العقد مع اللعين على هذا الأمر، والدك ارتفع قدرًا ومكانة مؤقتة وتبوأ مبوًّأً عاليًا ليس في القرية فقط ولا في المحافظة كلها وإنما على مستوى عال جدا في الدولة، لقد صار لأبيك من يطلبه من أشراف القوم ذوي الوجاهة والمناصب العالية والثروات الطاغية وصار يمتلك أموالًا كثيرةً جدًا وكنوزًا ثمينة لا أحد يعلم مكانها حتى الآن، فأصبح والدك مهاب الركن معظَّم لدى من يعرفه سواء كانوا رعاعًا عوامًا أو علية القوم وأشرافهم ولكنه فقد أغلى مما كسب، فقد نفسه وروحه وزوجته وذريته، لعنات تتابعت على أهله وذريته حتى أفنتهم وربما لم تنته اللعنات بعد

- كلامك غامض يا عمي، أفصح ووضح كلامك وقل لي ماذا حدث بالضبط لكل هؤلاء؟ ومتى بدأت تظهر اللعنات؟ ومن أول من أصيب بها؟ وكم عددها حتى الآن؟

- لا أعرف عددها، لم أحسبها، ربما يكون مصابك آخر اللعنات أو مصابي، لا أدري، ولكني أظن حتى لو كنا آخرها فإنها لم تنته بعد

- احك لي مصاب كل واحد من الأسرة الملعونة وأنا سأحسبها لك، ربما تكون اللعنات انتهت ويعود كل شيء لطبيعته

- أشك في ذلك.

- فقط أخبرني ما حدث وأنا سأعرف هل انتهت أم لا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ ومتى بدأت اللعنات؟ ومن أول من أصيب بها؟

- أمك.

- ماذا تقول؟

- أمك أول من أصيب بتلك اللعنات ووالدك يعلم ذلك

- أمي ماتت وهي تلدني أقصد تلدنا أنا وأخي التوأم

- هذا ما قيل لكم جميعا وعشتم على هذا الوهم ولكن الحقيقة أن أمك ظلت على قيد الحياة بعد ولادتكما شهرًا كاملًا

انتفض واقفًا وصاح به:

- ماذا تقول؟

– اجلس كي أحدثك بالخبر، فبات قلبي ينتفض وأشعر أن جسدي تخدل وتصلب كالحجر، اجلس

جلس كاشف بوجوم يحيط به ويجده جدًّا، نظر إليه عمه وقال:

ـ أبوك ظل شهرًا كاملًا لا أدري أين كان؟ هل هو في الحجرة السفلية أم في مكان آخر؟ لا أحد مننا يدري، المهم أنه ظل شهرًا مع تلك الجنية وقد مُنعنا من الاقتراب حتى من باب الحجرة، ففي تلك الأثناء كانت حالة أمك بعد ولادتك أنت وأخيك تزداد سوءًا كل يوم، لا أحد يعتني بها سوى أختها وصديقتها وزوجتي وأنا كنت يوميًّا أذهب للاطمئنان عليها وعليك أنت وإخوتك، وسميتك «كاشف» كما طلب مني ولم أسم الآخر انتظرت حتى يخرج أبوك من محبسه ليسميه وليرعى شؤونكم بدلًا مني، ولكن كانت الأيام تمر وحالة أمك تنحدر وشمسها بدأت تضمحل وتغيب، أتينا إليها بأطباء كثر ولكن لا أحد يدري ما أصابها لقد فقدت النطق ولم تعد قادرة على الكلام حتى إنها لم ترضعكما، جف لبنها وجفت ملامحها وبدأ عودها يذبل حتى صارت على شفا الهلاك ولا أعرف كيف أتصرف وأنا لا أقدر على الذهاب لوالدك في مخدعه السري وإلا هلكت، فقبعنا في أماكننا بجوارها ننتظر خروجه، حتى كان

اليوم الذي قرر أن يخرج فيه، عم الظلام أركان الفضاء وحاك الغبش ألحاظ العيون، سمعنا أصواتا شديدة كأنها صراخ أو صياح تنبعث من صحن الدار، هرعنا إلى المكان وتركنا أمك بمفردها تتألم من الوجع الذي زاد عليها تلك الليلة، لم يتبق معها سواك أنت وأخوك أما أخواك الآخران فكانا في غرفتهما يغطان في نوم عميق، أخذت أتلفت يمينًا ويسارًا وحولي زوجتي وخالتك فلم نر شيئا فرجعت زوجتي وخالتك بسرعة إلى الغرفة، وبقيت أنا أجوب صحن الدار وأنا أنظر إلى باب الحجرة السفلية منتظرًا أن يخرج أبوك

غلب على ظني أن هذا الصراخ من خدام أبيك، وفجأة سمعت صراخًا عظيما ينبعث من حجرة والدتك فهرعت مسرعًا فوجدت خالتك بجوار أمك على السرير وزوجتي واقفة أمامها، وأمك ناظرة في السقف فمها مفتوح نصفه وتتعالى من حنجرتها حشرجات وبحات كأن الروح تنتزع منها، كانت تختنق وضعت يديها على رقبتها كأنها تدفع شيئًا لا نراه في الحجرة، وكأن شيئًا يخنقها اتسعت عيناها وأخذت رجلاها تتملصان وتتحركان في اضطراب وثوران، هرعت نحوها جئت لأمد يدي إليها فكأن نارًا صوحتني ولفحت وجهي فخررت على ظهري وأنا أنظر إليها حتى هوت يداها في صمت على السرير

فأطلقت أختها صرخة مدوية تبعتها زوجتي بصرخة أخرى وتعالت الصرخات من حولي، فنظرت نحو الباب فوجدت أباك واقفًا على عتبته يتابع ما يحصل، لكني لم أره إلا في هذا الوقت ربما أنه جاء الآن أو قبل ذلك لا أدري فلملمت جسدي وقمت منسدرًا في سيري نحوه، ولَّى دبره خارجًا من الغرفة يخطو خطوات حتى باب حجرته السفلية ثم التفت إليّ ولم أر في عينيه دمعة واحدة أو لمحة حزن وألم على فراق رفيقة دربه زوجته الطاهرة بنت الأطهار. نظر إلي ثم كسر عينيه وأخفضهما ناظرًا في الأرض فقلت له:

ـ كنت تعرف ما سيحدث يا أمين؟

رفع رأسه وحدق في وجهي وقال:

ـ لماذا تقول ذلك؟

ـ لأنك خرجت في هذا الوقت بالذات ولم تأت قبل ذلك، كما أن وجهك لا يبدو عليه أي أثر لحزن أو ألم وكأن الأمر عادي بالنسبة لك كأنك تعرف ما سيحدث

أدبر موليا ظهره لي وهو يقول:

ـ لم أكن أعلم شيئًا

درت حوله حتى وقفت أمامه وقلت:

- لا تكذب، كنت تعلم، وربما هذا من آثار تلك اللعنات التي أخبرتني بها هذه هي البداية ولا نعلم ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- لا تهول من الأمر يا سليم ولا تعظم الموضوع

- الموضوع عظيم وكبير ومهول منذ أن بدأت المسير في طريقك هذا. من فعل ذلك يا أمين؟ من خنق زوجتك؟

- قلت لك لا أدري ولا تكثر من الأسئلة علي، إني حذرتك قبل ذلك وحذرك من هو أعتى وأقوى مني

- هي أم هو الذي فعل ذلك؟

- ماذا تقصد؟

- زوجتك الجنية عكرم أم والدها؟

- ربما هما الآن بيننا يسمعان كلامنا، فخف على نفسك وعلى أسرتك وذريتك

- وأنت ألا تخاف على أسرتك وذريتك؟

- أنا الآن يا سليم في طريق لا يمكنني الرجوع منه أو أن أحول عنه، هذا قدري ولا فكاك منه

- مازال أمامك فرصة للرجوع يا أمين

- اسكت يا سليم

- اسمع كلامي كي لا نهلك كلنا

- لو سمعت كلامك سنهلك كلنا

- اللّه فوق الجميع يا أمين هو خالق الخلق وإذا اعتصمت به ولجأت إليه فلن يضرك مخلوق مهما كان

صاح بي:

ـ قلت لك اسكت، اخرس نهائيّا وإلا ....

ورفع يده ليلطمني على خدي فقلت له:

ـ اضربني يا أمين اضرب أخاك الكبير ولكن ارجع عما أنت فيه

أدار بوجهه عني وقال:

- ليتني لم أخرج الليلة، لقد حذرتني عكرم من الخروج هذه الليلة

- حذرتك لأنها تعلم ما سيفعلونه بزوجتك أو ربما هي التي فعلت ذلك

التفت إلي في غضب وأمسكني من تلابيبي وضغط على رقبتي وصاح بصوت أجش كالرعد:

ـ قلت لك اصمت، اصمت، اسمع كلامي ولا تلق بيدك إلى التهلكة ولا تلتفت لأي شيء يحدث حولك وبالذات في هذه الدار قم بما هو مطلوب منك فقط أن تستمر في نشر كراماتي في المجالس وفي كل مكان، أتسمع؟

ارتجف قلبي من نظرته الحادة وقوة يديه على رقبتي فهززت رأسي بالموافقة دون أن أتكلم، فدعني من صدري حتى كدت أن أنقض على الأرض كالجدار ولكني تماسكت وهربت من أمامه داخلًا غرفة زوجته لأجد خالتك وزوجتي تنوحان وتندبانها وتشقان الجيوب عليها وهما تنعقان حزنًا عليها بينما هي كانت فاتحة فاها شاخصة ببصرها إلى السقف قد تخشبت يداها ورجلاها وبدا على تعابير وجهها الفزع والهلع شددت باب الغرفة عليهن والتفت فلم أره لقد اختفى من صحن الدار.

نظر سليم يمنة ويسرة فلم يجده، فهز رأسه كالعالم بالأمر، محدقًا ناظريه نحو فتحة الحجرة السفلية المسجاة بباب فولاذي وأطرق بسمعه كأنه يسمع خطرات قدميه على السلم، ثم انصرف خارجًا من البيت ليعلن خبر وفاة زوجة

أخيه وليعد ما يلزم لجنازتها، يفعل ما كان الواجب على أخيه أن يفعله من أجل زوجته وإكراما لحقها عليه، ولكن أخاه ترك الجميع ترك زوجته أم أولاده ورفيقة دربه وابنة عمه طريحة الفراش جثة هامدة، ويهبط إلى أسفل حيث شيطانته تنتظره في أبهى حللها على فراش ممهد بالحرير والسندس والإستبرق.

نزل درج سلمه ليجد حجرته منظمة مرتبة تردد ببصره في أرجائها فوجد الحجرة قد اتسعت وتضاعفت مساحتها، لم تكن هكذا قبل أن يتركها منذ قليل، لم يشغل باله بالتفكير فهو يعلم أن زوجته جنية وأبوها من كبرائهم خطر نحو سرير ذهبي في آخرها ترفرف حوله ستائر الحرير الحمراء، أزاحها بيده فوجد امرأة ممدة على الفراش بقميص نوم شفاف مظهر مفاتنها ومبرز جمالها الآخاذ خطاف العيون والألباب يترقرق في وجهها ماء الحسن والبهاء، صورتها تجلو الأبصار وتخجل الأقمار والشموس لها عينان تزخران بالسحر، وجيد كجيد الظبي، مختلسة قامة الغصن ومتوشحة بمطارف الحسن والجمال، أصداغها قد أخذت شكل العقارب كأنما لبست قشور الدر بدر التم، غصن البان يهتز تحت ثيابها الشفافة الشمس في وجهها والدر في فمها والورد من خدها والسحر في طرفها والليل في شعرها، تبسمت فانكشف حجاب الزمرد

والعقيق، تبسم لها واقترب منها وجلس على حافة السرير عند رجليها وهو يدلكهما بيده في حنو، نظر إليها بعشق ثم قال:

ـ لقد اشتقت إليك.

وكانت ممددة فاعتدلت في جلستها ومدت يدها لتمسك يده ثم قالت:

ـ لقد اشتقت إليك أكثر من اشتياقي للحياة

حدق فيها ثم قال مبتسمًا:

- أنت التي قتلتها؟
- قتلت من؟
- زوجتي
- لم أقتلها
- أنت لم ترغبي في خروجي الليلة وألححت علي بالمكوث معك
- هذا لأني أحبك، ولكني لم أقتلها، ولماذا أقتلها؟
- لأنك تغيرين علي منها، وقد توعدت أي امرأة تقترب مني

- أنا حقا أعشقك بل أنا مدهلة فيك ومتيمة بك، وأغار عليك بجنون ولكني لم أقتلها
- لكنك كنت تعرفين أنها ستقتل الليلة وتعرفين من قتلها إذا لم تكوني أنت القاتلة
- أظنك نسيت بنود الاتفاق مع والدي، أنت تعلم أن هناك لعنات ومصائب ستلحق أهلك وذريتك وقبلت على هذا الأمر، وأنت تعلم ما قد يصيبهم
- لم أنس شيئًا
- إذن لماذا تسأل وتجادلني، عليك أن تتحمل ما سيحدث مهما كان
- وماذا سيحدث بعد ذلك؟
- نحن مثلكم لا نعلم الغيب

واقتربت منه ومالت بصدرها عليه تداعب خصلات شعره السوداء وتلحس وجهه بلسانها وهي تقول:

ـ عليك أن تنسى البشر كلهم تنسى كل شيء إلا أنا، وعندما تكون معي يجب ألا تفكر في أي شيء إلا فيّ، فأنا زوجتك وأنت زوجي ملكي لوحدي ولن يأخذك أي مخلوق مني أنا جاريتك

وخادمتك وزوجتك وعشيقتك وكل شيء، انس الخارج ومن فيه، انس كل شيء حتى ذريتك أولادك انسهم كلهم، كأنك لم تنجبهم كأنك بدون أهل أو أسرة

مال برأسه للخلف قليلًا وقال مندهشًا:

ـ ماذا تقولين؟ كيف أنسى أولادي؟! إذا نسيت كل شيء فكيف أنساهم؟

اقتربت أكثر وهجمت بفمها على فمه تقبله في عنف كأنها تمضغ شفتيه ثم نزعتهما وقالت:

ـ نعم، انس أولادك، فلن يكون لك ذرية إلا مني

هب منتفضًا:

- ماذا تقولين؟ كيف... كيف يحدث بيننا ذرية؟ كيف ستنجبين مني؟ كيف يحدث هذا؟
- لماذا تتعجب؟ ألست أمامك الآن امرأة فاتنة كنساء البشر؟
- صحيح ، هذا لأنك تغيرين شكلك، وتتمثلين في صور نساء بشريات كي يحدث بيننا استمتاع وتلذذ.

- أنت قلت فنحن نستمتع ببعضنا يستمتع الإنس بالجن والجن بالإنس لا مشكلة في ذلك كما أنه لا مشكلة في حملي منك

- كيف تحملين مني وأنت جنية من نار خفيفة وأنا بشري من طين ثقيل وحملنا غير حملكم

وقفت وأمسكت يده في رقة وزادت ابتسامتها وقالت:

ـ لا تستبعد شيئا، فكل شيء ممكن حصوله، ودعنا من هذا الكلام الآن وانس كل شيء إلا أنا

والتحمت به محتضنة إياه تقبله في شبق وشهوة ثائرة، ثم قامت بخلع قميصها الشفاف فبدت عارية جسد مرمري يلمع من بياضه ثديان فائران وجسد رشيق يهتز من طراوته ورطوبته ثم التصقت به ملقمة شفتيها شفتيه فلم يجد مفرًا فاستسلم وأذعن لها وخضع لرغباتها وقام بمبادلتها نفس الحماس الجنسي وخلع عنه ثيابه ثم التصقا ببعضهما على السرير الذي أخذ يهتز من قوة الجماع، وصرخاتها تدوي في جنبات الحجرة السفلية بينما صرخات النائحات في الحجرة العلوية بجوار زوجته يصحن يصرخن يندبنها مذرفات عيونهن الدموع الغزار كالمطر وكأنها مياه تغسل بها وهي منطرحة على

خشبة الغسل عارية في ازدحام شديد داخل الغرفة من نساء القرية المقربات لها، بينما قد امتلأت الدار الفسيحة بالنساء والرجال، وقد بدا الحزن على وجوههم، وهم ينظرون لبعضهم البعض كأنهم يبحثون عن زوجها الشيخ أمين، وقد لاحظ سليم ذلك فأغض الطرف عن تلك النظرات، ولكن عندما سأله أحد المقربين منهم عنه وجدها فرصة ليتحدث حتى لا يشك أحد وحتى لا يكثر الكلام وتزداد البلبلة في القرية فقال بصوت سمعه الجميع:

ـ الشيخ أمين في خلوته وسيأتي بعد قليل قبل أن نخرج بها

نظر سليم لابن أخيه ودموعه تذرف من عينيه على خديه فشعر برنته وقال له بصوت خفيض:

ـ كانت أمك من أفضل النساء في القرية، رحمها الله، هذه كانت أولى المصائب وأولى اللعنات التي حلت بكم

مسح دموعه بيديه وشهق شهقة ثم قال:

ـ وما هي اللعنة الثانية، من التالي؟

مسح الشيخ سليم وجهه بيده مسحا ثم أغمض عينيه قليلًا ثم فتحهما والدموع أخذت تترقرق في عينيه الذابلتين ثم قال:

– لم يكن لكم راعيًا بعد أمكم سوى خالتك زينب، كانت هي الحضن الدافئ لكم ولاسيما أنت وأخوك باهر.

– أخي التوأم اسمه باهر؟

– أنا من أطلق عليه «باهر» قبل أن يختفي بأيام أسررت بهذا الاسم لخالتك

انتبه من غشيته جاحظة عيناه وقال:

– انتظر، ماذا قلت؟ قبل اختفائه يعني لم يمت

– دعني أكمل كلامي مرة واحدة وعندما أنتهي تكلم وسل ما شئت

تجرع غصص ريقه بصعوبة وأخذ نفسًا عميقًا وعاد لحديثه:

ـ خالتكم هي التي احتضنتكم وهبت نفسها لكم وتفرغت من أجلكم وساعدها على ذلك رحيل زوجها عنها بوفاته، فتركت وحيدة بعدما حرمت من نعمة الأولاد، فصرتم أنتم كأنكم أولادها، ظلت معكم في البيت ترعاكم وتعتني بكم.

كنت أجلب لها مستلزمات البيت من المأكولات والمشروبات واللبن من أجلك أنت وأخيك باهر بعد أن تسابق نساء القرية

ممن يرضعن على إرضاعكما من أجل أمكما، وطلبًا لرضا الشيخ أمين الذي ذاع صيته في البلد والبلدان المجاورة بسببي بعد أن نجح في تقديم وصفات ناجحة لبعض المرضى والعقمى، شفاهم الله وعافاهم ابتلاء منه لأبيك ولنا جميعًا، ففي خلال شهر واحد صار أبوك أشهر رجل ليس في القرية فحسب بل في المركز كله، كان يظل سبع ساعات أسبوعيا من بعد صلاة العصر في أبعد حجرة في البيت يستقبل الوفود والجموع التي كانت تأتي من كل حدب وصوب للقاء الشيخ أمين والتماس بركاته كما يظن الجهال الأغبياء الذين لا يدرون حقيقة حاله وأمره، وهكذا الرعاع في كل زمن ومكان من الجهال يعتنقون الجهل والخرافة مذهبًا، فصار بالنسبة لهم معظَّمًا مطاعًا يحترمونه ويخافونه، فتسابقت نساؤهم المرضعات منهن على نيل شرف إرضاع طفليه، كن يأتين في الدار في حجرة والدتك لم تكن خالتك زينب تترككما بمفرديكما مع المرضعات كانت تجلس معكم وحولها أخواك سيف ومختار تطعمهما ما لذ وطاب من الأطعمة التي كانت تعدها لكم.

أخذت حريتها في البيت كأنه بيتها وأكثر وساعدها على ذلك خلو البيت من الرجال، فأبوك لم يكن يتواجد في البيت سوى سبع ساعات كل أسبوع في الحجرة البعيدة فلم يكن يراها

إلا قليلًا عندما كانت تأتي إليه بكم في وجودي، فيجلسكم أمامه ويظل يحدق فيكم ويتأملكم طويلًا، وأنت وأخوك باهر كان يضمكما لصدره برفق ويقبلكما ولاسيما أخوك باهر كان يعتنقه بقوة وكانت الدموع تنهال من عينيه وهو يقبله، أحبه حبًّا جمًّا، وقد قبل بالاسم الذي اخترته له باهر وقال:

ـ حقًّا إنه اسم على مسمى، باهر وهو باهر حقًا

لم أندهش يومًا من كثرة تقبيله له واحتضانه بقوة قبل أن تأخذه زينب من يديه، لم أشك أبدًا في شيء تجاهه فهو ابنه وكلكم أبناؤه فلم يخطر في عقلي ولو من بعيد أنه سيرضى بأذيتكم، ولكن قلت لنفسي وأنا أتصفحه ولم لا وهو قد قبل باللعنات مقابل خدمة الشيطان له وتزويجه ابنته لينال مطالبه ولتتحقق رغباته، فهل يحمل بين ضلوعه حجرًا أصمّا أم قلبًا رقيقًا كالنسيم بدا على وجهه وفي ملامحه من احتضانه لكم وتقبيله الشديد لباهر، انتبهت من تفكيري على صوته بعد انصراف زينب:

ـ ما بك يا سليم؟

ـ ما بي شيء

ـ أراك مهمومًا حزينًا، ألا تفرح لفرحي وتسعد بإنجازاتي

رمقته في ألم وقلت محاولًا إخفاء ما بي:

- كنت أفكر في شيء، وأردت أن أعرضه عليك

- تكلم، ولكن بسرعة

- طالما أن زينب خالة الأولاد ستظل هنا ترعاهم وتعتني بهم، وأنت رجل في البيت، والناس لا يعلمون أنك تظل غالب وقتك في الأسفل، في عقولهم باديًا أمامهم رجل وامرأة في بيت واحد

- إلى ماذا ترمي يا سليم؟ أفصح عما بداخلك

- من الأفضل يا أخي أن تعقد على زينب حتى لا يتكلم أحد عليكما ولا يتهمك أحد

- ماذا تقول يا سليم؟ من ذا يجرؤ على اتهامي والتحدث عني؟

- أنا أقول من باب قطع الشكوك والظنون والريب في صدورهم وإن لم يبوحوا بذلك، وهذا أفضل لك ولها حتى لا تسوء سمعتها، اعقد عليها فقط ولا تمسها كي يكون وجودها هنا وجودًا شرعيّا سليمًا لا غبار عليه كي نمحو جميع الشكوك والظنون التي قد تظن

نظـر إلـي ووقـف يجمـع بردتـه عليـه مـن الجانبـين مداعبـًا حبـات مسـبحته وكأنـه يفكـر في الأمـر شـرد بعيـدًا لحظـات ثـم التفـت إلـي، فجحظـت عينـاه واتسـعتا كأنـه يـرى غـولًا أو وحشـًا فقلـت لـه:

ـ ما بك يا أمين؟

وجئت لألتفت فأشار إلي بيده وقال:

ـ لا تلتفت يا سليم، ابق كما أنت

ارتعشـت قدمـاي وارتعـدت أطـرافي، أحسسـت بالهـلاك وتشـبثت قدمـاي بـالأرض كالأوتـاد ووجهـت عينـي علـى عينيـه أنظـر مـاذا سيحدث؟ فوجدتـه مرتعبًا مازالت عينـاه متفهقتين عن هلـع وهـو يشـير بيـده مبديا رفضـه ففهمت أنـه يبعد عنـي شـرًّا، فجـاء في بالـي مباشـرة شـيطانته وشـيطانه، ربمـا أتيـا للانتقـام منـي لعرضـي عليـه الـزواج بأخـرى، وغـاب عنـي أن زوجتـه قتلـت بسـبب أنهـا زوجتـه، ثـم أحسسـت بانفراجـة في وجهـه كأنـه نجـا مـن وحـش قاتـل فنظـر إلـي وهـو يبتلـع ريقـه الجـاف مـن الخـوف ثـم قـال:

ـ رقبتك كانت ستطير الآن يا سليم

تجرعت ريقي وقلت له:

ـ ماذا حدث؟ من ورائي يريد قتلي؟

أحد نظره نحوي مشيرًا بيده محذرًا:

ـ أول وآخر مرة تتحدث عن زواجي يا سليم، فاهم، وهذا لمصلحتك كنت ستلقى حتفك الآن، انس هذا الموضوع تمامًا ولا تحدث به أحدًا، إذا فكرت فيه اجعله لا يتعدى تفكيرك فقط، لا تنبس شفتاك بذكره لأحد أبدًا لا لي ولا لأحد غيري، هيا انصرف من هنا الآن، ولا تلق بيدك إلى التهلكة بعد الآن، لقد حميتك أكثر من مرة حتى الآن.

هززت رأسي كمن عاد للحياة بعد الموت وقلت له:

ـ شكرًا يا أخي.. شكرًا

وهرولت من أمامه مختفيًا في لحظات، ظنًا مني أن الموضوع انتهى عند هذا الحد، وأن كلامي نسي، ولكني كنت مخطئًا في ظني، فجعنا جميعًا بحادثة مفجعة مروعة، بعد أيام من عرضي عليه الزواج بخالتك، وكأن الأمر كان مخططًا له، جاءت سيارة فارهة لتقل الشيخ أمين بعد أن ذاع صيته في المحافظة كلها، وصار له محبون وطلاب ومن يسعى نحوه كالسيل الجارف

كانت عنده مقابلة مع شخصية مرموقة ذات منصب سيادي في الدولة، طلب مني أن أذهب معه، أحسست أنه أمر وليس طلبًا، ذهبت معه، حتى دخلنا قصرا منيفًا شاسعًا يكل ناظراك عن بلوغ أقصاه، أدخلت حجرة منفصلة عن القصر يحرسني شخص فتي من ذوي العضلات البارزة بينما والدك الشيطان في ثياب ساحر، ولج إلى داخل القصر يحيط به من جميع الجهات من نفس عينة من كان يقف أمام الحجرة التي أرقد فيها كالمعتقل غاب عني أكثر من أربع ساعات، لا أدري ماذا حدث بالداخل؟ وماذا دار بينهما؟ وما سبب وجودنا في هذا القصر؟ حتى تلك الشخصية لا أعرف من هي؟ كل ما علمته منه ونحن في طريق عودتنا أنه شخص كبير في الدولة، وعندما ألححت عليه في معرفة سبب ذهابه إليه نظر إلي أحد الحراس الذين اقتادونا للقصر يرمقني في غضب، فغضضت الطرف ووجهت عيني ناحية أخي فوجدته واضعًا أصبعه على فمه طالبًا الصمت مني، فصمت على مضض، وأنا معه كالمعتوه الذي لا يعي شيئًا أو الأطرش في الزفة كما يقال، كل ما أهمني هو حياتي وحياة من يخصني ممن حولي، فاكتسيت بالصمت وعدم الإلحاح في السؤال، وظللنا طيلة الطريق في صمت حتى دخلنا القرية، كان الوضع ينم عن وجود أشياء غريبة، كان هناك متسولة تسأل الناس مادة ذراعيها، كانت امرأة سوداء

شمطاء كأنها من الحبش تجلس على قارعة الطريق في مدخل البلدة، انقبض قلبي من منظرها ومن عينيها اللتين تحدقان في السيارة، ظل أمين ينظر إليها في ثبات حتى تجاوزتها السيارة وهو مازال ينظر إليه فأشار إلى السائق بيده وهو يقول:

ـ قف، قف هنا.

ثم فتح باب السيارة، وأخرج رأسه وأسف النظر إليها وهو حائر واجم، قد اشتف وجهه الذهول، ظننت أنه يعرف تلك المرأة أو أنه يريد أن يحدب عليها أو يعطيها شيئًا من المال ولكنه ظل ينظر إليها دون أن يترجل من السيارة، ما رابني أنها هي الأخرى ظلت تنظر إليه كأنها تعرفه، كانت أول مرة أرى فيها هذه المرأة، هي ليست من نساء القرية ولا أظن أنها مما حولها من قرى وعزب، فملت على أذنه في همس:

ـ من هذه المرأة يا شيخ أمين؟ هل تعرفها؟

هز رأسه وهو ينظر إليها وقال:

ـ أول مرة أراها.

ثم اعتدل في جلسته ونظر أمامه طالبًا من السائق أن ينطلق بالسيارة ليوصله بسرعة إلى البيت.

أحسست من نبرة صوته أنه قلق من شيء أو مضطرب، وقد زادت شكوكي من حركة يده المتتالية على فخذه في تتابع، ظللت أنظر إلى وجهه فرأيته في مكان آخر، تائها، فقلت له:

ـ خيرًا يا أخي، ماذا بك؟ هل هناك شيء يقلقك؟

لم يلتفت إلي ولم يتكلم بحرف، فانتابني روع وخوف لما رأيت عليه من أمائر الخوف وعلامات الترقب والانتظار، حتى تأكدت تلك الشكوك والظنون لديه ولدي دون أن نعرف بعد ماذا حدث لما وجدنا عددًا كبيرًا من النساء والرجال والأطفال في مقدمتهم العمدة « جمعة النميري» جالسًا على كرسي أمام البيت قابضًا على عصاه وحوله بعض خفرائه

عندما توقفت السيارة وقف يستكشف من ينزل منها، فلما وجد الشيخ أمين يترجل هرع إليه وهو مطأطئ الرأس متوشحا بالحزن والخوف ترتعش يده القابضة على عصاه، وتشوفت تلك الوجوه البائسة نحونا، اقتربت أكثر فأحسست بأنفاس جمعة تفور في صدره، فقطعت حالة الصمت بينهما بقولي:

ـ ماذا حدث يا عمدة؟

رفع رأسه ونظر إلى الشيخ أمين ثم نظر إلي وقال:

ـ أتتني زوجتك هلعة هي وابنك محسن يجري خلفهما جمع غفير من أهل القرية وهي تصرخ:

ـ أنجدنا يا عمدة أنجدنا يا عمدة، لقد ماتت زينب واختفى باهر ابن الشيخ أمين

انصعق أمين من قوله، فأمسك يده القابضة على العصا وضغط عليها بقوة حتى تأوه جمعة وتألم من ضغطها فارتجف جسده وارتعدت مفاصله وهو ينظر إليه، حرك أمين رأسه يمنة ويسرة وقال:

ـ ماذا قلت؟

قال وهو يرتعش:

- أنا لم أقل شيئًا يا شيخنا، زوجة أخيك هي التي قالت، عندما أتت لتطمئن على أولادك كما طلب منها أخوك قبل أن يرحل معك، وجدت الصغار ولديك «سيف ومختار» يبكيان في ساحة الدار وعندما سألتهما أشارا إليها نحو الغرفة وهما يبكيان وقال لها ابنك مختار:

- خالتي زينب خالتي زينب وأخي الصغير

فهرعت نحو الغرفة فوجدت زينب نائمة على ظهرها ووجهها في السقف وعيناها شاخصتان وبجوارها أحد ولديك التوأم يصرخ من الجوع، قالت إنه كاشف، أما باهر فلم تجده في الغرفة ولا في الدار كلها، هذا والله هو قولها، اسألها وستعلم كل شيء، حتى إني لم أبلغ الشرطة حتى تأتي وترى بنفسك.

شرد أمين بعينيه كأنه يفكر في شيء وهو ينظر إلى العمدة الذي أحس باعتصار يده تحت يده، فلم يقدر على سحبها، انتظر في فزع حتى سحب أمين يده وهو تائه عن الحاضرين، بدا عليه الجزع، انخسفت نفسه، أثر فيه كلام جمعة حيث ترك نفسه مولهة دهشة وعقله مدلها، وأطرافه ترتعش، لم يحصل هذا لما علم بما حدث لزوجته، ربما بدأ يحس بخطورة ما انجرف فيه وساخت فيه أقدامه، فشق صفوف الواقفين وجموعهم التي انشقت له وهي تنظر إليه في شفقة وحذر، تجاوزهم حتى ابتلعته الغرفة وأنا وراءه، كانت زوجتي جالسة بجوارها على السرير وعلى فخذها الطفل الآخر الأسمر، أنت، وأخواك سيف ومختار عند قدمي خالتك يبكيان، وحولهم نساء كثيرات يبكين ويصرخن، لما رأين الشيخ أمين سكتن كأن غاشية نزلت عليهن أخرستهن، طفقن يحدجنه بأبصارهن

خطا بخطوات ثقيلة، ينظر إلى ابنه على فخذ زوجتي وهو يصرخ، انقبض وجهه وتراجع بظهره للخلف لما رأى هيئة زينب، وهي راقدة على ظهرها محملقة في السقف، قد امتك وجهها رعب وفزع كأنها رأت الجحيم أو الشيطان، ربما يكون هذا سبب موتها من الهلع، لكن ما سبب الهلع والخوف؟ لا أحد يدري، حتى المباحث لم تستطع أن تعرف سبب موتها،

تقرير الطب الشرعي أثبت أنه موت فجأة سكتة قلبية، لكن ما هو السبب؟ لا أحد يدري

فشلوا في معرفة سبب هذه السكتة القلبية كما فشلوا في العثور على أخيك باهر، مرت شهور دون فائدة، أسفرت جهود المباحث والشرطة عن لا شيء في هذا الأمر، لكني كنت متأكدًا أن أباك يعرف سبب موت خالتك ويعرف من الذي اختطف توأمك أخاك باهر الجمال باهر، بعد هذه الحادثة بيوم أو يومين اختفى في حجرته السفلية شهرًا كاملًا لا يخرج، لا أدري ما سبب اختفائه هذه المدة بالحجرة مؤجلًا كل مقابلاته ولقاءاته ربما لتهدأ نفسه ويعود إلى حالته الطبيعية، ولم أعلم ماذا حدث بالأسفل؟ وماذا جرى بينه وبينه شيطانته، غالب ظني أنه حدثها في هذا الأمر، لأنه قال لي بعد يوم من الحادثة خذ الأولاد عندك حتى أعرف مكان باهر ثم اجمعهم هنا مرة أخرى وائتِ بمن يرعاهم فقلت له:

- أين ستذهب؟

- إلى زوجتي

فقلت متسرعًا وقد نسيت ما حدث:

- هل هي....

فقاطعني صائحًا بي:

ـ اسكت ولا تتحدث في شيء، خذ الأولاد من اليوم واعتن بهم جيدًا وخاصة الرضيع

أخذتكم عندي تاركًا إياه في حجرته السفلية دون أن أدري بما حدث في الأسفل

انسل أمين إلى أسفل والدموع تلوح في مآقيه، قد تسربل بالحزن واكتسى بالغضب الذي بدا جليّا على ملامحه وهو يحدث جنيته الجميلة ذات الرموش القاتلة، كانت كأنها امرأة أخرى، كانت تتغير وتتبدل كل حين كانت أجمل هذه المرة عن ذي قبل، قد توشحت بمطارف الحسن، طرز الجمال ديباجة وجهها، ونبت البنفسج في خدها، كأنها أعارت الظبي جيدها والغصن قدها والراح ريحها والورد خدها، وجه تطلع منه الشمس وفم هو منبت الدر، وخد يلتقط منه الورد، وطرف يشع بالسحر، وشعر هو الليل في قتامته، رسمت ابتسامة فائرة أبانت عن لؤلؤ خلف شفتيها، أعرضت عن سؤاله الغاضب وقامت تحتضنه وتقبل خديه وتمص شفتيه ولكنه دافعها وأعاد عليها نفس السؤال:

ـ أين ابني باهر؟

تمايلت عليه ودارت حوله وهي تلحس رقبته وهي تقول:

ـ من باهر؟

التفت إليها فلم يجدها، كانت خلفه تراوغه، فالتفت إليها فلم يجدها توارت في ظهره فاشتاط غضبًا وصاح بها دون أن يراها:

ـ أرجوك توقفي عن هذا، ليس هذا وقت العبث واللهو

ظل يبحث عنها في المكان نافضًا إياه بعينيه فلم يجدها، فانتبه لضحكاتها فرأفع رأسه في السقف فوجدها ملتصقة به بظهرها مقبلة عليه بوجهها بثيابها البيضاء الشفافة عن جسد أبيض لين كلون الثلج، فقال لها:

ـ أرجوك انزلي، أريد أن أتكلم معك، الموضوع جدي، هذا ليس وقت العبث واللهو

طارت في لين ولطافة حتى جلست على حافة السرير وكشفت عن فخذيها وأخذت تربت بيدها على فخذها وقالت:

ـ تعال بجواري يا شقيق الروح

اقترب منها وجلس بالقرب منها، وقد بلغ غضبه منتهاه، وتفقأت عيناه غيظًا فقال:

ـ أين ابني باهر يا عكرم؟

ـ من باهر؟ ليس لك ولد اسمه باهر

ـ لا، لي ابنان توأم أحدهما اسمه باهر والآخر كاشف

ـ لقد أمرت بألا يسمى بأي اسم فكيف سميته «باهر»؟

ـ أنا لم أسمه، هذا اختيار أخي وقد وافقت عليه

ـ ومن الذي أذن لك أن توافق على ذلك؟

ـ هذا ليس محل حديثنا الآن، ابني اختفى وخالته قتلت

ضحكتْ وقهقهتْ في استفزاز وقالت:

ـ خالته من؟ التي كنت ستتزوجها؟

خفف من غضبه محاولًا استعطافها قائلًا:

ـ أنت تعرفين أني لن أتزوج أحدًا غيرك، فأنتِ صرتِ زوجتي الوحيدة الآن، ومن يتزوجك لن يتزوج أبدًا فأنت كل يوم امرأة أخرى، وأنت أصبحت كل شيء في حياتي، لكن أرجوك أخبريني أين ابني؟ من اختطفه؟ وهل هو حي أم ميت؟

اقتربت منه وأمسكت بيديه وقبلتهما وهي تنظر إليه ثم وضعتهما حول رقبتها وقالت:

- هل تحبني يا أمين؟

- أحبك أكثر من نفسي، أنا متدله هائم في حبك ولن أحب غيرك

- لن تقدر أن تحب غيري ولن يستطيع بشر أو جني أخذك مني، فأنت مصيري ونصيبي، ومآل كل من يبعدك عني الهلاك مهما كان، حتى أنت إذا حاولت أن تبتعد عني فلن تقدر، وإذا فكرت في ذلك حينها لن ترى «عكرم» بمثل ما تراها ستراها مخلوقًا آخر يبث شره وجام غضبه في كل مكان.

تجرع غصص ريقه من هول نظراتها الحادة التي تلمع باللهب وقال:

- أنا أعشقك فأنت روحي ولن أفكر في أي شيء من هذا، لكن الآن ابني أين هو؟

- غير مسموح لي بالكلام في هذا الأمر وهذه أوامر كوزن، لكني سأذكرك بما تنساه دائمًا من أمر اللعنات والمصائب التابعة لها، وأنت تعرف ذلك جيدًا ووافقت عليه، وقد مللت كل مرة من تذكيرك مع أنك لم تنس، بعد اليوم إذا حدثت لك مصيبة ثالثة فلا تسألني عنها

تقبلها وأنت راض في صمت، فمازال أمامك خمس لعنات لا أحد منا يدري ماذا ستكون؟ وكيف ستنتهي؟ نحن لا نعلم الغيب يا أمين

- أنا لم أنس ومتقبل كل شيء، لكن أريد أن أعرف فقط هل هو حي أم ميت؟ كي أستريح، طمئني قلبي أريد أن أعرف فقط هل هو حيٌّ أم ميتٌ؟

ابتسمت له حتى ملأت الابتسامة وجهها وقد رقت له فقالت:

- أنا أحبك يا أمين وأعشقك لدرجة الفناء، سأخبرك بهذا فقط مع أن في هذا عصيانًا لكوزن وأنت تعرف عقاب من يعصيه، ولكني سأتحمل أي شيء من أجلك، ابنك مازال حيا، لكن أين؟ ومع من؟ وكيف حاله؟ فلن أخبرك لأني حقيقة لا أعلم أين أخذ وذهب به؟

تنفس أنفاس الراحة وقد طفرت من عينيه وشفتيه ابتسامة رقراقة فرفع يديها وقبلهما، فنظرت إليه وهي ثائرة ثم قالت:

- عندي لك مفاجأة

- ما هي يا حبيبتي؟

- هي مفاجأة من أبي مثل المرة السابقة هدية لك

- لا تقولي عبدًا يخدمني

- هذه المرة جارية، لكن لتعلم أنها في خدمتك فقط يعني إياك أن تشتهيها أو أن تواقعها، أنت تعرف

اقترب منها ولثم فاها ثم قال:

- كيف تقولين ذلك؟ أنت كل شيء في حياتي أنت حبي الأول والأخير مع أن نظراتك قد أرعبتني وألهبت قلبي خوفًا وفزعًا منك ولكني مازلت هائمًا بك تائها في لجج حبك

- يجب أن تعرف أنه لا بديل لك عني إمَّا أنا أو الموت

- أنتِ ثم أنتِ ثم أنتِ، ولكني قلق جدًا على أولادي فهم صغار وبعد وفاة خالتهم لا أعرف من سيعتني بهم

- ألم تجعلهم عند أخيك؟

- نعم، ولكني سأظل قلقا عليهم، أريد أن يكونوا هنا بجواري حتى تشتد أعوادهم قليلًا حتى يبلغوا ثم أرسلهم بعيدًا حتى لا يعرفوا بحالي، لا أريدهم أن يعلموا شيئًا عني، أريد أن تكون صورتي في أعينهم

براقة ناصعة البياض، لا أريد أن يعرف غيري أنا وأخي أسراري

- وما الضرر لو ظلوا عند أخيك في أمانه ورعايته؟

- لن أكون مطمئنًا، لا أدري ما حالهم الآن عنده ربما يؤذيهم أطفاله أو زوجته أو هو؟

كان حالهم هناك خير حال في رعاية عمهم الذي أحبهم أكثر من أبيهم الذي خرجوا من صلبه، كانوا في رغد من العيش وهناء من المرح واللعب، بل آثرهم سليم على أولاده، طيلة الأيام التي ظلوا في حماه وتحت ظله، وكان أكثر حدبًا وشفقة على الرضيع كاشف، كان يحمله يداعبه وينظر إليه في سعادة كأنه من صلبه.

نظر كاشف إلى عمه وهو يسعل ثم قال:

- ولا أحد حتى الآن يعرف أين باهر؟ وهل هو مازال حيا أم أنه من الأموات؟

- اختفى ونسيه الجميع ولم يعد أحد يتذكره وأخذ علينا جميعًا العهد والمواثيق ألا يعلم أحد منكم بشأنه، كأنه لم يولد من الأساس وهذه كانت أوامر أبيك وقلنا جميعًا سمعنا وأطعنا خوفًا من بطشه.

درجت الدموع في عيني كاشف، نظر إلى عمه في غضب وقال:

- يعني أنت كنت شريكًا له في كل شيء.
- لم أكن شريكا، كنت مغلوبًا على أمري، هددت بقتلي وقتل أسرتي كلها إذا تلفظت بحرفٍ واحدٍ
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- حدث في ماذا؟
- أمر اللعنات، هذه هي اللعنة الثانية اختفاء أخي، ماذا حدث بعد ذلك؟ أين بقية اللعنات؟
- اسأل أخويك في ذلك
- لماذا أسألهم؟
- لأن كل منهما أصيب بلعنة دون أن يدري أن ما أصيب به من آثار لعنات أبيك وجرائمه في حق نفسه وحقكم، اذهب إليهما واسألهما عن مصائبهما
- لكنهما لم يصابا بشيء، أوضاعهما ممتازة ولم يشتكيا من شيء قط

- هـذا لأن كل واحـد منهمـا لا يريـد فضـح نفسـه، وأيضًـا لأنكم كنتم ومازلتم بعيديـن عـن بعضكم لا تعرفـون شـيئًا عـن أحـوال بعضكـم البعـض وكأنكـم لسـتم إخـوة، ربمـا هـذا مـن اللعنـات، مـن يـدري، اذهـب إليهمـا واسـألهما

- أسألهما عن ماذا؟ أسألهما عن شيء لا أعرفه؟!

- اسأل أخاك «سيف» لماذا لـم يتـزوج حتـى الآن؟ واسـأل أخـاك «مختـار» لمـاذا لـم ينجـب حتـى الآن؟ رغـم أنـه تـزوج أكثـر مـن واحـدة ومـع ذلـك لـم يكتمـل لزوجاتـه الأربـع أي حمـل

- مـاذا تقصـد؟ أنـا لا أفهـم شـيئًا، حدثنـي إذا كنـت تعلـم شيئًا عـن حالهـم، أرجـوك يـا عمـي أخبرنـي حتـى أرتـاح، وحتـى أنهـي تلـك اللعنـات إن اسـتطعت

رمقه راقًّا لحاله مشفقًا عليه وقال:

ـ لما ماتـت خالتـك مـرت الأيـام وأنتـم عنـدي في حجـري حتـى عثـر أبوكـم علـى امـرأة لا أعلـم مـن أيـن عثـر عليهـا؟ كانـت امـرأة مريبـة مقلقـة ينقبـض لـك صـدرك عندمـا تراهـا كأنهـا المـرأة التـي رأينهـا علـى قارعـة الطريـق في مدخـل القريـة، ولكنهـا لـم تكـن هـي، هـذه كانـت سـوداء مثلهـا طويلـة نظيفـة وأنيقـة ليسـت كالأخـرى التـي اشـمأزت نفسـي منهـا ومـن منظرهـا وهيئتهـا

عندما سألت أباك عنها قال لي بغلظة:

- لا تسأل، هي من سيقوم بخدمة أولادي في بيتي وتحت عيني، وعينك طبعا، فأنا لا أستغني عنك، فأنت عمهم والعم كالأب

- إذن اتركهم عندي أربيهم وأعلمهم

- سيتربون في بيتي كما قلت وتحت عيني وأنت أيضًا سيكون لك دور كبير، ستأتي كل يوم كما هي عادتك لتطمئن عليهم وترى طلباتهم وحاجاتهم

لا أعرف كيف اطمأن أبوك لوجود هذه المرأة بينكم؟ هل اطمأننت لها وهي بينكم؟

- أنا لم أر منها شيئًا مريبًا قط

- هل رأيتها تصلي يومًا ما ولو فرضًا واحدًا

- لم أرها تصلي بتاتا، لكن ربما كنت تصلي في حجرتها

- إذن لماذا اختفت مرة واحدة ولم يدر أحد عنها شيئًا قبل أيام من سفرك إلى القاهرة لاستكمال تعليمك؟

- لا أدري، هذا فعلا كان شيئًا محيرًا، لكننا لم نشغل بالنا به، وقد أمرنا أبي ألا نشغل بالنا بها ولا نسأل

عنها، وأن نلتفت إلى تعليمنا ودراستنا، لكن هذا ليس محل حديثنا، ما شأن أخويَّ سيف ومختار؟

- هذه المرأة كانت تأخذ أخويك على حمار صغير لتفسحهما وتريهما البلدة كل صباح، كان عمرك سنة تقريبًا، يوم هذه الحادثة، كانت تسحب لهما الحمار، كان أخوك سيف في المؤخرة ومختار في المقدمة، هذا آخر ما رأيته قبل أن تسحب تلك المرأة الشمطاء الحمار، وبعد ذلك كان الخبر عندها من رؤيتها لما حدث، كانت تسحب الحمار، هذا هو كلامها والعقدة عليها، لكن الحقيقة الله أعلم بها، هي قالت إنها كانت تسحب الحمار وعند ترعة صغيرة وقف الحمار ليأكل من بعض الحشائش والأعشاب النابتة على حافتها، وفجأة أمسك بفيه ثعبان ضخم فانتفض الحمار كالمذبوح وأخذ يضطرب ويتحرك محاولا الفرار والفكاك منه، ولكن الثعبان كان قد غرز أنيابه في فمه بقوة، فخر الحمار على وجهه في الترعة وعليه سيف ومختار، فاصطدم سيف بوتد حديدي في قاع الترعة، فأصيب في خصيتيه

هبَّ كاشف واقفًا لا يكاد يصدق ما يسمع:

- ماذا؟!

- فقعت إحدى خصيتيه وأصيبت الثانية، وكانت حالتها سيئة فاضطر الطبيب إلى استئصالها بعد موافقة أبيك طبعًا، وعاش المهندس سيف بدون خصيتين، من أجل ذلك لم يتزوج ولم يشته النساء وكان يتهرب من الأجوبة عن السؤال المعتاد الذي كان يتعرض له كثيرًا وعندما كان يلح عليه كان يبتسم ابتسامة متأقة بالحزن والمرارة ويقول بأنه لم يجد بعد بنت الحلال المناسبة، حتى اعتاده الناس هكذا، حتى إنه لم يأت للقرية منذ أن تخرج من الجامعة إلا بعد وفاة أبيكم، وظل هذا الأمر سرًّا بيننا لا يعلمه إلا أنا وأبوك والخادمة السوداء فقط، حتى زوجتي وأولادي وأهل البلد لم يعلموا بشيء لأن الخادمة احتضنت أخاك المصاب وتركت الآخر بعدما أخرجته من الترعة وهرولت بسيف حتى البيت فوجدت أباك في صحن الدار ينتظرها كأنه أخبر بالأمر.

خر كاشف على كرسيه مذهولًا واجما محركًا رأسه يمينًا ويسارًا حسرة وألما ثم قال:

- لا أصدق ما أسمع.

- صدق يا ابني، صدق، هذا جزاء من جرى خلف الشيطان وسلم له نفسه بل باع نفسه إليه، هذا عقاب الله عز وجل لوالدك بعد أن لبى داعي هواه وانجرف في نزقات شيطانه ونزغاته وصار من جنده فكان مصيره في الدنيا قبل الآخرة زوال ذريته وفناء نسله أمام عينيه مع ما ينتظره من العذاب الأليم في الآخرة ربما هو الآن إذا كان ميتًا يصطلي بالسعير

- ماذا.. ماذا..... ماذا.... ماذا تقول؟ إذا كان ميتًا؟ أليس قد مات وأرم وتحلل جسده؟

- الله أعلم

- ما معنى هذا؟

- سأخبرك عن وفاة والدك أو ما قيل بأنه قد مات، أنا رأيته ميتًا ولكن لا أدري أمات أم لا؟

- يعني أبي قد يكون حيًّا الآن لم يمت بعد؟

- قلت لك: الله أعلم، سأخبرك عن وفاته ولكن قبل ذلك سأخبرك عن اللعنة الرابعة أليست الرابعة؟

- ما حدث لسيف هو اللعنة الثالثة

- وأي لعنة؟! شبيهة بها لعنة أخيك مختار

- ماذا حدث له هو الآخر؟

- هو لم يصب بشيء مثل ما أصيب أخوك سيف، هو نجا من تلك الحادثة سليما معافى لم يحدث له شيء، ولكنه لم يكتمل لأي زوجة من زوجاته حمل

- كيف لم يكتمل لهن حمل؟

- أخوك تزوج زوجته عن حب كما قال لي حملت خمس مرات وفي كل مرة كان الجنين يختنق في رحمها ويسقط قبل أن يتم شهره الخامس، ظل هذا الأمر يحدث معها كل حمل، وتجول في عيادات أطباء كثيرين في الداخل فلم يجد سببًا لما يحدث فسافر إلى أمريكا وأيضًا أخبر أنه سليم وزوجته سليمة وليس هناك سبب علمي لما يحدث، رجع وهو حزين مهموم، فلم يجد أحدًا يخبره إلا أباك، كانت المرة الثالثة التي جاء فيها لوالدك يخبره بالأمر لكن في المرتين السابقتين لم أكن موجودًا لكن هذه المرة كنت جالسًا معهما في الحجرة التي يلتقي فيها أبوك بالناس، كان ذلك قبل وفاة أبيك

بسنتين تقريبًا، ظهرت عليه الحسرات وأنا أستمع كلامه وأرى بكاءه وأسمع أنينه بينما أبوك كان صلبًا لم يهتز ربما لأنه كان يعرف، وما كان منه إلَّا أن قال له تزوج بامرأة أخرى، وإذا حدث ذلك معها تزوج بثالثة ورابعة ربما ترزق من إحداهن ويكتمل الحمل

ولكنه أخبره أنه لا يريد أن يتزوج على زوجته التي يحبها فأخبره والدك ببرود:

- هذا شيء يرجع لك، كما تريد

وخرج وهو يجر أذيال الحسرات والآلام لم يجد حلًّا لمشكلته وهو يعلم أن والده يحل مشكلات الكثيرين ومع ذلك لم يساعده ولم يقف بجواره، وعندما خرج قلت لأبيك:

- لماذا تعامله بهذا البرود يا شيخ أمين؟ لماذا تركته دون مساعدة وأنت تساعد الغرباء؟

تشهق شهة الألم مردفة بأنين وقال:

- أنت لا تعرف ماذا أعاني بسببه، إني على خلاف شديد مع عكرم بسببه

- لماذا؟

- ما يحدث لمختار ابني من آثار اللعنات التي لا أعرف عددها حتى الآن مختار لن ينجب أبدًا ولو تزوج ألف مرة إلا إذا شاء اللّه، أخبرني كوزن بذلك، لقد سكن جنيًّا كافرًا رحم امرأته يخنق الجنين عندما تنفخ فيه الروح وإذا تزوج بثانية وثالثة ورابعة وخامسة ولو ألف واحدة سيحدث لها مثلما يحدث لزوجته إجلال إلا إذا شاء اللّه غير ذلك، وكل مرة يأتيني أخبره بأن يتزوج لكنه رافض أن يتزوج عليها، فلا أقدر أن أفعل له شيئًا، هذا مصيري يا سليم ومصير ذريتي لم يبق لي إلا كاشف وأرجو أن تنتهي هذه اللعنات والمصائب التابعة لها قبل أن يصاب بشيء، لقد دعوت اللّه كثيرًا أن يحميه.

- وهل تظن أن اللّه سيستجيب لك بعدما بعت نفسك للشياطين وتزوجت منهم ولا أدري ما الذي يحدث بالأسفل؟

نظر إلي ولم يتكلم، بدا عليه الحزن والألم ورأيت دموعًا لاحت في عينيه فنهرني ووقف منزعجًا من كلامي وقال:

- امش يا سليم من هنا الآن قبل أن تصاب بأذى

رمقته في شفقة ورأفت بحاله وانصرفت دون أن أتكلم، ومرت الأيام والسنون وتحقق ما قاله أبوك تزوج مختار أربع نسوة ولم تتجب واحدة منهن حتى بعد وفاة والدك تزوج ولم يحدث إنجاب، ذهب يمنة ويسرة حتى ذهب إلى السحرة والدجالين ولم يجد عندهم حلًّا حتى رضي بالأمر الواقع وعاش حياته كما هي بدون ذرية بعدما احتفه اليأس وفرمه الإحباط

قفزت حبات الدمع من عيني كاشف أمام مرأى من عمه الذي ملكه سعال شديد حتى سمعه من في خارج الغرفة فقلقوا عليه فقرعوا الباب، فوقف كاشف ينظر إليه تارة وإلى الباب تارة أخرى فقال له عمه:

- قل لهم إني بخير، وسأخرج بعد قليل.

وفعل ما طلبه منه عمّه فتلاشى القرع على الباب ثم التفت إليه وقال وهو يجلس:

- هذه إذن اللعنة الرابعة، واللعنة الخامسة التي خاف منها أبي أن تصيبني أصابتني في ذريتي، لم يبق إلا لعنتان، فما هما يا عمي؟

- أنا لا أدري كم عددهم الآن، ربما ما حدث لابن ابنتي ولابنتي من اللعنات

- لا، اللعنات تخص أبي وذريته، فماذا حدث بعد ذلك؟

- لم يحدث شيء لقد كنتم أربعة أولاد بالإضافة إلى أمك كل منكم أصيب بشيء فهذا لعنته، أما بعد ذلك فلم يحدث شيء، سوى أن أباك ذاع صيته وصار مقربًا من أكبر رؤوس في الدولة، بل صار معروفًا خارج مصر أيضًا، اشتهر شهرة عالمية وجنى أموالًا طائلة وثروات مهولة وكنوزا ثمينة لا يعلم أحد منا مقدارها ولا يعلم أحد منا أين هي الآن؟ ومع كل هذه الثروات والمكانة العالية لم يترك والدك القرية ظل فيها حبيسًا في حجرته مع جنيته رغم أنه كان في مقدوره أن يشتري مدينة بأكملها ومع ذلك بقي هنا حتى مات

- أنت أتيت إلى المهم الآن كيف مات؟ وماذا حدث بالضبط؟

نظر إليه في قلق وقد غشاه الضعف والوهن ثم أشار إليه وقال:

ـ افتح المصحف واقرأ آية الكرسي وسورة الرحمن وسور الإخلاص والفلق والناس ثم أحدثك

فتح كاشف المصحف وأخذ يتلو بصوت رخيم ما طلبه منه، وعندما انتهى كان عمه قد دخل في سبات وانقطاع رهيب عما حوله ومالت رأسه لأسفل انتفضت أحشاؤه فقام هارعًا نحوه يقلبه يمينًا وشمالًا، خاف أن يكون قد فارقته روحه، فلما وجده يفتح عينيه في ذهول، تنفس مرتاحًا قد أحس براحة تسري في جسده ظهرت على صوته قائلًا:

ـ الحمد لله، خلعت قلبي يا عمي.

أخذ عمه يتلفت حوله كالمأفون ثم قال لما سلط وجهه عليه:

- من؟ كاشف؟ ماذا حدث؟
- لم يحدث شيء، كنت أقرأ القرآن كما طلبت مني وعندما انتهيت مالت رأسك فخشيت أن تكون قد مت.
- ماذا تريد مني الآن؟ اتركني وارحل لقد أخبرتك بكل شيء

- مازال هناك شيء مهم لم تخبرني به، وهو موت أبي كيف مات؟ حتى هذه اللحظة لم يصب أبي بلعنة تخصه هو شخصيًّا في بدنه أو نفسه كل اللعنات والمصائب حلت بزوجته وأبنائه، أمّا هو فلم أر شيئًا أصابه حتى هذه اللحظة، ربما يكون في طريقة موته لعنة له، أرجوك لا تتركني قبل أن تتم حديثك لي، لم يبق إلا القليل.

تفرس وجهه في وجوم ثم قال:

- ماذا تريد أن تعرف يا ابن أمين؟

- أريد أن أعرف كيف مات أبي والأيام الأخيرة في حياته؟

أخفض رأسه وشهق شهقة ألم وزفر زفرة نصب ثم أخذ نفسًا عميقًا، وكاشف ينظر إليه وهو يرجع بظهره إلى الخلف ليجلس على الكرسي وهو يترقب كلامه يخرج من جوفه ينهي عذابه، وجده ينظر إليه ثم أخفض رأسه مرة أخرى إلى لحافه وقال:

- كان موته صدمة لنا جميعًا، لم نصدق ذلك، كان في كامل صحته وعافيته، لم يذهب إلى طبيب قط، فكيف مات بهذه السرعة؟ كل شيء بقدر من الله أولًا وآخرًا، لكنه كان معي قبل إعلان وفاته بثلاث ليال فقط هي

مدة رقدته على سريره في حجرته الملونة، طلب مني أن نتمشى سويّا في الأرض الزراعية التي ورثناها عن أبينا الشيخ الحسن، كما كنا نفعل ونحن صغار، نلعب ونجري ونرتع أمام عيني والدنا، ثم لما كبرنا تفرقت أحوالنا وبقيت الأرض على حالها، اندهشت من طلبه المفاجئ هذا أحسست أنه يريد أن يحدثني بعيدًا عن الدار وعن عيونهم مع أنه يعلم أنهم سيكونون خلفه، لا يتركونه، يراقبونه بالليل وبالنهار وخاصة عاشقته جنيته التي تغار عليه حتى من ثيابه، أحسست أنه شخص غريب عني لم أعهد منه مثل هذه الرقة واللين في الكلام بعد أن انجرف وتاه في سبل الشيطان، شعرت بلين ورطوبة في كلامه ونحن نتمشى بين أشجار البرتقال، لحظت من كلامه أنه خائف على نفسه وقلق على حياته وأحسست أنه يشعر بخطر يتهدده، عندما سألته عن السبب، وقف ونظر بعيدًا في الأفق يتشوفه ثم التفت إلي وقال بدون تردد:

- لو حدث لي شيء أريد أن أدفن في الحجرة السفلية أنا أعرف أنك ستفعل ذلك رغمًا عنك لأنهم لن يسمحوا لك بأن تخرجني منها لتدفنني في مقابر العائلة، وهذا

أفضل كي تكونوا بعيدين عن أذاهم، وأبنائي يكفي ما حدث لهم فلا تخبرهم بوفاتي ولا أريد أن يروني، لا تخبرهم إلا بعد أن أدفن

- ماذا تقول يا أمين؟ ما هذا الكلام؟

- لا تجادلني يا سليم واسمع كلامي ولا تسأل، وأبنائي أنا أعرف أنهم بعيدون عني وعنك فاعتنِ بهم ولو من بعيد وتحسس أخبارهم، ولاسيما ابني كاشف

اندهشت من تأكيده على العناية بك أكثر من أخويك مع أنه يعلم أنهما أصيبا بلعناته وأنت لم تصب بعد، فالعقل يقول أنه يوصي بهم أكثر، فلماذا أكد عليك أنت بالذات؟ فقلت له:

ـ ولماذا كاشف بالذات الذي أكدت على الاعتناء به مع أنه لم يصب بلعناتك؟

انشقت عيناه عن بعض حبات الدمع تهتز في عينيه ثم قال:

- لأن «كاشف» سيصاب بأكثر من لعنة وما سيصيبه ستتهد له الرواسي ويخر من هوله الطود المنيع.

- من أخبرك بذلك؟ ولماذا هو بالذات دون إخوته الذي ستشتد مصائبه

- لأن كل مصيبة تحدث ما بعدها أقوى منها ولأنه تأخر في المكوث معي مكث في البيت أكثر من إخوته

- ولماذا يفعلون ذلك ألن تنتهي تلك اللعنات بعد؟ يكفي ما حدث

- لا تكثر من الكلام يا سليم و....

قاطعته وأنا في ذروة غضبي:

ـ لا يا شيخ أمين، الأمور زادت عن حدها، ذريتك ستنتهي يا أمين إن لم تكن انتهت

صاح بي:

ـ اسكت يا سليم، اسكت، أنت لا تعرف حجم الصراعات والصواعق التي ترتج لها كل ليلة جدران الحجرة السفلية، اصطلام شديد بيني وبين عكرم وأبيها بسبب كل تلك الحوادث وبسبب ما يدبر لكاشف

وضعت يدي على كتفه في رقة وقلت بتلطف وقد أحسست لطافة قلبه وقربه من الرجوع فقلت:

- ألا تفكر في الرجوع والعودة يا أمين؟

- ماذا تقول؟ أي رجوع وأي عودة تقصد؟

- أنـا أحـس أن قلبـك بـدأ يـرق ويلـين، أشـعر أنـك ندمـت علـى مـا فعلـت

- ماذا تقول يا سليم؟

- ارجـع إلـى ربـك يـا أمـين وعـد إليـه، هـو وحـده الـذي يسـتطيع حمايتـك مـن هـؤلاء الكفـرة الفجـرة، مـازال أمامـك طريقًـا للرجـوع وأشـعر أن قلبـك بـدأ يلـين ويسـتجيب، زح عنـه غشـاوة الـران والضـلال وارجـع إلـى ربـك سـيقبلك إن شـاء اللّٰه.

دفع يدي وأعطى لي ظهره وقال:

ـ مـاذا تقـول يـا سـليم؟ في هـذا موتـي، سـيقتلوني قبـل أن أفكـر في ذلـك

ثم التفت إلي وقال:

- كيـف تجـرؤ أن تقـول ذلـك؟ ألا تعلـم أننـا قـد نكـون تحـت مراقبتهـم الآن بـل هـذا هـو اليقـين عنـدي أن أحـدًا منهـم معنـا وبيننـا ويسـمع مـا يقـال

- أنـا قلـت ذلـك خوفًـا عليـك ورأفـة بـك لمـا رأيـت دموعـك وأحسسـت أن قلبـك يشـعر بالنـدم والحسـرات وأن

منافحتك وصدامكم معهم بسبب أبنائك يدل على ذلك، فرأيتها فرصة أن أدعوك إلى العودة والرجوع إلى ربك

- انس هذا الكلام نهائيّا حتى لا تؤذى أو تضر أنت وأسرتك، وابق بعيدًا واسمع ما أقوله لك، ربما يكون هناك خطر يتهددني وربما لا يكون ولكن هذا من باب الوصية لك لأنك أنت الذي ستتولى كل شيء وسيكون هذا تحت أعينهم ولن يتركوك تفعل شيئا لا يريدونه وربما هذا هو الذي يحصل أني لن أخرج من الحجرة لا حيّا ولا ميتًا، ولا أعرف ما يدبر في الأسفل هؤلاء شياطين أولاد شياطين مهما أبدوا من محبة ولطف لنا فهم أعداء ظاهرو العداوة إلى يوم الدين.

كان هذا آخر حوار لي معه قبل أن يموت، مر يومان لم أره ولم أتكلم معه فقلقت عليه، فدخلت الدار لعلني أراه في حجرته العلوية أو في صحن الدار فلم أجد شيئا كانت خرابا تعوي فيها الريح وتنعق فيها البوم والغربان انقبض صدري أخذت أدور خلف فوهة الحجرة الحديدية، خفت أن أقترب منها تقدمت رجلي ثم تراجعت، ثم توقفت هلعًا وتسمرت قدماي في الأرض لما سمعت صوتًا يدك أنحاء البيت ويتردد صداه في جنباته لا أعرف مصدره هزني زلزل فؤادي وهو يصيح بي:

- انزل، لأخيك، فهو يحتاجك الآن، انزل ولا تتردد، اطمئن عليه

كان صوتًا عظيمًا كأصوات الشياطين، فقوي فؤادي وتحجر جسدي واتجهت نحو الحجرة بكل ثبات ورفعت غطاءها وليكن ما يكون، فربما يكون هذا نداءهم يريدون فعلًا مني النزول، فنزلت

فوجدتها ليست هي الحجرة التي رأيتها قبل ذلك، كانت متسعة بشكل مخيف تزخر بالستائر الحمراء ومواقد النيران تفوح منها روائح البخور المسحلة، أبصرت آخرها سريرا ضخما وصوت بكاء وأنين ينسل إلى أذنيَّ قادمًا من ناحيته فحجلت نحوه في حذر وترقب وأنا أتلفت حولي كالمرعوب، وكنت حقا مرعوبا فزعا تصطك ركبتاي وتتفلق أسناني، وكلما أتقدم خطوة للأمام يزداد الخنين وصوت البكاء دون أن أعرف مصدره، هناك شخص ملقى على السرير، ربما هو أخي، لكن هذا ليس صوت بكائه ونشيجه، ربما تكون قرينته وزوجته، خواطر كثيرة دارت في عقلي لم أتفوه بها حتى وصلت إلى السرير فوجدته ممددًا على السرير محملقًا في السقف، عيناه لا تطرفان لأول وهلة شعرت أنه جسد بلا روح لكني وجدت رموشه تطرف في صمت، ويداه مفرودتان بجوار جنبيه. هرعت إليه وجلست عند رأسه أهزه وأحركه

ـ أخي أمين، أخي، شيخ أمين رد علي

ولـم يتكلـم نظـر إلـي في سـكون ثـم أطـرق بعينيـه ثـم رفعهمـا وأحـد بصـره في السـقف فتلفـت حولـي كالمجنـون وأنـا أقـول:

ـ ألا أحد يخبرني ماذا به؟

وتلفت إليـه احتضنـت رأسـه وأنـا أبكـي فسـمعت صوتًا شـنيعًا مـن فوقي:

ـ أخوك يحتضر.

رفعـت رأسـي لأرى مصـدر الصـوت فلـم أر سـوى عينـين غارقتـين في الاحمـرار دون أن أرى جسـدًا يحملهمـا، كانـت تبرقان فيّ، فارتعبـت وارتعشـت وبلـغ قلبـي حنجرتـي، فتركـت رأس أخـي على المخـدة كمـا كان وهـو يحـدق لتلـك العينـين، يسـتمع لكلامنـا، فقلـت بصـوت مرتعـش:

ـ ماذا حدث له؟

ـ لا تسـأل مـاذا حـدث لـه؟ ولكنـه يحتضـر ولا نعلـم متـى سـيموت؟ ولكـن لتعلـم جيـدًا كمـا كنـت وفيّـا ومخلصًـا معـه في حياتـه عليـك أن تكـون مخلصًـا لـه بعـد مماتـه ولا تفـش سـره، أخـوك سـيدفن هنـا ولا تخبـر أحـدًا إلا بعدمـا يجهـز ويعـد للدفـن في هـذه الحجـرة، لـن يـراه أحـد غيـرك، ولـن يدخـل هنـا أحـد غيـرك حتـى يدفـن، ثـم بعـد ذلـك تغلـق بـاب الحجـرة بإحـكام

وسيكون معك رجال لنا يساعدونك في الحماية والتأمين، ثم بعد ذلك تبني قبرًا صغيرًا فوق الحجرة ثم تقيم مقامًا كبيرًا عليه وتغطيه ببردته الخضراء وتقيم سياجًا حول المقام، ثم لتعلم أن هذا المقام سيكون حصنًا حصينًا، لا تدع أحدًا يقترب منه أو يعبث به أو يأخذ شيئًا منه، ولو شعرة أخذت منه أو عبث به أو أزيل شيء منه ستطلق عليكم شياطين لا قبل لكم بها يعيثون في الأرض فسادًا وإفسادًا وتدميرًا وخرابًا ولن تصابوا بسبع لعنات فقط بل بلعنات كعدد قطرات الماء وحبات الرمل. هذا تحذير من كوزن إليك فيجب أن تعيه وأن تحمي المقام ولا يدخل أحد البيت إلا أنت أو أحد من أولاده، أتفهمني يا سليم؟

هززت رأسي وأنا أقول:

- نعم، أفهم، وسأنفذ كل ما تأمر به

- أنت رجل عاقل يا سليم وها أنت رأيت وترى ما يحدث لمن يخالفني أو يعصى أوامري

خرجت من هناك وأنا لا أقدر على التحكم في أعصابي وقوتي التي وهنت دخلت بيتي في صمت وولجت حجرتي وأرتجتها علي وانسللت في فراشي ملتحفًا بلحاف ثقيل وأنا

أرتعش من الفزع، ظللت في حجرتي لا أكلم أحدًا ولا أخرج منها إلا لقضاء حاجتي ثم الولوج إليها وإرتاجها علي حتى جاءت الليلة التالية نمت كعادتي في فراشي ملتحفًا بلحافي لم يغمض جفني ولم يسرِ في عيني النوم، أحسست كأني نائم، سمعت صوتًا من خلف النافذة يناديني:

- يا سليم، يا سليم، اذهب لأخيك الآن، اذهب إليه الآن.

هرعت من منامي وقمت مفزوعًا، وتمشيت في حجرتي في خوف مترددًا أذهب إليه أم لا؟ ثم عقدت العزم على الذهاب إليه، وكانت آخر مرة أرى وجهه، رأيته كالليلة السابقة مفتوح العينين محملقًا في السقف ولكن هذه المرة لم يكن يرمش أو يتحرك كان كالحجر المتصلب، وضعت رأسي على صدره فلم أسمع لأنفاسه ولا لضربات قلبه أي حركة أو صوت فأيقنت أنه مات، وإن كان عندي ظن ظل معي حتى هذه اللحظة أنه لم يمت بعد، ولكني أذعنت لهم ورضيت قوله وهو يقول لي وبجواره صراخ وعويل وبكاء ونحيب، صرخ فيها قبل أن يكلمني:

- اصمتي، اسكتي يا عكرم

لم تسمع كلامه ولم تصمت وزاد بكاؤها وأنينها، ثم وجه إلي الكلام في خضم هذا النحيب المتزايد وعيناه تبرقان في من سقف الحجرة:

ـ الآن حان دورك يا سليم نفذ ما أمرتك به، ألق النظرة الأخيرة على أخيك، ولا تشغل بالك بتغسيله وتكفينه سنتولى نحن ذلك، اذهب الآن قف مع رجالنا في صحن الدار حتى ننتهي من تجهيزه وبعد ساعتين انزل لتلقي إليه النظرة الأخيرة ثم اذهب وأخبر أهل البلد كلهم وأبناءه بأن الشيخ أمين قد مات ولا تجعل أحدا يقترب من فتحة الحجرة كن مع رجالي مانعًا لهم، وسيسير كل شيء بشكل صحيح وسيأتيك طبيب المستشفى بنفسه ويعطيك تصريح الدفن بعد الدفن فلا تشغل بالك بشيء. نفذ كل ما أمرتك به وكن على وعي بكل نصائحي وتحذيراتي.

وحدث كل ما أمر به هذا اللعين وعلمت البلد بعد دفنه ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من الحجرة ظل الجميع في الخارج وعمت الفوضى خارج الدار وعلا الصراخ والنحيب من البلد كلها، حتى أنتَ وأخواك منعتم من النزول لأسفل لرؤيته وتوديعه بنظراتكم

وتم كل شيء كما قال بسهولة ويسر، ولم يسأل أحد من الجهات المختصة عن سبب الوفاة إلا ما كان من بعض أهل البلدة فيما بينهم، وإلى الآن أنا غير مصدق لهذه القصة، وكأني أشعر بأن أخي مازال حيّا ربما مازل حيّا وربما يكون ميتًا، بصراحة لا أعلم.

ثم بعد وفاته لم يهجر البيت ظل على كل حاله كل يوم ينظف ويرتب ويعتنى به أشد العناية كأن أهله فيه، لأني لم أتركه، جعلت له خادمة تنظفه كل صباح وتغسل أوانيه رغم أنها لم تستعمل، وتنظف أبوابه وشبابيكه كل يوم تحت عيني، لم أترك هذا يفعل بعيدًا عني حتى لا يقترب أحد من المقام فأنا أعلم خطورة الاقتراب منه أو العبث فيه ؛ لذلك كنت آتي بكرسي وأجلس أمامه أتأمله وأفكر فيه، وينجرف عقلي بعيدًا . كانت تسحلني الوساوس والهواجس بعيدًا أسأل نفسي ماذا حدث؟ وكيف حدث كل هذا؟ ولماذا أقدم أخي على ما فعله؟ وما الذي جناه؟

فلا أرى جوابًا، كان شعور يختلجني كثيرًا بأنه لم يمت بعد وكأن أنفاسه تنبعث من الأسفل، ولكني كنت أكذب أحاسيسي وشعوري كل مرة، وأقنع نفسي بموته، لكن ما رأيك أنت هل تحس بأنه مازال حيّا أم أنه قد مات وأصبح من الغابرين؟

نظر سليم إلى كاشف فوجد وجهه بين يديه فاندهش، ثم زادت دهشته وعلت حسرته لما وجد الدموع تغسل عينيه، لا يدري هل يبكي على ما حدث لوالده أم لعلمه أنه أكثرهم لعنة وأزخرهم مصيبة؟ نظر إليه في صمت فوجد عينيه قد شرقتا بالدموع، فقال له:

ـ ما بك يا دكتور؟

نظر إليه دون أن يتكلم فانتابت الشيخ رعشة خوف اهتزت لها جوانحه من حدة نظراته نحوه ثم قال:

ـ هذا هو كل شيء، كل ما أعلمه عن أسرار أبيك المزحرة وخباياه المدفونة منذ أمد بعيد، ولا أعلم غيرها

أحد النظر إليه ثم قال:

ـ أنت قلت أنه أخبرك أني أكثرهم لعنة، لكن حتى الآن لم أصب إلا بلعنة واحدة أين بقية اللعنات؟

ثم صمت برهة يفكر:

- أم أن كل إصابة لكل فرد من أسرتي تعد لعنة؟! زوجتي لعنة وأولادي الثلاثة ثلاث لعنات، يصبح المجموع أربع لعنات، لكن هذا لا يستقيم من حيث العدد إذا عددنا لعنات باقي أسرته أمي وإخوتي الثلاثة يعني يصبح المجموع ثماني لعنات، هذا لا يستقيم من حيث العدد، إذن ما حدث لأولادي وزوجتي يعد لعنة واحدة، إذن أين باقي اللعنات؟ أين اللعنة السادسة واللعنة السابعة؟

- أنا لا أدري شيئًا عن باقي اللعنات حتى إني لم أحسبها حتى إني نسيتها ولم أعد أتذكرها منذ أن مات والدك، لكن ما حدث لابن ابنتي وما حدث لها جعلني أفكر من جديد في أمر هذه اللعنات وفي عددها، فربما ما حدث لهما من ضمن هذه اللعنات، فهم كانوا يبغضونني ولا يحبونني فهم....

انقطع صوته عن الكلام بوروده أوخم المناهل بسعال شديد لا يكف، وهو ينظر إليه مادا يده نحوه مشيرًا نحو زجاجة مياه، أسجد كاشف ببصره نحوه ثم نظر إلى المياه تراوده وساوس الشياطين، والسعال يشتد بعمه حتى ألقى بنفسه نحوه عله ينجده، فقام واتجه نحو الماء ثم أفرغ بعضًا منه في كوب وقدمه إليه فاختطفه منه بسرعة كالبرق، وطفق يشتف ما في الكوب من ماء بينما كاشف ينظر إليه وهو واقف عند رأسه يفكر، شرد بعقله بعيدًا، غير عابئ بعمه ولا منتبه له، وقد أنهى ما في الكوب وأرجع ظهره للخلف في راحة وطمأنينة ثم قال:

ـ شكرًا لك يا ابن أخي أنقذتني، لقد رأيت الهلاك بعيني إن لم تعطني الماء كنت ستراني جثة أمام عينيك

ابتسم ابتسامة خبيثة لئيمة كمن أرضع بلبان اللؤم وربي في حجر الشر ثم أمسك بوسادة بيضاء صغيرة على السرير ووضعها على فخذيه عندما جلس قصاد عمه ثم قال:

- تعرف في ماذا أفكر يا عمي؟ ولا أدري هل ما فكرت فيه صحيح أم لا؟

- في ماذا فكرت؟

- فكرت في اللعنة السادسة التي أصابتني

- ما هي؟

- لا أعرف هل هي لعنة أم لا؟ لكن من حيث النظر والتأمل تجد أنها لعنة

- ما هي؟

- عندما ترى طبيبًا مشهورًا كبيرًا معروفًا في كل مكان، وذا مكانة مرموقة في المجتمع ويفعل هذه الأفعال؟ ربما تكون لعنة حقّا وأي لعنة؟

- ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم مغزى كلامك

وقف والوسادة في يده والتفت ينظر إلى الباب محدقًا في مزلاجه المرتج به، ثم نظر يمينًا ودار في الحجرة وهو ينظر

لعمه ثم ابتسم في لؤم وهو يقترب منه حتى وقف عند رأسه وقال:

ـ لما ترى جراحًا مشهورا يبحث عن الجثث في كل مكان يسرقها من المقابر ويخطف الأطفال الصغار مثل فاروق ابن ابنتك ويقدمهم ولائم لقتلة أولاده أليست هذه لعنة أخرى تستحق التأمل؟

صعق وذهل من كلامه وكأن فأسًا انغرست في رأسه فمال بصدره للأمام وهو يصيح:

ـ ماذا قلت؟ أنت الذي..........

ابتسم له والوسادة في يديه يضغط عليها ثم قال:

ـ نعم، أنا الذي.......

فصاح به وهو يمد يديه نحوه محاولًا ضربه وهو يقول:

ـ يا مجرم يا ابن المجرم

رفع الوسادة وهجم بها عليه واضعا إياها على فمه وهو يقول:

ـ وأنت أخو المجرم.

وظل يضغط بكلتا يديه مستجمعًا جسده، والآخر تحت قبضته تضطرب رجلاه وتتحرك وتثور يداه ولكن ابن أخيه كان أقوى منه متحكمًا فيه ظل يضغط بقوة حتى خمدت يداه ورجلاه عن الثوران والاضطراب، وهوت يداه بجوار جنبيه على السرير في صمت، وكاشف لم ينزع الوسادة بعد عن وجهه، ظل كما هو يضغط في غلٍ وبغضٍ على فمه مع أنه لفظ أنفاسه وفاضت روحه، ولكن ما يثور بداخله جعله يتمادى في غيه وإجرامه، ثم بعد لحظات قام عنه والوسادة في يده، نظر حواليه فوجد كيس دواء على «الكومدينو» فأمسكه ومسح به بصماته من على الوسادة ثم وضعها خلف رأسه وعدل من هيئة عمه كما كان قبل أن يدخل عليه متكئًا بظهره إلى الخلف، ثم هرع نحو باب الحجرة وأزاح المزلاج عن موضعه ثم عاد إلى سرير عمه وصاح صارخًا:

- عمي، عمي سليم، عمي

وأنشأ يحركه ويهز فيه مدعيًا القلق عليه، وهو يصرخ ويصلق بشدة حتى انتبه من في الخارج إلى صراخه، فهرعوا نحو الباب يتقدمهم عماد الذي أخذ يدفع الباب وهو يحرك مقبضه فانفتح فاندفعوا داخل الحجرة، عماد وزوجته وأطفاله فوجدوا كاشفًا بجوار عمه على السرير تنهمر الدموع كأفواه

القرب من عينيه وهو متكئ برأسه على كتف عمه الجاحظة عيناه مبرقًا بهما أمامه وفمه نصف مفتوح، دار عماد بعينيه على والده الراقد وعلى كاشف المنهمر في البكاء والنحيب فخطا نحوهما ببطء وقال وصوته يهتز:

ـ ماذا حدث؟

رفع كاشف رأسه وكانت الدموع قد سحت على وجهه كمطر غزيز ثم مسح أنفه بسبابته وقال وهو يقوم دون أن ينظر لأحد:

ـ لا أدري فجأة دخل في نوبة سعال شديد، أعطيته كوب ماء شربه ثم ما هي إلا ثوانٍ حتى أرجع ظهره للخلف وابتسم لي وسكت كل شيءٍ فيه وانطفأت أنواره، قلبته يمينًا ويسارًا فوجدته قد فارق الحياة

رمقه عماد والدموع بدأت تنسحب من عينيه إلى خديه ويداه ترتعشان، تجاوز كاشفا متجهًا نحو أبيه، ثم جلس على حافة السرير بالقرب من رأسه وهو يسف النظر إليه وإلى هيئته لم يخطر في باله قط ولم يشك لحظة أن ابن عمه هو الذي قتل أباه، فانسابت الدموع من عينيه وقذف بنفسه عليه وهو يبكي بصوت مبكٍ

نظر إليه كاشف في دناءة وخبث، توالت النظرات خارجة من عينيه يقطر منهما دمه ويتبرأ من فعله لسانه ويده تطلقه نفسه، لم يمسح دموعه وإنما مسح قلبه ودفنه منذ زمن بعيد ربما صدق أن ما هو فيه من آثار اللعنات التي اجتاحتهم، اقترب من باب الحجرة منسلًا من بينهم، ثم التفت وقال بصوت باك:

- سأذهب لأعلن الخبر في البلدة ثم أتصل بأخويَّ، وأنت اتصل بإخوتك كي يشهدوا جنازة أبيهم، لا تقلق يا عماد كلنا بجوارك، عمك هو والد لنا جميعًا.

لم يلتفت عماد إليه، كان غارقًا في بكاء ونحيب شديدين، فهز رأسه ونظر لزوجته فوجدها تبكي وهي تحتضن أطفالها الصغار

حرك رأسه يمينًا ويسارًا في حسرة ثم خرج من الغرفة.

●●●

(١٢)

خرج وكأنه لم يفعل شيئًا، وكأن يده لم تلوث ولم تصب دمًا حرامًا، وأي دم؟! إنه عمه الذي فض له ختم أسرار والده وكشف عنها الغطاء مبينًا إياها أمام عينيه، وهو الذي وقف بجوار أبيه حتى آخر لحظات حياته، وكتم سره طيلة هذه السنوات ولم يفضحه وإن كان رغمًا عنه خوفًا من بطشهم إلا إنه كان بإمكانه لو تملك شيئًا من الشجاعة أن يبوح بكل ذلك ولكنه كان صورة الخوف ومقر الرعب، فآثر الاستكانة والركون والرقود في مكامن الظل بعيدًا عن أي نور.

اختار لنفسه طريقًا ارتضاه لنفسه ظن أنه خير، حتى مسته المصائب وحلت بداره، واختطف ابن ابنته فماتت بعده، في غموض تام وإبهام مقيت لا يعلم أحد منهم شيئًا، وعندما علم مات، كان موته على يد ابن أخيه بعد أن أخبره بقصة والده وبأمر اللعنات السبع.

أخبره الآخر المنحرف الملعون بأمره وبأسراره وبأنه وراء اختفاء فاروق حفيده فكان سببًا في هلاك أمه وجنون أبيه، ثم قتل عمه وخرج من عنده يسارع في تشييعه، فأخبر العمدة بخبر موته، فما كانت سوى لحظات حتى انتشر الخبر في القرية كلها وعلت «ميكروفونات الجوامع» معلنة وفاة الشيخ سليم والجنازة عقب صلاة المغرب.

لـم يشـعر أنـه أنهـى مهمتـه بعـد، فبعدمـا عـرف الحقيقـة وكشـف الغطـاء عـن سـت لعنـات تأكـد لديـه خمـس منهـا فكانـت يقينًـا وعلمـا متينًـا لديـه، أمـا السـادسـة فكانـت محـض تفكيـر مـن عنـده، ظـن أن مـا بـه مـن جـري ولهـث وراء الموتـى والجثـث إنمـا هـو مـن هـذه اللعنـات بعـد أن كان ذا شـأن عظيـم في الدولـة، بـل في العالـم كلـه، فلـم يشـغل بالـه كثيـرًا في التأكـد منهـا، وركـز جـل تفكيـره في اللعنـة السـابعة حتـى شـل تفكيـره.

دخـل بيتـه وهـو يفكـر فيهـا مـا هـي هـذه اللعنـة السـابعة؟ وقـف أمـام المقـام ينظـر إليـه في تحـد صـارخ وكأنـه لا يأبـه بشـيء، حتـى تشـقق عقلـه وتعـب تفكيـره ولـم يهتـد إليهـا، فآثـر أن يـدع التفكيـر فيهـا قليلًا، ورأى أن ينهـي اللعنـة السـادسـة، ويغلق نـافذتها ويهيـل التـراب عليهـا حتـى يفيـق ويعـود إلـى طبيعتـه أو حتـى يتفـرغ للبحـث عـن باقـي الحقائـق التائهـة عنـه ومـن أهمهـا معرفـة اللعنـة السـابعة، ومعرفـة مـا إذا كان والـده حيًّـا أم لا؟

فـرأى أن لحظـات الثـأر وأوقاتـه قـد حانـت، فليبـدأ بمـن يعرفهـم ويسـهل عليـه اقتناصهـم وهمـا صـالـح والجـروي، وإن كان قبـل ذلـك يسـعى سـعيًا حثيثًـا معهـم للوصـول إلـى رأس الأفعـى كبيرهـم الدكتـور الـذي يتكلمـون عنـه كثيـرًا دون أن يعـرف عنـه شيئًـا أو يعـرف حتـى اسـمه، ولكـن هـذا الحلـم بـات كابوسًـا مريعًـا وطيفًـا ربمـا هـو محـض خيـال وليـس حقيقـة، فأيـن هـذا الدكتـور

المحرك لكل هؤلاء والمدبر لكل خططهم وأعمالهم؟ لماذا لا يظهر؟ ربما يكون إبليس أو جنيّا أو ربما هو وهم وخيال صرف ليس له وجود في الواقع

- فلماذا أتعبت نفسي في البحث خلفه وأمامي بعض أذرعه التي تساعدني في تحقيق أهدافي وزرع الرعب في قلوب العالمين، هؤلاء هم الأولى بالانتقام والثأر فربما كانوا ممن قاموا بالمذبحة في شقتي واستأصلوا فرحتي ومحوا كل علامات الفرح من حياتي وكانوا سببًا لما أنا فيه الآن.

أسئلة كثيرة وحوارات عقيمة تخطفته من كل جانب فنحى رأسه بعيدًا عن المقام ونظر إلى الحجرة التي خلف المقام والتي كان يختلي فيها الشيخ أمين بكتبه العتيقة حيث تحوي مجموعة ضخمة من الكتب القديمة النادرة

نظر إليها وهو يفكر فيما حوته فلم يتردد لحظة وأخرج هاتفه يتصل بصالح ويخبره بالخبر العظيم الذي كان ينتظره وهو خبر موت عمه اليوم فدعاه هو والجروي ليأتيا في أسرع وقت حتى يشهدا الجنازة ثم يختلوا به ويخرجوا جثته ثم جثة ابنته، فيكون قد ظفر بأربع جثث من عائلته، ثم طلب منه أن يأتي هو والجروي إليه في بيته مباشرة ليقدمهما لأسرة عمه باعتبار أنهما صديقاه جاء ليعزياه في عمه.

أحس براحة وسكينة لما أنهى المكالمة، حيث رأى أنها فرصة ليتخلص من كل من يبغضه ويمقته في حياته حتى يهنأ بما بقي من حياته، أدخل الهاتف في جيب بنطاله، ثم رمل نحو تلك الحجرة التي علق بصره عليها ركل بابها بقدمه، كان مواربًا منذ آخر مرة كان يفتش فيها لم يغلقه جيدا، دخلها ثم نفضها بعينيه يتصفح كتب والده الرابضة فوق الرفوف متأقة بالأتربة غاصة بالأغبرة طافحة بعلامات مضي السنين وكر الأيام ومر الليالي، دار فيها بعض الخطوات ثم خرج مسرعًا نحو الغرفة التي ينام فيها تلك الغرفة التي شهدت حوادث طامة ومصائب عظيمة بداية من وفاة أمه مرورًا باختطاف توأمه وهلاك خالته، لم يكن جريئًا تلك الجرأة قبل ما حدث له ولأسرته، بعدها صار إنسانًا آخر بلا قلب أو إحساس أو شعور لم يعد يخاف الموت أو يهابه أو يرتعب من ذكر الجن والشياطين أو من به شر أصيل، فلم تعد حياته تهمه، فليس هناك فرق بين حياته وموته كلاهما سواء، فانتزعت المهابة والخوف من قلبه، وسار نحوها حتى دخلها، فتح الدولاب وأخرج حقيبته الجلدية السوداء، وضعها على السرير وحرك بعض الأرقام ثم فتحها، نفضها بعينيه متصفحًا ما فيها، كانت تحوي بعض الأدوات الطبية وغير الطبية مثل بعض المشارط الطبية والمقصات وإبر الحقن وكانت تضم منشارًا صغيرًا لتقطيع العظام، وثلاثة

سكاكين مختلفي الأحجام، ودباسة جراحية للإغلاق، وبعض قواطع الجلد والحفارات الكهربائية وبعض القواطع الميكانيكية مثل: (مشرط، ونصل، وحفار، ومبرد، وفاتح، وسداد)

حدج تلك الأدوات المفزعة ببصره ثم أمسك مشرطًا جراحيّا صغيرًا ذا حدين رمقه ببصره ثم وضعه في جيب بنطاله الأيمن، ثم أمسك سكينا صغيرا في صورة خنجر حاد له غطاء سحب عنه الغطاء فبدا لمعانه وبريقه، ثم أدخل غطاءه مرة أخرى ووضعه في جيبه الآخر، ثم رفع منشار العظام الصغير وأسف النظر إليه، ثم وضعه مرة أخرى في الحقيبة، ثم أغلقها دون أن يحرك الأرقام السرية وحملها إلى الخارج ثم دخل بها غرفة الكتب العتيقة التي كان فيها منذ قليل، جال بعينيه في الغرفة باحثًا عن مكان يواري فيه هذه الحقيبة حتى وجد على الأرض بعض الكراتين المغلقة لا يدري ما بها، لم يشغل باله، واتجه نحوها ثم وضع حقيبته خلف تلك الكراتين بحيث لا ترى، ثم جال ببصره مرة أخرى في المكان، هز رأسه، ثم خرج ينتظر ضيفيه ورفيقي درب الانحراف والشذوذ.

وقف عند المقام يتأمله تارة وينظر في ساعته تارة أخرى، مرت ساعة وهو على حالته تلك في حيرة واضطراب يريد أن ينصرف لشهود جنازة عمه حتى لا يشعروا بغيابه وأيضًا يريد أن

يتم ما عزم عليه قبل أن يخرج إليهم، ظل على هذه الحال يتحرك أمام المقام في ذهاب وإياب حتى رن هاتفه المحمول أخرجه على عجالة، وابتسم لما وجد رقمه فرفعه على أذنه يحدثه:

- أين أنت الآن؟.... عظيم سآتي إليك على الفور

وخرج من بيته مسرعًا يهرول في مشيته، حتى وجد السيارة السوداء في نفس المكان الذي وضع فيه «فاروق» لما اختطفه كاشف، فتح الباب المقابل لباب السائق الأمامي فلم يجد سوى صالح قابضًا على مقود السيارة فاندهش وتربص به الذهول واكتنفه استغراب فقال:

- أين الجروي؟
- الجروي طلب مني أن أسبقه وهو سيأتي بعد ساعة أو ساعتين
- لماذا تأخر؟ أول مرة يتغيب، ويتغيب في يوم فيه جثتان مرة واحدة وربما أكثر
- قلت لك هو سيأتي لا تقلق، كما أننا لن نقتنص تلك الجثث ونستلها إلا في الليل في هدوء فأنت قلت أنهما جثتان ومن الممكن أن تكون أكثر، فلا تقلق الجروي سيأتي هو أكد لي ذلك.

هز رأسه وقال:

ـ جيد، هيا نذهب إلى بيتنا؟

ـ لماذا نذهب إلى بيتك ألم نحضر الجنازة أولًا؟

نظر كاشف في ساعته وقال:

– الجنازة بعد صلاة المغرب، ليست الآن، أخروها من أجل أن يحضر بقية أولاده، فمازال أمامنا أكثر من ثلاث ساعات، فهيا نستريح عندي في البيت قليلًا ثم بعد ساعة أو ساعتين نذهب لشهود الجنازة

– بيتك هذا الذي فيه مقام والدك الذي حدثتنا عنه كثيرًا

ابتسم له وقال:

ـ نعم، وسأوريك إياه ستنبهر عندما تراه

ـ جيد، أريد أن أراه، اركب

وركب كاشف بجوار صالح الذي قال له قبل أن ينطلق بالسيارة:

ـ أنا جائع جدًا يا كاشف هل سنجد عندكم طعامًا؟

ضحك كاشف وقال:

ـ نحن بيت الكرم يا صالح، لا تقلق ستجد في بيتنا كل ما لذ وطاب، هيا انطلق وأنا أشير لك على الطريق

وانطلقت السيارة، وفي وقت قليل كانت واقفة أمام بيت الشيخ أمين، قال كاشف:

ـ أدخل السيارة الجنينة.

ـ لماذا؟ نحن لن نمكث كثيرا بالداخل، دعها هنا أحسن

هز كاشف رأسه مبتسما وقال:

ـ كما تريد

وانتظر حتى ترجل صالح وهو ينظر حوله ثم ترجل وهو مبتسم قائلًا:

ـ تفضل يا صالح، البيت بيتك

نظر صالح إلى البيت ثم دخل خلف كاشف الذي يتقدمه في ثبات بينما هو ينظر حوله يمنة ويسرة، وعندما دخل أغلق كاشف الباب ثم رحب به مستعينا بيده مشيرا بيمناه أمامه:

ـ تفضل يا صالح، لا يوجد أحد في البيت غيرنا، فلمَ الحياء؟

نظر صالح عن يمينه ويساره ثم خطا في ممر قصير حتى وجد نفسه في صحن الدار، وكان كاشف قد سبقه ووقف عند المقام، نظر صالح إلى المقام واتجه نحوه وهو منبهر بشكله وبهيئته ثم أخذ يطوف حوله وقد أعجب ببردته فجاء ليمد يده فصاح به كاشف:

ـ لا، لا تفعل يا صالح

انزعج صالح وأبدى دهشة واستغرابًا وقال:

ـ أنا لن آخذ شيئًا، أنا أتحسسه فقط

ابتسم كاشف وقال:

– من الأفضل لي ولك ألا نلمس شيئًا من هذا المقام

– لماذا؟

– سأخبرك إن شاء الله إذا جاءت الفرصة، والآن هيا أريك مكتبة أبي الضخمة وكتبه العتيقة ربما تجد فيها شيئًا يعجبك

– أنا لا أحب الكتب.

– لا يضر، انظر إليها وقل رأيك فيها، سترى عجبًا، لم تر مثل هذه المكتبة قبل الآن، أنت ضيفي وسوف أريك كل شيء في البيت الأثري هذا

– لا مانع، هيا، مع أني لا أحب الكتب

أشار كاشف بيده اليمنى نحو غرفة الكتب خلف المقام وهو مبتسم ثم سبقه بخطوات متقدما إياه داخلًا الغرفة قبله ينادي عليه:

ـ تفضل يا صالح، لم كل هذا الحياء؟

ابتسم صالح وقال:

ـ أنا لا أستحي كما تعرف ولا أخجل من شيء

ودخل بقدميه الغرفة وأخذ ينظر إلى الكتب في انبهار شديد من كثرتها وربوضها بجوار بعضها متراصة في شكل عجيب، وقف كاشف عن يمينه ينظر مثله إلى الكتب ويداه في جيبي بنطاله ووجهه يدور يمنة ويسرة مثل صالح ثم التفت إلى صالح فجأة ونظر إليه وهو مبتسم ثم غرس في بطنه المشرط، وقال :

ـ ما رأيك في الكتب؟

اتسعتا عينا صالح وكادت أن تخرج مآقيه من محجري عينيه، نظر إلى أسفل إلى بطنه فوجد المشرط مغروسًا في بطنه والدماء تسيل منه، فقال في خور ووهن:

ـ ماذا فعلت يا كلب؟

أخرج كاشف السكين الصغير من جيبه الآخر وأزاح غطاءه ثم غرسه في صدره، فصار المشرط في بطنه من أسفل والسكين في صدره من أعلى فشهق صالح شهقة عظيمة وتراجع بظهره إلى الخلف قليلًا بينما كاشف ينظر إليه في فرح وسعادة، وخطا نحوه وأمسك بيده اليمنى المشرط وبيده اليسرى السكين، وفي آن واحد صعد بيده اليمنى الممسكة بالمشرط إلى أعلى حتى بداية العنق ونزل بيده اليسرى والسكين فيها إلى أسفل حتى السرة، شاقًا بطنه مرتين مرة من أسفل لأعلى ومرة من أعلى لأسفل، فخرجت أمعاؤه وأحشاؤه تتدلى من بطنه التي انفجرت عن بركة من الدماء تسيل منها حتى خارت قواه وسعى إليه الموت فخر على الأرض يضطرب جسده ويرتعد وتحركت رجلاه في رعشات متتالية بخروج الروح من جسده.

وقف كاشف عند رأسه ينظر إليه في صمت قد علته علامات الغضب والحنق، ثم وجه بصره نحو مقام والده فأحد بصره نحوه في مقت.

●●●

(١٣)

وقف كاشف مع المشيعين أمام القبر، وعمه يلحد في قبره وقد لبس الليل جلبابا من القار، فقيد الظلام ألحاظ العيون بعد أن خلع الليل على الواقفين فروته إلا ما بان من هالات المصابيح وأنوار المشاعل والكولبات، وقفوا في خشوع وصمت مهيب، تعلو من بينهم أصوات المصابين والمكروبين من الأقرباء والمحبين.

أرقل عماد في نشيج طويل ونحيب مريع لم يتمالك نفسه كاد أن يهوي على الأرض لولا أن أسنده بعض الرجال فأجلسوه على الأرض، بجوار القبر ويده على عينيه لا يكاد يصدق، وإخوته الآخرون منهم من وقف باردا كألواح من الثلج وكأن هذا المتوفى لا يعنيه ولا يقرب له، ربما لبعد المسافات وقطع الصلات والروابط منذ زمن، وهذا حال أكثر المتعلمين في القرى النازحين إلى المدن حيث البهرجة، والأضواء والشهرة.

كان غيرهم من أهل البلد أكثر تأثرًا منهم فبانت على وجوههم التي أخذ يتوضحها ويتصفحها كاشف وهو واقف على طرف، بعيدًا عن القبر، أخذ يتوضح تلك الوجوه متصفحًا إياها فرأى علامات الحزن والحسرة على وجوههم التي تسربلت بالوجع والألم على فراق هذا الشيخ الذي أحبوه

كما أحبوا أخاه من قبل وإن كان حبهم لأخيه مشوبًا بالخوف منه إلا أن هذا كان حبهم له حبّا صافيًا لم يكدر ولم يعكر صفوه.

فلاحت الحسرات والأحزان على تلك الوجوه الكثيرة المزدحمة حول القبر من كل جانب رافعين مصابيحهم ومشاعلهم وفوانيسهم فبانت كنجم ساطع يشع ضوءًا من كل جانب.

لم تتركهم عينا كاشف الذي طفق يتفرس تلك الوجوه، ويستشرفها ويستوضحها مرت عيناه عليهم دون أن يبدي أي اهتمام أو اندهاشة حتى وقف على وجه رجل يقف بعيدًا عن الواقفين مشتملًا بمعطف أسود أنيق مواريًا عينيه بنظارة شمسية سوداء ماركة ريبان، توقف عند هذا الوجه المقمر كأنه ضوء أو كوكب منير أو مصباح كمصابيحهم، ما هذا الضوء الذي يشع من وجهه المقمر؟! أول ما تراه تأخذه عيناك لا تمر عليه هكذا بل تتوقف لتتأمله وتحدق فيه، فيقبله قلبك بسرعة عجيبة ويغوص في أعماق روحك تكاد العيون تأكله، لبس ديباجة الحسن وكأن البدر صفحة وجهه، وجهه قيد الأبصار تخال الشمس برقعت غرته، والليل ناسب طرته وأصداغه، زرافين أصداغه معاليق القلوب، كأن صدغه قرط من المسك على عارض البدر، قد همّ أرقم الشعر على شاربه.

فهذا الوجه ليس من وجوه أهل هذه المناطق، وهذه الأناقة والشياكة لم ير مثلها قط، كان مرتديا بزة سوداء أنيقة يحوطها معطف أسود أنيق، لم يكن يلتفت لأحد كان موجها بصره أمامه كأنه كفيف أو تائه غائب لا يشعر بمن حوله، «كيف لم ينتبه إليه الواقفون ولماذا تعلق بصري به دون غيري من الواقفين؟ ألم يروه؟»

ظل يسأل نفسه أسئلة دارت بخلده واحتار فيها عقله ولبه، اندهش منه ومن وقوفه الصامت هذا، فمن هذا؟ هل هو أحد أصدقاء أبناء عمي أم أنه أحد أقربائهم من ناحية أمهم أم ماذا؟

ظل يتردى في الحيرة حتى دفن عمه فتوجهوا ناحية القبلة للدعاء له، رآهم يديرون وجوههم ناحية القبلة أما هو فدار بجسده لكنه لم يدر بتفكيره ظل يفكر في أمر هذا الرجل الغامض حتى انتهوا من الدعاء، وبدأوا يتفرقون من حول القبر بمصابيحهم وكشافاتهم، لكنه لم يتحرك مثلهم بل دار بجسده ليراه مرة أخرى فلم يره كأنه تلاشى وتبخر في الهواء، فدار ببصره يمنة ويسرة في كل جانب من الأمام من الخلف فلم يره فدار ببصره على جميعهم، أخذ يفتشهم بعينيه لعله يكون موجودًا بينهم، فلم ير شيئًا.

انتابته دهشات متتالية وغاص في بحر من الحيرة والتفكير فسقط في هفوات الوساوس، وهو يبحث ويفتش ببصره بينهم، نظر في كل مكان حوله، فلم ير شيئًا حتى تغشاه شعور بأنه قد يكون من غير البشر، لكنه سأل نفسه وهو يسير بين تلك الجموع المنصرفة خارجة من المقابر إلى مقر العزاء في دار المناسبات في القرية، سأل نفسه إذا لم يكن بشريّا فمن يكون؟ احتار وسحله فكره بعيدًا حتى نزف ما في عقله من تصبر وتعقل، توقفت قدماه وانسل من بينهم متجهًا نحو بيته لينهي ما بدأه ثم يحمل أحماله وأثقاله ويرحل كما عزم على ذلك قبل أن يدلف معهم إلى المقابر.

دخل بيته وأغلق بابه عليه، نفض وسط الدار ببصره حتى التصق بصره بمقام أبيه، هطع نحوه في اضطراب وهز رأسه ثم تركه متجهًا نحو غرفة الكتب نظر إلى الدماء على الأرض ثم رفع بصره إلى سقف الغرفة، مرشقًا بصره نحو رفيقه صالح المعلق بحبل في سقف الغرفة كالبهيمة مدلاة رأسه لأسفل ورجلاه مربوطة بحبل سميك في حديدة دائرية في السقف بينما طرف الحبل الآخر مدلى بجوار جسد صالح، والدماء تنبع منه مقطرة على الأرض وبطنه مجوف لم يبق داخله شيء، قد فرغ مما فيه حتى صار كالطبلة جوفاء، ألقيت أحشاؤه وأمعاؤه وكل ما في بطنه على الأرض.

أطـال النظـر إليـه حتـى حسـرت عينـاه، خطـا نحـوه بضـع خطـوات ثـم وقـف عنـد رأسـه المدلـى فيميـل برأسـه لينظـر إليـه وإلـى عينيـه، ثـم ينظـر يمنـة نحـو حقيبتـه الجلديـة المفتوحـة علـى منضـدة خشـبية قديمـة فيتجـه نحوهـا ويمسـك المنشـار، ثـم يعـود إلـى جثـة رفيقـه ويرفـع المنشـار نحـو الرقبـة ليقصلهـا، فيسـمع قرعًـا شـديدًا علـى البـاب فيتوقـف عـن فعـل مـا أراد مـع ازديـاد الطـرق والـدق علـى بـاب البيـت الرئيسـي.

ارتـاب مـن هـذا القـرع الشـديد، تـرك المنشـار في مكانـه، وخـرج مـن الغرفـة وهـو يشـد بابهـا قليلًا، ثـم اتجـه نحـو صـوت القـرع المتزايـد، فتـح البـاب فوجـد في وجهـه الجـروي عابسًـا كعادتـه، ارتعـدت أركانـه وسـارت في جسـده قشـعريرة خـوف، قليـل هـذا الشـعور عليـه منـذ مـا حـدث، فلمـاذا خـاف بهـذا الشـكل هـذه المـرة مـع أنـه كـان يدبـر للانتقـام منهمـا معـا؟! لـم يـدر مـا سـبب هـذا الشـعور؟ فتشـققت عينـاه عـن تعجـب مشـوب بقلـق فقـال:

ـ الجروي ! لماذا تأخرت هكذا؟

لـم يتكلـم الجـروي فطمـا خوفـه وعـلا فزعـه وزخـرت نفسـه بالهلـع، فقـال:

ـ ما بك يا جروي؟ لماذا لا تتكلم؟

وتمسك الجروي بصمته وهو يحدق فيه، ثم أعرض بجانبه نحو اليمين، فبدا خلفه هذا الرجل الذي رآه في المقابر يحمل ذلك الوجه المشمس الذي ظل يبحث عنه بين الوجوه، رآه كما هو مليحًا بتلك النظارة التي تخفي ضياء عينيه، ارتاع قلب كاشف مع شدة نظره إليه وبلغ به الخوف منتهاه ورزته الخشية حتى كاد أن يطير فؤاده من الوجل فتجرع ريقه ونظر إلى الجروي وقال:

- من هذا يا جروي؟

ومازال الجروي قابضًا على صمته، فسحله الرعب واقتمه الفزع وامتكه الهلع والوجل حتى اصطكت أسنانه ورجلاه من الخوف، فأعاد سؤاله بصوت مرتعش موجهًا الكلام إلى هذا الرجل:

- من أنت؟

لم يتكلم هذا الرجل مثل الجروي، وتحرك بقدميه نحو الداخل فتراجع كاشف بظهره بينما هذا الرجل يتقدم، وخلفه الجروي حتى دخلا الاثنان من الباب ثم أغلق الجروي الباب خلفه.

فهرع كاشف بظهره إلى الخلف وهو ينظر إليه حتى توقف هذا الرجل عن المسير في صحن الدار، ووقف خلفه الجروي، في صمت وسكون بينما هذا الرجل الغامض أخذ يتلفت حوله

يمنة ويسرة ينفض المكان بعينيه من كل جانب من يمين ويسار ومن فوق لأسفل حتى توقفت عينه على المقام

أخذ كاشف جانبًا ويده في جيبه ممسكة بخنجره يترقب ما سيحدث، أنشأ ينظر إليه وهو يحدج في المقام فقلب عينيه بينه وبين المقام هذا نظرة والمقام نظرة، ثم أتأره بصره لما خطا هذا الرجل نحو المقام يحملق فيه مستكشفا إياه، ثم التفت فجأة إلى كاشف، فوجده مازال يحمج فيه، فقال له:

ـ كيف حالك يا كاشف؟

سكن كاشف وصمت ولم يتكلم بعدما سمع صوته، وأخذ يحدق فيه في ذهول ووجوم صارخ

فلم يطل هذا الرجل النظر إليه والتفت مرة خرى ينظر إلى المقام ثم فجأة حول بصره إلى غرفة الكتب ودون أن يتكلم تحرك الجروي وفتح الباب فانكشف له جسد صالح يتقاطر منه الدم فارتعب كاشف لانكشاف أمره فابتلع ريقه على حرد وخوف ينظر للجروي تارة ولهذا الرجل من الخلف تارة أخرى، فقال هذا الرجل دون أن يلتفت إلى كاشف قال:

ـ صالح... أخذ جزاءه كان يستحق ذلك، هذا أمر عظيم أن فعلت ذلك يا دكتور كاشف، الجزاء من جنس العمل، والقاتل يقتل ولو بعد حين، وهذا قد اشترك في المذبحة التي حدثت لأسرتك

زاد تعجب كاشف واندهاشه فقال وقد قطب بين عينيه:

- من أنت؟ وكيف عرفت كل هذا؟

التفت هذا الرجل إليه وهو مبتسم ابتسامة مخيفة:

- أنا من تبحث عنه يا كاشف

- من أبحث عنه؟! من هذا الذي أبحث عنه؟

- سل نفسك عمن تبحث طيلة هذا الوقت تريد أن تنتقم منه

أشار كاشف نحوه بأصبعه ولا تكاد شفتاه تلتقيان بنطق ما يريد قوله ثم استجمع ما تبقى منه وقال وهو يشير نحوه بسبابته:

- أنت... أنت الدكتور

ضحك ضحكة مرعبة دون أن يخلع نظارته وصفق بيديه وقال:

- مازلت ذكيّا يا دكتور كاشف، أنا الدكتور

احمرت عينا كاشف من الغضب وفارت دماؤه وأخرج خنجره وتهيأ للهجوم عليه، فمد هذا الرجل يده اليمنى نحوه في غضب، وصاح به بصوت أرعبه:

ـ قف مكانك، وإلا سحقت في موضعك

ارتعب فؤاد كاشف وتراجع بظهره خطوة للخلف بعدما كان يتهيأ للتقدم للأمام وقال بصوت باك والدموع ندت من عينيه:

- أنت، أنت الذي ذبحت أولادي الثلاثة وزوجتي وحرمتني منهم

- أنا لم أذبح أحداً ولم أحرمك من أحد، هذا دين وتم سداده، هذه إحدى اللعنات التي كشف لك عمك أمرها ثم قتلته بعد أن أفشى لك أسرار والدك الدفينة منذ سنين .

وجمت عيناه من هول ما يسمع كيف لهذا أن يعرف كل هذا؟! فقال له:

ـ من أخبرك بكل هذا؟ وكيف عرفت كل هذا؟ وهذه اللعنات كيف عرفت بشأنها؟

ضحك ضحكة مدوية كاد قلب كاشف أن ينتزع من مكانه وغرق في لجة الضحك، فقال كاشف وهو يمد يده نحوه في ارتعاش:

ـ أنت.... أنت جني، أنت كوزن أم عكرم أم من؟

توقف عن الضحك فجأة وحدق فيه ثم قال:

- أنا لست جنيًّا أنا بشر مثلك ولكن كوزن هو من رباني في كنفه ورعايته

- ماذا تقول؟! كيف أنت بشري وجني هو الذي رباك؟!

- هذه هي الحقيقة أنا بشري لكن كوزن هو من رباني وهيأني وأعدني لهذا العمل، فأنا مثلك

ثم أشار بيده نحو باب الغرفة حيث كان يقف الجروي وقال وهو يشير بيده:

ـ لكن الجروي جني

نظر كاشف في ذهول فلم يجد الجروي واقفًا في مكانه الذي كان يقف فيه منذ قليل، فارتعشت كل ذرة في بدنه لا يصدق ما يسمع.

أخذ يتلفت يمنة ويسرة من الأمام من الخلف فلم يجد شيئًا فامتقع لونه وغشيته صاعقة ومحشته غاشية وقال وهو يشير نحو المكان الفارغ من الجروي:

ـ ال... الجروي جني؟!

ضحك الرجل وقال:

ـ نعم، جني، أما صالح فمثلك لذلك استطعت أن تقتله وكان لابد أن يُقتل

هز كاشف رأسه في حركات متتالية كالمجنون وقال:

- أنا لا أفهم شيئًا مما يدور حولي، من أنت؟ وماذا تريد مني الآن؟ هل تريد قتلي وانتزاع أعضائي كما فعلت بزوجتي وأولادي أم ماذا تريد؟ اقتلني كي أستريح أريد أن أستريح لقد تعبت أريد أن ينتهي كل شيءٍ، فأنا لم أعد أفهم شيئًا حولي، لا أدري لماذا فعل بأولادي ما فعل؟ ولماذا فعلت أنت ذلك؟

- ما حدث من آثار اللعنات التي ابتلي بها والدك

صاح به كاشف:

- والدي لم يبتل بشيء، نحن الذين ابتلينا بداية من أمي وأخي التوأم ثم أخي سيف وأخي مختار ثم أنا بِقتل أولادي وانتزاع أحشائهم ثم جريّ وبحثي عن الجثث في كل مكان هذه هي اللعنات التي أصابتنا لم يصب أبي بأي شيء

- أبـوك لـه اللعنـة الكبـرى، اللعنـة السـابعة، أعظـم تلـك اللعنـات وأدومهـا

- أي لعنة أصابته؟ لقد مات قبل أن يصب بأي شيء؟

- هناك لعنة تنتظره

- ماذا تقصد؟

- الجحيـم.. الـدرك الأسـفل مـن النـار، هـذه هـي اللعنـة الخالـدة الأبديـة التـي لـن تنفـك عنـه أبـدًا، أمـا مـا حـدث لذريتـه فهـي لعنـات دنيويـة أخـذت وقتهـا وانتهـت وصـارت في قيعـان النسـيان

- مـن أدراك؟ لـم أنـس، ولـن نسـى أبـدًا مـا حييـت، كل لحظـة تمـر علـي أتذكـر مـا حـدث، كل يـوم يمـر علـي أزداد غضبًـا وحنقًـا عليـك ظللـت منتظـرًا اليـوم الـذي أقابلـك فيـه كـي أفعـل فيـك مثلمـا فعلـت بـأولادي وزوجتي وعندمـا يجـيء هـذا اليـوم أقـف ضعيفًـا خائـرًا واهنًـا لا أقـدر علـى فعـل شـيءٍ معـك أو مـع الجـروي الجنـي الـذي لا أدري أيـن هـو الآن؟ ربمـا خلفـي أو أمامـي، فمـن أنـت؟ وكيـف لهـذا الجنـي أن يكـون معـك؟

- الجروي خادمي من خدام أبي

- مـا.... مـا...مـاذا تقـول؟ هـذا كلام مجانـين مخبولـين، كيف أنت بشـري ويكون خادمك جنـي من خدام أبيـك؟ أأبـوك جنّـيٌّ ؟ وأنـت جنـي أم مـاذا؟ لقـد تـاه عقلـي، أيـن العلـم هنـا؟

- هـذه هـي الحقيقـة يـا كاشـف، أنـا حقّـا مثلك بشـري وفي نفس عمـرك، وأبـي مثلـي ومثلـك بشـري ولكنـه فعل مـا جعلـه يصاهـر الجـن ويتـزوج منهـم

صعق كاشف بكلامه ودار برأسه وهو ينظر إليه وقال:

- ماذا تقـول؟ هـذا هـو أبـي الـذي تـزوج مـن الجـن في هـذه الحجـرة السـفلية التـي دفـن فيهـا وبنـي فوقهـا هـذا المقـام، أنـت تتكلـم عـن مـن؟ عـن أبـي أم عـن أبيـك؟

ضحك ضحكة مدوية ثم قال:

- أبي وأبوك شخصٌ واحدٌ

انتفضت أجزاؤه وثارت كوامن بدنه وقال:

- ماذا تقول؟

- هـذا يـوم المفاجـآت بالنسـبة إليـك يـا كاشـف، هـذه هـي الحقيقـة أنـا ابـن أبيـك

- كيف ابن أبي؟! أبي لم ينجب سوى أربعة ذكور، هل أنت...

- أنا ماذا؟

- أنت من نسل زوجته الجنية عكرم؟

تعالت ضحكاته وقهقهاته ودار بجسده ثم اقترب منه وخلع نظارته فانكشفت عن عينين ساحرتين وحدق فيه ثم قال:

ـ أنا أخوك من أمك وأبيك؟

تصلب كاشف في مكانه وهو ينظر في عينيه الساحرتين ابتلع ريقه ثم مد يده مشيرًا إليه وهو يتأتئ في الكلام:

- أنت........ أنت.......

- توأمك، باهر كما أسماني عمك ووافقه أبوك ولكن اسمي الحقيقي صخر كما أسماني أبي الذي رباني كوزن

خر كاشف جاثيًا على الأرض دون أن يخفض بصره عن أخيه من هول الصدمة وفرط المفاجأة غير المتوقعة، أسكت وأخرس عجز عن الكلام ثم قال وهو ينظر إلى أخيه محدقا فيه:

- هذا ضرب من الخيال، كيف هذا، كيف أصدق هذا؟
- هذه هي الحقيقة إذا أردت أن تصدق فصدق وإذا أردت غير ذلك فأنت حر
- كأني أحلم، هل حقّا أنا في حلم؟ أنا هنا في هذا المكان أحلم بأشياء غريبة ربما يكون هذا من بين هذه الأحلام
- ربما ....
- اصدقني القول، من أنت؟
- أنا باهر توأمك كما قلت لك

تحامل على نفسه حتى وقف وقال بصوتٍ غاضبٍ:

- كيف تكون أخي توأمي وتفعل في أولادي ما فعلت؟!
- قلت لك أنا لم أفعل شيئًا، هذه من آثار اللعنات التي حلت بوالدك وذريته دَين وكان عليه أن يسدده في الدنيا والآخرة

هز رأسه وقال:

- هذا غير صحيح، أنا لا أصدق أي شيء من هذا

ـ هذه هي الحقيقة وإذا كنت تريد إثباتًا آخر، تعال معي

ومد يده نحوه بعد أن لبس نظارته الشمسية مرة أخرى فاختفت ملامح عينيه وتعابير وجهه

نظر كاشف إلى يده وقال:

ـ آتي معك أين؟

أشار برأسه نحو المقام وقال:

– إلى الحجرة السفلية

– ماذا تقول أجننت؟ الحجرة السفلية ملعونة وبها قبر والدك الملعون وإذا عبثنا في شيء منها أو حتى في المقام أو في محتوياته سيصيب البلدة كلها لعنات لا قبل لهم بها وسيهجم عليهم جنود كوزن وأتباعه يسومونهم سوء العذاب

– من قال لك ذلك؟

– عمي قاله لي قبل أن يموت، وقد حذره كوزن وأخبره بهذا

– تعال معي لنرى

دفع يده وقال:

- نرى ماذا؟ أنا لا أريد أن أرى شيئًا، ماذا سيكون بالأسفل؟ قبر والدك ترابه وجنيته ولعناته، لا أريد أن أرى شيئًا

- هل تصدق أن والدك قد مات؟

- ماذا تقول؟

- أنا لم أره قط، ولم أعرف ملامحه وأريد أن أرى وجهه فتعال لنراه

- كيف ترى وجهه وهو قد مات؟

- ربما لم يتحلل وجهه أو ربما...

- ربما ماذا؟

- لا أدري، ربما أنه لم يمت بعد؟

- من قال لك ذلك؟ كوزن؟

- صدقني لا أعلم هل هو ميت أم لا؟ ولكن عندي إحساس أنه مازال حيّا؟

- ماذا قال لك كوزن؟

- قال لي أن أنسى أمره نهائيًّا ولا أتذكره حتى الموت

- ولماذا تريد أن تخالف أمره الآن؟

- أنا لن أخالف، بل أنت؟

- ماذا تقول؟ كيف أكون أنا من خالف وليس لي علاقة به؟

- أنت الذي ستزيح المقام وتنزل إلى الأسفل وأنا خلفك

صاح به:

- ماذا تقول؟ أجننت؟ كيف أنزل لا أريد مزيدًا من اللعنات، يكفي ما حصل وقد انتهت تلك اللعنات وبقي ما بقي منها لأبي يوم القيامة، وكيف أضر وأؤذي أهل البلدة؟

- ما هذا القلب الرحيم يا كاشف؟ ألم تخطف «فاروق» الطفل الصغير؟ ألم تنتزع جثثا من قبورها وتقطع أجسادًا وتجز أعضاءها؟ ما هذه الرحمة المفاجئة؟!

- قلت لك لقد انتهى كل شيء وانتهت اللعنات فلا أريد أن أجددها

- لم ينته شيءٌ بعد يا أخي، قد بدأت الآن

- ماذا تعني؟

- أنا أعلم أنك من داخلك تريد أن تزيل هذا المقام وتنزل إلى الأسفل لتتأكد هل والدك حي أم لا؟ أنا أيضًا أريد أن أتأكد، صدقني لا أعرف، وأريد أن أعرف وأن أراه حتى لو أموت بعدها، أريد أن أعرف حاله وأسأله سؤالاً واحدًا لماذا فعلت بنا ذلك؟

- كيف تكون ربيت عند كوزن وأعوانه وصرت منهم ومع ذلك لا تعرف شيئًا عن والدك؟!

- لأن أباك يخص «عكرم» وحدها، وقد طلبت من والدها إذا كان يريدني حيّا ألا أعرف عنه شيئًا، وقد أعلمني بهذا الأمر وطلب مني أن أنسى أمره ولا أتذكره أبدًا، لكن الحنين والعاطفة دفعاني لمعرفة أمره، أريد أن أتأكد فقط كي يستريح قلبي

نظر كاشف إليه في صمت كأنه يفكر ثم قال:

- ولماذا أنا بالذات؟ اذهب بنفسك وافعل ما تريد، أنا لا أريد أن أعرف شيئًا عنه بعد ما فعله

- كل هذا من أجله يا كاشف لو مات والدك على ما فعله ستصير اللعنة السابعة الأبدية من أجله وفي

انتظاره في الآخرة وسيناله شيءٌ منها في برزخه أمًّا إذا وجدناه حيًّا لم يمت فقد يكون في مقدورنا إنقاذه منها بالرجوع والعودة حتى لا يتأبد في تلك اللعنة، هذا من أجله، ومن أجلنا كلنا

دقق كاشف النظر فيه في صمت ينظر إليه وقد توغل فيه كلامه ابتلع ريقه وأخذ ينظر إلى وجهه تارة وإلى يده التي مازلت ممدودة نحوه تارة أخرى في تردد وحيرة من أمره ثم قال:

ـ كيف أصدقك بعد كل ما فعلته أنت وأتباعك؟

– ما حدث حدث وانتهى يا كاشف مازال بإمكاننا إنقاذ أبينا لو كان حيًّا وإرجاعه من جديد، لكن لو وجدناه ميتًا سينتهي كل شيء ولن يحدث شيء أما لو كان حيًّا فسينالني غضب كوزن وعقاب ابنته وسيصير لي نصيب من اللعنات، أما أنت فلن يصيبك شيء لأنك أخذت حظك ونصيبك منها

– وبالنسبة لأهل البلد الذين سيهجم عليهم جنود كوزن ورجاله وستصب عليهم اللعنات من كل جانب

– هذا في علم الله، هذا غيب، لو كان مكتوبًا لهم ذلك سيحدث ولو كان مكتوبًا لهم غير ذلك فلن يحدث

حتى لو اجتمع كوزن وجميع الإنس والجن فكل شيء مقدر ومكتوب وما حدث لنا جميعًا كان مقدرًا ومكتوبًا، وربما قد كتب على أبينا التوبة والرجوع على يديك.

نظر كاشف إليه في صمت وإلى يده وقد انساب كلامه في رأسه فنظر إليه ثم نظر إلى يده ثم خطا خطوات نحو المقام في ثبات وسكون.

●●●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر